
سلسلة تفسير القرآن الكريم (٧)

التفسير المنهجي

مِنْ سورةِ الأنفالِ - نِهايَةِ سورَةِ التَّوبةِ

تأليف

د. جمال أبو حسّان

إشراف

الأستاذ عمر خليل يوسف

المراجعة العلمية

الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر



هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن

http:\www.dmanhal.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/١/٨٦)

٢٢٢,٦

أبو حسان، جمال

التفسير المنهجي: من سورة الأنفال ـ إلى نهاية سورة التوبة / جمال أبو حسان. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦

(٢٢٣) ص (سلسلة القرآن الكريم؛ ٧)

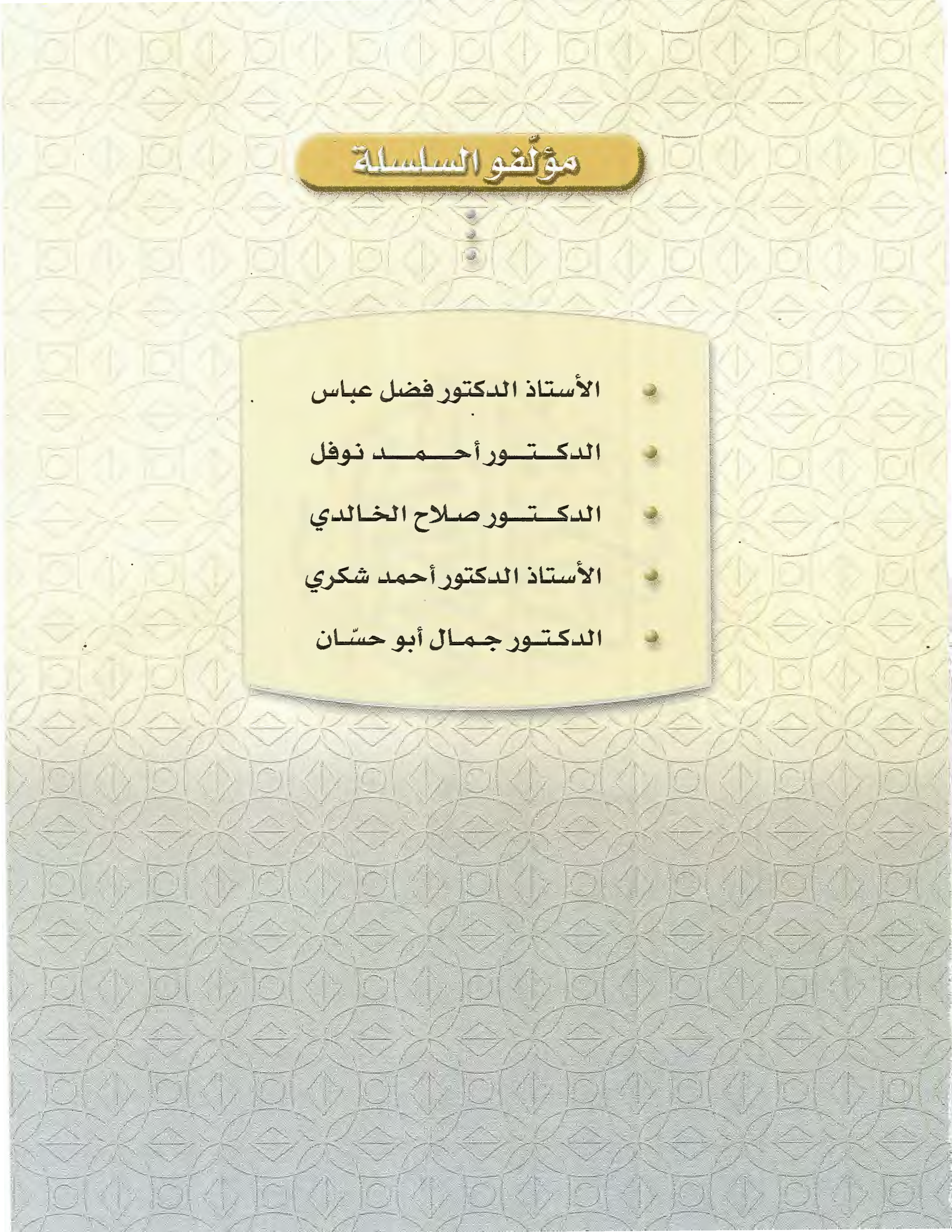
ر. إ: (٢٠٠٦/١/٨٤).

الواصفات: / القران/ / التفاسير/ / الاسلام/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

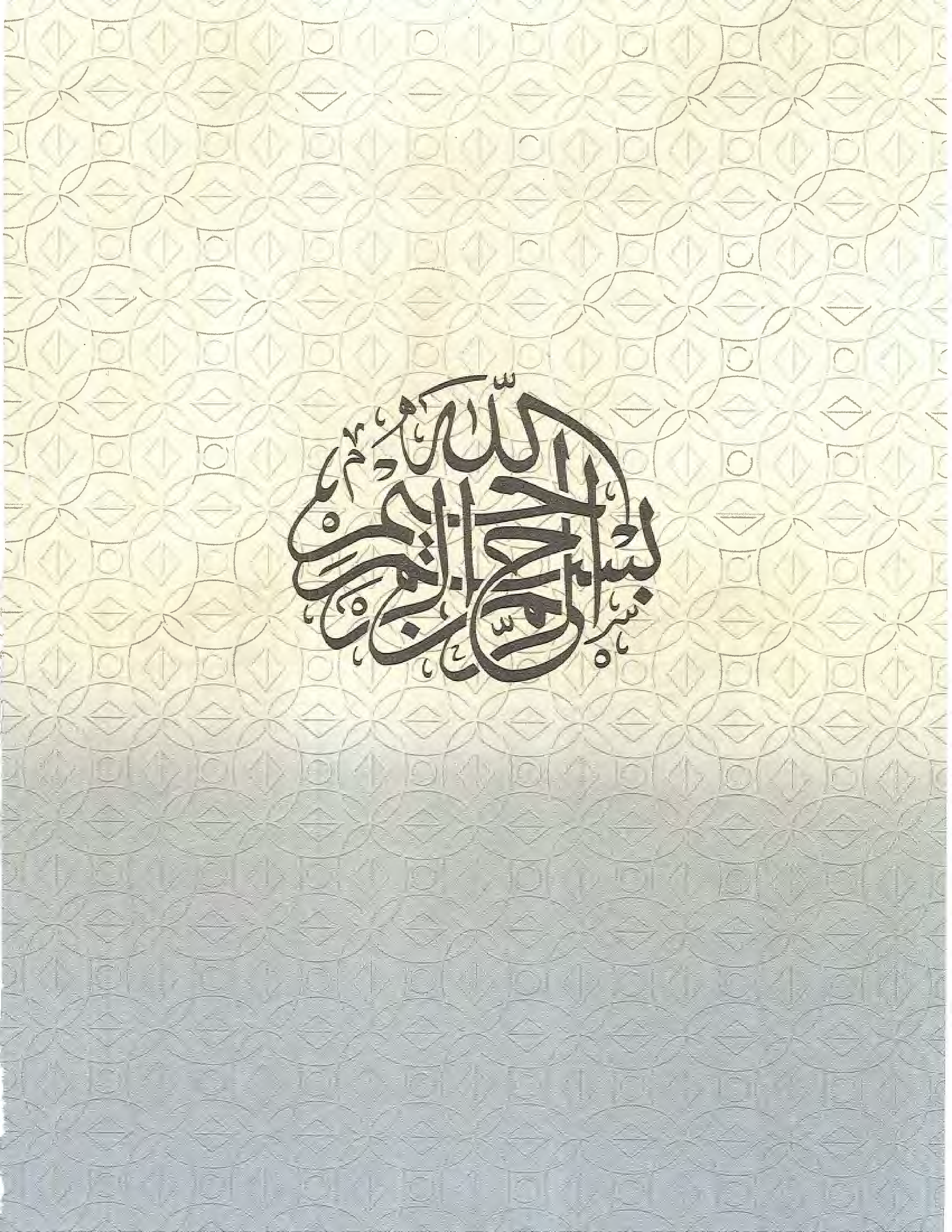
الطبعة الأولى
2006

رقم الإجازة: 43 / 1 / 2006
رقم الإيداع: 86 / 1 / 2006
التصنيف الدولي: 9957-08-484-4



مؤلّفو السلسلة

- الأستاذ الدكتور فضل عباس
- الدكتور أحمد نوفل
- الدكتور صلاح الخالدي
- الأستاذ الدكتور أحمد شكري
- الدكتور جمال أبو حسّان


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ ، وَالصّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأَنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبِهِ ومن سارَ على دربِهِ إلى يومِ الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نَبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .

وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأَحاديثِ الحثُّ على تعلُّمِ القرآنِ ومُدَارَسَتِهِ ، ومِنْ ذَلِكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ[(١)] ، وَقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينَهَم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائكةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[(٢)] .

وقد بَذلَ المُسْلِمُونَ على مرِّ العُصور جُهوداً كثيرة مُتَوالِيَةً في خِدْمة هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَّلقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسيرها ، وكان لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

ومِيزةُ هذا التفسير أنَّه أُعِدَّ لِيكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريس في المَدارِسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبَّةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تَمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .
* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .
* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالِي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوَايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إِمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تخَريجُ الأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَّبلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾
كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ
بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ الأَنْفالِ مَدنيَّةٌ ، وآياتُها خمسٌ وسَبْعونَ ، وَقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى فيها بعضَ أحْكامِ القِتالِ ، والبَواعِثَ عليهِ ، وأسْبابَ النَّصْرِ ، ومقامَ القُوَّةِ المَعنويَّةِ في الانْتِصارِ ، وأَحْكامَ الغَنائمِ ، وذَكَرَ فيها بَعْضَ ما يَتعلَّقُ بغزوةِ بَدْرٍ ، وخَتَمها سُبحانَهُ ببيانِ ولايةِ المُؤْمنينَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً .

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **الأَنْفالِ** : جَمْعُ نَفَلٍ، وهو المالُ المَأْخوذُ مِنَ الكُفّارِ قَهْراً بِقتالٍ .
- **ذاتَ بَيْنِكُمْ** : الحالَ الّتي بَيْنَكُمْ .
- **وَجِلَتْ قُلوبُكُمْ** : خافَتْ مِنْ هَيْبَةِ اللهِ .
- **يُجادِلونَكَ في الحقِّ** : يُراجِعونَكَ في إيثارِكَ الجِهادَ .
- **كأنَّما يُساقونَ إلى الموتِ وهُمْ يَنظُرونَ** : تصويرٌ لِحالَتِهِمْ تلكَ في كراهيةِ الخُروجِ وأنَّهُ على غيرِ رَغْبةٍ مِنْهُمْ .



التَّفسيرُ :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ .

سألَ بعضُ الصَّحابَةِ النَّبيَّ ﷺ عَنْ كَيفيَّةِ تَوزيعِ الغَنائِمِ ، وذلكَ بعدَما انتُهتْ معركةُ بدرٍ ، واخْتلَفَتْ آراؤُهُمْ في كيفيَّةِ التَّوزيعِ ، فَأَوْحى اللهُ تَعالى إلى نَبيِّهِ ﷺ أنَّ هذهِ الغَنائِمَ إنَّما هيَ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى بثلاثةِ أُمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يَتَّقوا اللهَ تَعالى ، وفي هذا الأمْرِ تَوْجيهٌ لِما يَنفعُهُمْ ، ولِما يَنْبَغي أنْ يَحْرِصوا عليْهِ .

الثّاني : أنْ يُصْلِحوا أحوالَهُمْ وما يدورُ بَيْنَهُمْ ، لأنَّ إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ معَ التَّقوى يُقوّي شَوْكَةَ المُسْلِمينَ ، ويَزيدُ الأُلْفَةَ بَيْنَهُمْ ، وهذا ما كانَ النَّبيُّ ﷺ يَحْرِصُ عليْهِ .

الثّالثُ : إطاعةُ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ ، وفي هذا كلِّهِ ما يُبيِّنُ وِحْدَةَ الصَّفِّ المُسْلِمِ وَرِفْعَةَ شَأْنِهِ .

ثُمَّ وصفَ اللهُ تَعالى كاملي الإيمانِ بالصِّفاتِ الخَمْسِ الآتيةِ ، تَرْغيباً للسّائِلينَ وحَضّاً على الاتِّصافِ بها ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ .

وهذهِ هي الصِّفاتُ الخَمْسُ :

١ـ خوفُ قُلوبِهِمْ وفَزَعُها مِنْ هَيْبَةِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ازْدِيادُهُمْ تَصديقاً ويَقيناً كُلّما تُلِيَتْ عَليْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى .

٣ـ لا يَعتمِدونَ إلاّ على ربِّهِمْ ، ويُفوِّضونَ أُمورَهُمْ كُلَّها للهِ تَعالى وحْدَهُ ، فلا يَرْجونَ غَيْرَهُ ، ولا يَسْأَلونَ سِواهُ ، ولا يَرْغبونَ إلاّ إليهِ .

٤ـ لا يَفْتُرونَ عنْ إقامةِ الصَّلاةِ والمُحافَظةِ عَليْها ، وأدائِها كامِلَةَ الخُشوعِ مُستوفِيَةَ الأرْكانِ .

٥ـ لا يَتأَخَّرونَ عَنِ الإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعالى .

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ .

أَخْبَرَ سُبْحانَهُ بأَنَّ المُتَّصفينَ بهذهِ الصِّفاتِ ، الجامِعينَ بينَ الإيمانِ والعَمَلِ ، همُ المُؤْمِنونَ إيماناً

حقّاً ، وهذا هو الإيمانُ الكامِلُ ، وهؤلاءِ يَغفِرُ اللهُ تَعالى لهمْ هَفَواتِهِمْ ، ويَرزُقُهُمْ رِزْقاً طَيِّباً في الدّنْيا ونَعيماً دائِماً في الآخِرَةِ .

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

ثُمَّ أَخبرَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في هذهِ الآيَةِ أَنَّ حالَ بعضِ أَهْلِ بَدْرٍ في الاختلافِ في الغنائِمِ ، مثلُ حالِ بَعْضِهِمْ في كَراهَةِ القِتالِ معَ ما في هذهِ القِسْمَةِ والقِتالِ مِنْ خيرٍ ، فلقدْ خَرَجَ رسولُ اللهِ مِنْ بَيْتِهِ بالحَقِّ ، فما بالُ بعضِ المُؤْمِنينَ يَكْرَهونُ لِقاءَ أعدائِهِمْ ؟

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

يُبيِّنُ الحَقُّ سُبحانَهُ وتَعالى ما قالَهُ المُؤْمِنونَ للرّسولِ ﷺ ، فَهُمْ يُحاورونَكَ ويُناقِشونَكَ في أَمْرِ القِتالِ بِقَوْلِهِمْ : ما كانَ خُروجُنا إلاّ للقافِلةِ دونَ تَأَهُّبٍ للقِتالِ ، وذلكَ بعدما تَبيَّنَ لهمُ الحَقُّ بإعْلامِكَ إيّاهُمْ أَنَّ اللهَ تَعالى ناصرُهُمْ حيثُ ذَهَبوا . وكانَ الرّسولُ ﷺ قدْ أخْبَرَهُمْ قبلَ نَجاةِ قافلةِ قُرَيْشٍ بأنَّ اللهَ تَعالى وَعَدَهُ الظّفَرَ بإحْدى الطّائِفَتينِ : القافلةِ أو القِتالِ ، فلمّا نَجَتِ القافلةُ عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ النَّصْرَ الموعودَ بهِ إنّما هو على كُفّارِ قُرَيشٍ .

وقدْ كانَ مِنْ أمْرِ كراهيةِ هؤلاءِ الّذينَ جادَلوا رسولَ اللهِ في أمْرِ القتالِ أنّها بَلَغَتْ في نُفوسِهِمْ مَبْلَغاً عَظيماً ، وكأَنَّهُمْ يُساقونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنظرونَ إلى أسْبابِهِ ويُعاينونَها .

وقَدْ وقَعَتْ في هذهِ الغَزوةِ كَراهتانِ بِحُكْمِ الطَّبيعةِ البَشَريَّةِ ، وأعقبَهُما إذعانٌ وتَسليمٌ ورِضىً مِنَ الصَّحابةِ رِضوانُ اللهِ عَليهِمْ :

الأُولى : كَراهَةُ شُبّانِ أَهْلِ بَدْرٍ قِسْمَةَ الغَنيمةِ بالسَّوِيَّةِ ، وكانوا يُحِبّونَ الاسْتِئْثارَ بِها ، لأَنَّهمْ هُمُ الّذينَ باشَروا القِتالَ دونَ الشيُّوخِ الّذينَ كانوا مَعَهم في الغَزْوَةِ ، معَ أَنَّهُمْ كانوا مَعَهُم في المَعْرَكةِ .

فكانَ في الأمْرِ بالقِسْمةِ السَّوِيَّةِ خيرٌ للمُؤْمِنينَ ، إذْ أَصْلَحَ اللهُ بَيْنَهُمْ ورَدَّهُمْ إلى حالةِ الرِّضا والصَّفاءِ .

الثّانيةُ : كراهَةُ بعضِ أَهْلِ بَدْرٍ قتالَ قُرَيْشٍ بعدَ نَجاةِ القافِلَةِ الّتي خَرَجوا لأَجْلِها ، وذلكَ أنّهم خَرَجوا مِنْ غَيْرِ اسْتِعدادٍ للقِتالِ الّذي أُمِروا بِهِ ، عِزَّةً للإسْلامِ ودَحْراً للكُفْرِ والطُّغيانِ .

وفي هذهِ الآيةِ تنويهٌ وبَيانٌ ، لأَنَّ الخَيْرَ فيما قَدَّرَهُ اللهُ تَعالى لا فيما يَظُنُّونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنبغي لِلمُؤْمِنِ أنْ يَحْرِصَ على السُّؤالِ عمّا يَهُمُّ أمْرَ دينهِ ودُنياهُ .

٢ـ يَنبغي للمُؤْمِنينَ المُسارعةُ إلى الاسْتِجابةِ لأمْرِ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ .

٣ـ المُؤْمِنُ الحَقُّ هو الّذي يَجْمَعُ بينَ سَلامةِ العقيدةِ ، وسَلامةِ الحالِ وصَلاحِ العَمَلِ .

٤ـ الخيرُ كلُّهُ فيما يَختارُهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ سألَ المُؤْمِنونَ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الأَنْفالِ ، ماذا كانَ الجَوابُ عَنْ سُؤالِهِمْ ؟

٢ـ ما علاماتُ المُؤْمِنِ الصّادِقِ ؟

٣ـ اذْكُرِ الآيةَ الدّالَّةَ على كلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ الواردةِ في آياتِ الدّرسِ .

نَشاطٌ :

ـ مَتى حَصَلَتْ غَزْوةُ بَدْرٍ ؟ وما سَبَبُها ؟

* * *

الدَّرسُ الثّاني

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الثّاني

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ
كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

إِحْدى الطّائِفَتينِ	: الطّائفةُ الأولى هِيَ القافِلةُ الّتي كانَ يقودُها أبو سُفيانَ ، والثّانيةُ جيشُ قُريشٍ وَرِجالُها بِقيادةِ أبي جَهلٍ .
ذاتِ الشّوكَةِ	: ذاتِ العُدَّةِ والسِّلاحِ والمُرادُ جَيشُ قُريشٍ .
يقطعَ دابرَ الكافرينَ	: يُهلِكَهُمْ عنَ آخِرِهِم .
تَستغيثونَ	: تَطلُبونَ الغَوْثَ والعَوْنَ .
مُمِدُّكُمْ	: مُعينُكُم بِقُوّةٍ ومَدَدٍ .
مُردِفينَ	: مُتتابِعينَ .

التَّفسيرُ :

كانَ قدْ بَلَغَ رَسولَ اللهِ ﷺ أَنَّ إِبلاً عَلَيْها تِجارَةٌ لِقُرَيْشٍ ومَعَها قافِلةٌ مِنَ الشّامِ راجِعَةٌ إلى مَكَّةَ ، وإِذا أرادَ اللهُ أَمْراً هيّأَ أَسْبابَهُ ، فَلَقدْ نَجَتِ القافِلَةُ معَ أَبي سُفيانَ ، وجاءَتْ قُرَيْشٌ بِجَيْشِها وقُوَّتِها لِتُلاقِيَ مَصيرَها على يدِ المُسلِمينَ .

فهذِهِ الآياتُ والّتي تَليها تَتحدَّثُ عمّا جَرى بَيْنَ المُسلِمينَ والمُشْرِكينَ في هذهِ الواقِعَةِ .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

هذا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِلْمُؤْمِنينَ إذْ يقولُ لَهُمْ : اذْكُروا أيُّها المُؤْمِنونَ وعْدَ اللهِ لكُمْ بأنْ تَنالوا إحْدى الطَّائِفَتَيْنِ : إمّا قافِلةَ قُريشٍ وإمّا النّصرَ على جَيشِ قُريشٍ ، فَلمّا نَجَتِ القافِلَةُ رَجَعَ الوَعْدُ إلى الجَيْشِ . ومَعَ ذلكَ فَقد كانتْ رَغْبَةُ المُسلِمينَ في القافِلةِ ، وَلكنّ اللهَ تَعالى أَرادَ لَهُم الجَيْشَ ، لِتنْكَسِرَ شَوْكَةُ الكُفْرِ ، وَلِيُعْلِيَ اللهُ أمْرَهُ وَيُهلِكَ الكافِرينَ . وَقدْ حَصَلَ والحمدُ للهِ ما أرادَهُ اللهُ تَعالى ، فَأَعْلى سُبحانَهُ وتَعالى أمْرَ المُسلِمينَ ، وَخَفضَ شَأنَ الكافِرينَ وَأذلّهُمْ ، لِيَكونَ في ذلكَ عِبْرةٌ أبَدَ الدَّهرِ .

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

أي أنّ اللهَ تَعالى وَعَدَ بما وَعدَ ، وَأرادَ بإحدى الطّائِفتينِ جَيشَ قُريشٍ صاحبِ العُدّةِ والعَتادِ لِيُحقَّ الحَقَّ ؛ أي يُقِرَّهُ ويُثْبتَهُ . والحَقُّ هُنا هُوَ الإسْلامُ ، وَيُبطِلَ الباطلَ أي : يُزيلهُ وَيمحَقَهُ ، وَهوَ الشِّركُ .

وهذا الّذي فَعلَهُ اللهُ تَعالى كانَ على غَيرِ رَغبةٍ مِنَ المُعتدينَ والطُّغاةِ مِنَ المُشْركينَ ، وبهذا يَتبيّنُ أنّ إحقاقَ الحقِّ وإبطالَ الباطلِ لا يكونُ باستيلاءِ المُسلِمينَ على القافِلةِ ، وإنّما بِقَتْلِ أئِمَّةِ الكُفرِ من صَناديدِ قُريشٍ المُعاندينَ ، الّذينَ خَرجوا للمُسلِمينَ يُريدونَ القَضاءَ عَليْهِم . وقَد كانَ للهِ تَعالى ما أرادَهُ والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ .

وَلَقدْ ذُكِرتْ كَلمةُ الحقِّ في الآيَتيْنِ السّابقتيْنِ ، وَليسَ هُما بمعنًى واحدٍ ، إذ الأولى بمعنى قِتالِ المُشْرِكينَ مَعَ الوَعدِ المحُقَّقِ بالنّصرِ للمُؤمِنينَ ، والثّانيةُ بمعنى الإسلامِ والوعدِ بظُهورِهِ .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

رَوى مُسلِمُ وَغيرُهُ عَنْ عُمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : لمّا كانَ يومُ بدرٍ نَظرَ النّبيُّ ﷺ إلى أصحابِهِ وهُمْ ثلاثمايةٍ وَبضعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، وَنظرَ إلى المُشْركينَ فإذا هُمْ ألفٌ وزيادَةٌ ، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ تَعالى القِبْلَةَ ، ثُمَّ مدَّ يَدَهُ وجعلَ يهتِفُ بربِّهِ : اللّهُمَّ أنْجزْ لي ما وَعَدْتَني ، اللّهُمَّ إنْ تَهلِكْ هذهِ العِصابَةُ مِنْ أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدُ في الأرضِ ، فما زالَ يَهتفُ بَربِّهِ مادّاً يَديهِ مُستقبلَ القِبْلةِ حتى سَقطَ رداؤُهُ ، فأتاهُ أبو بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنْهُ فأخذَ رِداءَهُ فألقاهُ على مَنكِبيهِ ، ثُمَّ التزَمَهُ مِنْ ورائِهِ وقالَ : يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مُناشدتكَ ربّكَ فإنهُ سَيُنْجزُ لكَ ما وَعَدكَ[1] .

---

(١) صحيح مسلم رقم : ١٧٦٣ ، باب الإمداد بالملائكة في غزو بدر (١٨) حديث رقم ٥٨ .

هذهِ صورةُ استغاثَةِ نبيِّ اللهِ ، وَقَدْ فَعلَ أصحابُهُ مِثلَ ما فعلَ ، فإنّ ذلكَ المقامَ الّذي كانوا فيهِ كانَ مقامَ شِدةٍ وَهوْلٍ ، فناسَبهُ هذا الفِعلُ الّذي فيهِ غايَةُ التَّذلُّلِ والتَّخشُّعِ للهِ تَعالى وَطلبِ المَعونَةَ والغَوْثِ مِنهُ وَحدَهُ .

وَقدِ استجابَ اللهُ تَعالى استغاثَةَ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ بأنْ أنزلَ عليهِ ألفاً مِنْ ملائِكَتِهِ مُتتابِعينَ لِنُصرةِ جيشِ المُسلِمينَ .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

وَلَقدْ بيّنَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في هذهِ الآيةِ أنّهُ ما جعلَ الإمدادَ بالملائِكةِ إلاّ لِغَرَضَيْنِ اثْنَيْنِ : الأوّلُ بِشارةٌ لِلمُؤمنينَ بِنَصْرِهِمْ على أعدائِهِمْ في هذهِ الغَزوةِ . والثّاني : تَسكينٌ لِقُلوبِ المُؤْمنينَ وإزالةُ الخَوفِ عَنهُم .

وإذ قَد تحقّقَ الغَرضانِ ، فقدْ واجَهَ المُسلِمونَ أعداءَهُمْ بِثباتٍ وَيقينٍ واطمِئْنانٍ بالنَّصرِ ، فَهزموهُمْ بإذنِ اللهِ .

ثُمَّ أخبرَ سُبحانَهُ أنَّ النَّصرَ لا يكونُ لا بالملائِكةِ ولا بِغيرِهِمْ ، وإنّما يكونُ مِن عندِ اللهِ وحْدَهُ . وإنَّ الوسائلَ مَهْما عَظُمتْ والأسبابَ مَهْما كَثُرتْ لا تُؤدّي إلى النّتيجةِ المَطلوبةِ والغايةِ المَرجُوّةِ ، إلاّ إذا أيّدَتْها إرادةُ اللهِ تَعالى وَقدرتُهُ ورعايتُهُ .

وخُتِمتِ الآيةُ بِوَصْفَيْنِ كَريمَيْنِ للهِ تَعالى ، الأوّلُ : العزيزُ ، ومعناهُ : الّذي لا يَغلِبُهُ غالِبٌ ولا يَفوتُهُ هارِبٌ ، والثّاني : الحكيمُ ، وهوَ الّذي أتقنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ . وفي هذا الدّليلُ على أنّ ما حدثَ لِلمُؤْمنينَ في بدرٍ إنّما هُو بإرادَةِ اللهِ تَعالى وحِكْمَتِه .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لابدّ وأنْ يَطمَئِنَّ قَلْبُ المُؤْمِنِ لِوعْدِ اللهِ تَعالى .

٢ـ إنّ في إعلانِ شَأْنِ الحقِّ إبطالٌ لِشَأْنِ الباطِلِ .

٣ـ لابدّ لِلمُؤْمِنِ مِنْ إدامةِ التَّوجُّهِ للهِ تَعالى والإخلاصِ لَهُ سُبحانَهُ ودعائِهِ في كلِّ حينٍ .

٤ـ لا يَتحقّقُ شيءٌ إلاّ بإرادَةِ اللهِ تَعالى .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ أثرَ طاعةِ اللهِ تَعالى في تأييدِهِ لعبادِهِ .

٢ـ ما أهمُّ الفوائِدِ الّتي نَستفيدُها مِنْ هذهِ الآياتِ ؟

٣ـ بيِّنْ مَوْقِفَ الرَّسولِ الكَريمِ عِندما رأى جَيشَ الكُفرِ .

٤ـ عدّدِ النِّعمَ الّتي أنعَمَها اللهُ تَعالى على المُؤْمِنينَ كما جاءَ في هذهِ الآياتِ .

٥ـ ما الآيةُ الدَّالَّةُ على أنَّ النّصْرَ مِن عندِ اللهِ ؟

٦ـ ماذا نَفهمُ مِن كُلٍّ ممّا يَلي :

أـ وَتَوَدّونَ أنّ غيرَ ذاتِ الشّوْكَةِ تَكونُ لَكُم .

ب ـ لِيُحِقَّ الحقَّ وَيُبْطِلَ الباطِلَ .

ج ـ فاسْتَجابَ لَكُم أنّي مُمِدُّكُم بألفٍ مِنَ الملائِكةِ مُرْدِفينَ .

٧ـ جاءَ ذِكْرُ الحقِّ مَرّتينِ في الآياتِ الكَريمةِ ، بيّنْ معنى الحقِّ في كلِّ مَوْطِنٍ .

نَشاطٌ :

ـ كم كانَ عددُ كُلٍّ مِنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمِنينَ في معركةٍ بَدْرٍ ؟ وماذا يعني هذا الفَرْقُ في العَدَدِ بينَ الجَيْشَيْنِ ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُغَشّيكُمُ النُّعاسَ : يَجعلُهُ غاشياً لَكُمْ مِثلَ الغِطاءِ ؛ مِن غشّاهُ إذا غطّاه .

أَمَنةً مِنهُ : أَمْناً وَاطْمِئناناً وإزالةً لِخَوْفِكُم .

رِجزَ الشّيطانِ : وَسْوَسَتهُ لَكُم وتخويفَهُ إيّاكُمُ العَطشَ ونحوَه .

لِيَربطَ على قُلوبِكُم : يُثَبِّتَها ويَشُدَّها .

كلَّ بَنانٍ : البَنانُ جَمعُ بنانةٍ ، وهي طَرَفُ الإصْبَعِ .

شاقّوا اللهَ ورسولَهُ : خالفوا أمْرَ اللهِ تَعالى ورسولَهُ ﷺ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ .

ما تزالُ الآياتُ تُبيّنُ نِعَمَ اللهِ تَعالى على عِبادِهِ يومَ بدرٍ ، وهُنا يُذكِّرُ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ بِنِعَمٍ

أُخرى مِن نِعَمِهِ عَليْهِمْ ، وتَذكُرُ الآيةُ الكَريمةُ هنا نِعْمَتيْنِ : الأولى : تَغْشيتُهُمْ بالنُّعاسِ ، والثّانيةُ : إنْزالُ المَطرِ تطهيراً لهُمْ . فأمّا نِعمةُ النُّعاسِ فكانتْ شأْناً عَجيباً في ذلكَ الوقتِ ، لأنَّ المُسلِمينَ كانوا يَتحدّثونَ في شأنِ جيشِ قُرَيْشٍ وكثرةِ عَدَدِهِم مُوازنةً بعددِ المُسلِمينَ ، فاضْطَربَتْ بعضُ نُفوسِهِم لهذهِ المُوازنةِ ، وأصابَهُمْ بعضُ الخَوْفِ والفَزَعِ فأَمَّنهُمُ اللهُ بالنّعاسِ .

وإنّما كانَ النُّعاسُ أَمْناً لَهُم لأنَّهُم لمّا ناموا زالَ أثرُ الخوفِ مِنْ نُفوسِهِم في مُدّةِ النَّومِ فتلكَ هي النِّعْمَةُ ، ولمّا استَيْقَظوا وجَدوا نَشاطاً ، ونَشاطُ الأعصابِ يُكسِبُ صاحِبَهُ شجاعةً ويُزيلُ شُعورَ الخوفِ الّذي هو فُتورُ الأعصابِ .

وأما النِّعمةُ الثّانيةُ وهي إنزالُ الماءِ عَليْهِم ، فكانَ شأنُها أعجبَ ، إذْ قَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعالى في هذهِ الآيةِ الكَريمةِ أَنّهُ قد حَصلَ للمُسلمينَ بها أربعُ منافعَ : الأولى : تطهيرُهُم بِهِ ، أي تطهيراً حِسِّياً بالنَّظافةِ التّي تَشرَحُ الصَّدْرَ وتُنشِّطُ الأعضاءَ في كلِّ عملٍ ، وتطهيراً شَرْعياً بالغُسْلِ مِن الجَنابةِ ـ لِمنْ أصابَتْهُ ـ وكذلكَ بالوضوءِ مِنَ الحدَثِ الأصْغَرِ .

الثّانيةُ إذهابُ رِجسِ الشَّيطانِ عَنهُم ، والرِّجسُ هو الشَّيءُ المُستَقذَرُ حِسّاً أو معنىً ، والمُرادُ هُنا وسوَسَةُ الشَّيطانِ كما تَقدَّمَ .

الثّالِثةُ : الربطُ على القُلوبِ ، ويُعبَّرُ بِهِ عَن تَثبيتِها وتَوطينِها عَلى الصَّبرِ .

الرَّابعةُ : تَثبيتُ الأقدامِ بِهِ ، فإنَّ مَنْ كانَ يَعلَمُ أنَّهُ يُقاتِلُ في أرضٍ تسوخُ فيها قَدَمُهُ كُلّما تحرَّكَ وَهوَ قَد يُقاتِلُ فارِساً لا راجِلاً ، لا يكونُ إلاّ خائِفاً مُضْطَرِباً ، ولكنَّ نِعمةَ اللهِ على المُسلِمينَ حالَتْ دونَ ذلكَ .

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وهذا نِعْمَةٌ أُخرى ، فاللهُ تَعالى أخْبَرنا فيما سبقَ أنَّهُ إنَّما أنزَلَ المَلائِكَةَ بُشرى للمُؤْمِنينَ وتَطميناً لِقُلوبِهِمْ ، وَهُنا بيانٌ أنَّ اللهَ تَعالى أَوْحى لِلمَلائِكةِ وأَمرَهُمْ أنْ يُثبِّتوا المُؤْمِنينَ ، وَوَحْيُ اللهِ تَعالى لِملائِكتِهِ إمَّا بِطريقةِ إلقاءِ هذا الأمرِ في نُفوسِهِم ، أو إبلاغِهِمْ إيَّاهُ بواسِطةٍ ، وبناءً على هذا يكونُ قَولُهُ تعالى : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ كلاماً مُبتَدءاً مُوجَّهاً إلى النبيِّ ﷺ والمُؤْمِنينَ تَتِمَّةً للبُشْرى ، ويكونُ قولُهُ تعالى : (فاضْرِبوا) مُوجَّهاً للمُؤمِنينَ ، فيكونُ المَعنى أنَّ اللهَ تَعالى أَمَرَ المُؤْمِنينَ بِضَرْبِ أعناقِ المُشْرِكينَ وَتقطيعِ أيديهِمِ وأصابِعِهِم ، بَعدَ أنْ ثَبَّتَهُم بالملائِكةِ وأَلْقى الرُّعْبَ ، وهُوَ الخوفُ الشَّديدُ والهَلَعُ في قُلوبِ المُشْرِكينَ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

أي ذلكَ الّذي ذكَرَهُ اللهُ تعالى مِن تأييدِهِ للمُؤْمنينَ وخِذْلانِهِ للمُشركينَ إنَّما كانَ بِسَبَبِ أنَّ المُشْركينَ عادوا اللهَ تعالى ورسولَهُ ، فكانَ اللهُ تعالى ورسولُهُ ﷺ في شِقٍّ ، والمُشْركونَ في شِقٍّ آخَرَ ، فاللهُ تعالى هُوَ الحَقُّ ورَسولُهُ ﷺ هُو المُبلِّغُ عنهُ الحقَّ ، والمُشْركونَ عَلى الباطِلِ وما يَترتَّبُ عليهِ مِنَ الشُّرورِ والخُرافاتِ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ أحقَّ النّاسِ بِعذابِهِ الشَّديدِ المُشاقّونَ لَهُ باخْتِيارِهِمُ الشِّرْكَ على التَوحيدِ ، وعِبادةَ الطّاغوتِ على عِبادةِ اللهِ تَعالى ، وذهابِهِم إلى الاعتداءِ على أولياءِ اللهِ تَعالى بِمُحاولَةِ رَدِّهِمْ عَنْ دينِهِم بالقُوَّةِ وَالقَهرِ ، وإخراجِهِم مِنْ دِيارِهِم ، ثُمَّ اتِّباعِهِمْ إلى مَهْجَرِهِم يُقاتِلونَهُم فيهِ .

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

هذا الخطابُ مُوجَّهٌ للمُشرِكينَ ، أمَّا الّذينَ قُتِلوا فيكونُ هذا الكلامُ ملقىً في نُفوسِهم بأنَّ هذا الّذي حَدثَ لَهمُ هُوَ بِسببِ مُعاداتِهِمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ، وَقَدْ كانوا يَسْمَعونَ الوعيدَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ فيما سَبَقَ .

وأمَّا الّذينَ بَقوا أحياءً فيكونُ إخباراً لَهُم بأنَّ الّذي حَدَثَ لِمَنْ قُتِلَ مِنهُم سَبَبُهُ مُعاداةُ اللهِ ورسولِهِ . ثُمَّ التفتَ الخِطابُ إلى الإعلانِ بأنَّ ما حَدَثَ في الدُّنيا لَهُ زِيادَةٌ عليْهِ في الآخِرَةِ بأنَّ الكافِرينَ يُعذَّبونَ في النّارِ بِسبَبِ كُفرِهِم وَعِنادِهِم ، وذلك لِيَتنبَّهَ مَنْ بَقِيَ حيّاً مِنَ المُشْركينَ ، بأنَّ مَنْ أصرَّ مِنْهُمْ على كُفْرِهِ عُذِّبَ هُنالِكَ في النّارِ وَهُوَ شَرُّ العَذابَيْنِ وأدْوَمُهُما .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنها :

١ـ إنّ إرْسالَ المَلائِكةِ إنَّما كانَ بِشارةً للمُؤْمِنينَ وتَثْبيتاً لِقُلوبِهِمْ .

٢ـ مِنْ فوائِدِ النَّومِ إزالةُ أثَرِ الخَوفِ والاضطرابِ .

٣ـ مَنْ يُشاقِقِ اللهَ ورسولَهُ يَسْتحِقُّ عِقاباً شديداً في الدُّنيا والآخِرَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

بَنانٍ ، رِجْزَ الشَّيطانِ ، شاقّوا اللهَ .

٢ـ بيِّنْ مِنْ خِلالِ الآياتِ الكَريمةِ فائِدةَ كلٍّ مِنْ :

أ ـ النُّعاسُ .

ب ـ إنزالُ الماءِ على جَيْشِ المُسلِمينَ .

٣ـ ما الّذي أَوْحاهُ اللهُ تَعالى إلى الملائِكةِ ؟

٤ـ بِمَ أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ في الآياتِ السَّابِقةِ ؟

٥ـ بيِّنْ ماذا يَترتَّبُ عَلى مُشاقّةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ .

٦ـ ماذا نستفيدُ مِمّا يَلي :

أ ـ يُذهِبَ عَنْكُمْ رِجزَ الشَّيطانِ .

ب ـ يَربِطَ على قُلوبِكُم .

نَشاطٌ :

ـ اذكُرْ ثَلاثَةً مِنْ زُعماءِ قُرَيشٍ الّذينَ قُتِلوا يومَ بَدْرٍ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابِعُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ
رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ
كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن
تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **زَحْفاً** : أي زاحِفينَ نَحْوَكُم لِقتالِكُم ، والحالُ مُتعلِّقةٌ بالكافِرينَ ، أيْ : إذا لَقِيتُوهُم جاءوكُمْ بِجيشٍ كثيفٍ .
- **مُتَحَرِّفاً لقتالٍ** : مُنْعَطِفاً في القِتالِ مِنْ مَوقِفٍ إلى آخرَ لِيُصْلِحَ شأنَهُ فَيُحْسِنَ قِتالَهُ .
- **مُتحيِّزاً إلى فِئةٍ** : مُنضمّاً إلى جماعَةٍ أُخرى لِلقتالِ مَعَها .
- **باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ** : رَجعَ مُستحِقّاً لِغَضبِ اللهِ تَعالى .
- **مأواهُ جهنَّمُ** : مَلجؤُهُ الّذي يَلجأُ إليهِ في الآخِرَةِ هُو جَهنَّمُ .
- **يُبلِيَ المُؤْمنينَ** : يُعطِيَهُمْ عَطاءً حسناً يَشكرونَهُ عَليْهِ .
- **موهِنُ كيدِ الكافِرينَ** : مُضعِفُ مَكْرِهِم وَتَدبيرِهِم السَّيِّء .
- **إنْ تَستَفتِحوا** : إنْ تَطلُبوا القَضاءَ وَالفَصْلَ بَيْنَكُم وَبَيْنَ المُؤْمنينَ .



لمّا ذَكَّرَ اللهُ المُسْلِمينَ بِما أيَّدهُم يومَ بدرٍ بِالمَلائِكةِ والنَّصرِ مِنْ عِندهِ ، وأكرَمَهُم بأنْ نصرَهُمْ على المُشْرِكينَ الّذينَ هُم أكثرُ مِنهُم عدداً وعُدَّةً ، وبيّنَ للمُسلِمينَ أنَّ اللهَ تَعالى سَوْفَ يُعذِّبُ الكافِرينَ في النّارِ في الآخِرَةِ بَعْدَما عذَّبَهُم بالهَزيمةِ في الدُّنيا ، حَسُنَ أنْ يُتبِعَ ذلكَ نَهيَ الّذينَ آمنوا عَنِ الفِرارِ مِنَ المُشْرِكينَ ، وتهديدَ مَن يَفِرُّ مِنهُم بَعدَ هذا البيانِ تهديداً شديداً فقالَ تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

هذا نداءٌ مِنَ الحقِّ سُبْحانَهُ وتَعالى للّذينَ صدَّقوا بالحقِّ وأذْعَنوا لَهُ . إذا لقيتُم الّذينَ كَفروا في مَيدانِ القِتالِ ، وَهُمْ زاحِفونَ عَليْكُم بِكَثْرَتِهِم ، فلا تَفِرُّوا مِنهُم وتَجعلوا ظُهورَكُم أمامَ سُيوفِهِم وتَنْهَزِموا .

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

هذا تحذيرٌ شديدٌ ، ووعيدٌ لِمن يَجعلُ الكافِرينَ وراءَهُ ويولّي مُنهزِماً يُريدُ النَّجاةَ بِنفسِهِ . لكِنَّ ضَروراتِ القِتالِ تَقتضي أحياناً تَغْييرَ مَوْقعِ المُحارِبِ لِيكونَ أكثَرَ قُوَّةً ومَنَعَةً ، لِذلكَ اسْتُثْنِيَ مِنْ تهديدِ اللهِ مَنْ يَنسَحِبُ مِنْ أرضِ المَعْرَكَةِ لِيَثْبُتَ في مَكانٍ آخرَ ، أو لِيلتَحِقَ بِجماعةِ المُسلِمينَ يَتقَوى بِهِم على قِتالِ الأعداءِ ، وإلاَّ فإنَّ المُنهزِمَ يَنهزِمُ وغَضَبُ اللهِ عَليْهِ وَملجؤهُ وَمَصيرُهُ إلى جَهنَّمَ والعياذُ باللهِ .

وتَتضمَّنُ هذهِ الآيةُ والّتي قَبْلَها مِنَ الأحكامِ ما لابُدَّ مِنَ الإشارةِ إليهِ :

١ـ وُجوبُ مُصابَرَةِ العدوِّ والثَّباتِ في وجْهِهِ عِندَ القِتالِ . وتدلُّ الآيةُ على أنَّ الفِرارَ مِنَ الزَّحفِ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ والمَعاصي ، وَقد جاءَ التَّصريحُ بذلكَ فيما رَواهُ الشَّيخانِ وغَيْرُهُما عَنْ أبي هُريرةَ رَضي اللهُ عنهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « اجتَنِبوا السَّبْعَ الموبِقاتِ ، قالوا يا رسولَ اللهِ : وَما هُنَّ ؟ قالَ : الشِّرْكُ باللهِ ، والسِّحْرُ ، وقَتْلُ النَّفسِ الّتي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ ، وأكْلُ الرِّبا ، وأَكْلُ مالِ اليتيمِ ، والتَولِّي يومَ الزَّحفِ ، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ » .

٢ـ أنَّ الخِطابَ فيهما خِطابٌ عامٌّ لِجميعِ المُؤْمِنينَ ، وَلَيْسَ خاصّاً بِأَهْلِ بدْرٍ .

٣ـ أنَّ الآيَتيْنِ مُحْكَمَتانِ ولَيْسَ فيهما نَسْخٌ ، وهذا معناهُ أنَّ تحريمَ التولِّي يومَ الزَّحفِ عَلى غَيْرِ المُتَحرِّفِ لِلقتالِ أو المُنحازِ لِفئةٍ أُخرى مِنَ المُؤْمِنينَ هُو حُكمٌ ثابتٌ غيرُ مَنسوخٍ .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ما زالتِ الآيتانِ تتحدَّثانِ عَنْ جَوِّ مَعركةِ بَدر ، وَتُذَكِّرُ المُسلمينَ بما امتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم مِنْ فَضلٍ لِيَزْدادوا شُكراً لَهُ وطاعةً لأَمْرِهِ ، فَقالَ تَعالى مُخاطِباً المُؤْمنينَ : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي إذا كُنتم أيُّها المُؤْمنونَ قَدِ انْتَصَرْتُمْ على عَدوِّ اللهِ تَعالى وُعدوِّكُم ، وقَتلتُمْ مَنْ قَتلتُم مِنهُم ، فإنَّكُم لم تقتُلوهُم بِقُوَّتِكُم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي قَتلَهُم ونَصرَكُم عَلَيْهِمْ ، وذلك بتأييدِهِ لَكُم بالمَلائِكةِ وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهِم ، وما رَمَيْتَ أيُّها الرّسولُ إذْ كنتَ تَرمي التُّرابَ وَالْحَصى في وُجوهِهِم إفْزاعاً لَهُم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُو الّذي رَمى فأفزَعَهُم الرَّمْيُ ، وكانَ ذلكَ لِيُنْعِمَ اللهُ على المُؤْمنينَ نِعَماً حَسَنةً ، مِنها : النَّصرُ وَالغنيمةُ وَالأجرُ ، فَيزدادوا بِهذهِ النِّعَمِ شُكْراً لِلهِ وثناءً عَلَيْهِ ، ثمَّ أَخْبَرَهُم سُبحانَهُ وتَعالى بأنَّهُ عَليمٌ بأُمورِهِمْ ، سَميعٌ لأقوالِهِمْ ، وكذلكَ هُوَ عليمٌ بأُمورِ أعدائِهِم وأقوالِهِمْ فلا تَخفى عَلَيْهِ خافِيةٌ .

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

وهذا تقريرُ سُنَّةٍ مِن سُننِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلَّفُ ، وهي تقويةُ الحَقِّ ، وتَوهينُ الباطِلِ ، لِيزدادَ المُؤْمنونَ إيماناً معَ إيمانِهِمْ وثَباتاً على ثَباتِهِمْ ، ولِيزدادَ الكافِرونَ حَسرةً على حَسْرَتِهِمْ ، فقالَ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : مُضْعِفٌ إضعافاً شديداً كَيْدَ الكافِرينَ ومَكرَهُمْ .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

رُوِيَ أنَّ المُشْرِكينَ حينَ خرجوا مِن مَكَّةَ إلى بَدْرٍ أخَذوا بِأَسْتارِ الكَعبةِ فاسْتَنصَروا اللهَ تَعالى وقالَوا : اللَّهُمَّ انْصُرْ أهدى الجُندَيْنِ ، وأكرَمَ الفِئَتينِ وخَيْرَ القِبلتيْنِ . وهذا الخِطابُ مَسوقٌ للكافِرينَ على سَبيلِ التهكُّم بِهِم والتَّوبيخِ لَهُم ، حيثُ طَلبوا مِنَ اللهِ تَعالى القَضاءَ بينَهُم وبينَ المُؤْمنينَ والنَّصْرَ عَلَيْهِم ، فكانَ الأمرُ على عَكسِ ما أرادوا ، حيثُ حكَمَ اللهُ تَعالى فيهِم بِحُكمِهِ العادِلِ ، وهُوَ خِذلانُهُم بِسببِ كُفرِهِم وجُحودِهِمْ ، وأعلى بذلكَ كَلِمةَ المُؤْمنينَ ، لأنَّهُم على الطَّريقِ المُستقيمِ .

وقولُه تَعالى : ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ . . .﴾ أي تَكُفُّوا عَنِ الكُفْرِ وعَداوةِ المُؤْمنينَ يكونُ هذا خيراً لَكُم مِن الكُفْرِ ومَحارَبةِ المُؤْمنينَ . وقولُهُ تَعالى : ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ . . .﴾ . أي إنْ تَعودوا إلى ما أنتُم عليْهِ مِن الكُفْرِ ومَحارَبةِ النَّبيِّ ﷺ والمُؤْمنينَ وعداوتِهِم ، نَعُدْ عَلَيْكُم بالهزيمةِ والذِّلَّةِ ، ولَنْ تَستطيعَ جماعَتُكُمْ وَلو كَثُرتْ أنْ تَدْفَعَ عَنكُم شَيئاً مِنْ تِلكَ الهزيمةِ والذِّلَّةِ .

ثُمَّ يُقرِّرُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سُنَّةً مِن سُنَنِهِ الّتي لا تُدْفَعُ ، وَهِيَ أنّ مَعيَّتَهُ ونَصْرَهُ وتأييدَهُ إنَّما هُوَ للمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، لِيكونَ بذلكَ رادِعاً للكافِرينَ عَن كُفْرِهِم ومُحفِّزاً للمُؤْمِنينَ بالدَّوامِ والثَّباتِ على دينِهِم .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحريمُ فِرارِ المُؤْمِنينَ أمامَ الكافِرينَ ، وأنَّ هذا مِنْ كَبائِرِ الذُّنوبِ .

٢ـ حَضُّ المُؤْمِنينَ على الجِهادِ في سبيلِ اللهِ وعدَمِ الخَوْفِ مِنْ أعداءِ اللهِ تَعالى .

٣ـ على المُسْلِمِ أنْ ينحازَ إلى جَماعَةِ المُؤْمِنينَ ، وخُصوصاً إذا أحَسَّ بالخَوْفِ ، فإنَّ يدَ اللهِ تَعالى على الجَماعَةِ .

٤ـ لا ينالُ عِنايَةَ اللهِ ونَصْرَهُ وتأييدَهُ إلاّ المُؤْمِنونَ المُخْلِصونَ .

٥ـ لابدَّ وأنْ يُفتَحَ المجالُ لِلكافِرينَ لِيَعودوا إلى دينِ اللهِ .

٦ـ كَثْرَةُ الباطِلِ لا تُغني مِنَ الحقِّ شيئاً .

٧ـ الحقُّ مُنتَصِرٌ بأمْرِ اللهِ تَعالى وإنْ ضَعُفَ أصحابُهُ عَنْ تأييدِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقتالٍ ، باءَ بِغضَبٍ مِنَ اللهِ ، ولكنَّ اللهَ رَمى ، إنْ تَسْتَفتِحوا فَقد جاءَكُمُ الفَتْحُ .

٢ـ ماذا يجبُ على المُؤْمِنينَ إذا زَحفَ عَليْهِمُ الكُفّارُ بِجيشٍ جَرّارٍ ؟

٣ـ ما حُكْمُ الفِرارِ يومَ الزَّحفِ ؟

٤ـ بيِّنِ الآيَةَ الّتي تَدلُّ على أنَّ اللهَ تَعالى أهْلَكَ الكافِرينَ وأيَّدَ المُؤْمِنينَ .

٥ـ ورَدتْ في الآياتِ الكَريمةِ سُنَّتانِ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى ، اذكُرْ هاتَيْنِ السُّنَّتيْنِ ، ودَليلَ كلٍّ مِنْهُما مِنَ الآياتِ .



١ـ عِنْدَما رَجَعَ المُسْلِمونَ مِنْ مُؤْتَةَ إلى المدينةِ لاقاهُمُ الصِّبيانُ يقولونَ لهُمْ : يا فُرّارُ ، على ماذا يدلُّ ذلكَ ؟ اكتبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكتُبْ في دَفْتَرِكَ ماذا يُمكِنُكَ أنْ تَستفيدَ مِن قَوْلِهِ تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ

سورَةُ الأَنْفالِ - القِسْمُ الخامِسُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ
لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ
بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ
خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ولا تَوَلَّوْا عَنهُ : لا تَبتعِدوا عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعَنْ أوامِرِهِ في حالٍ مِنَ الأحوالِ .

لا يَسمعونَ : أيْ لا يكونُ سَماعُهُم سَماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ .

الدَّوابِّ : جَمْعُ دابَّةٍ ، وتُطلَقُ على كلِّ مَنْ يَدُبُّ على الأرضِ كالإنسانِ والحيوانِ .

الصُمُّ : الّذينَ لا يَسمعونَ ، وهُنا مَعناها الّذينَ لا يَسْمَعونَ الحقّ .

البُكْمُ : الّذينَ لا يَنطِقونَ .

استَجيبوا للهِ : لبّوا نداءَ اللهِ تَعالى ، وَأجيبوا دَعوتَهُ بما يُظهِرُ صِدْقَ إيمانِكُم .

يُحْييكُم : يَجعلُكُم تَحْيَوْنَ حياةً عزيزةً في الدّنيا وحياةً مُنعَّمةً في الآخِرَةِ .

يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلبِه : يُميتُهُ ، فتضيعَ عَليْهِ فُرصَةُ الطّاعَةِ ، أو يَترُكَهُ حتّى تَغلِبَ عليْه أهواؤُهُ وشَهواتُهُ فلا يَعقِلُ .

واتّقوا فِتنةً : احْذَروا ابتلاءً مِنَ اللهِ تَعالى ومِحنَةً تَنزِلُ بِكُم .

يَتخطَّفَكُمُ النّاسُ : يَنتَزِعونَكُم بِسُرعَةٍ ، فَيَفْتِكوا بِكُم .



لمّا كانَ الّذي حَلَّ بالكُفّارِ مِنَ الهزيمةِ والذُّلِّ والهَوانِ بِسببِ عَدمِ سَماعِهِمْ للحَقِّ وتَدبُّرِهِمْ لَهُ وإعْراضِهِمْ عَنهُ ، حذَّرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ مِنْ أَنْ يَصيروا إلى حالِ الكُفّارِ هذه ، فقالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ صَدَّقتُمْ بالحَقِّ وأذعَنتُم لَهُ ، قدْ عَلِمتُمْ أنَّ النَّصرَ كانَ بِتأييدِ اللهِ تَعالى وطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ ، فاستَمِرّوا على طاعَتِكُمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ولا تُعرِضوا عَن دَعوةِ الرّسولِ ﷺ إلى الحَقِّ ، لا سِيَّما وأنتُمْ تَسمَعونَ القرآنَ النّاطِقَ بِوُجوبِ طاعَتِهِ ﷺ .

وقدْ قُرِنَتْ طاعَةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، بِطاعَةِ اللهِ تَعالى لِلدَّلالةِ عَلى أنّهُ لا سَبيلَ لأحدٍ إلى طاعَةِ اللهِ تَعالى إلاَّ عَنْ طَريقِ رَسولِهِ ﷺ ، ولأنَّ طاعَةَ رسولِ اللهِ ﷺ هِيَ طاعَةٌ للهِ تَعالى .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

هذا نَهْيٌ للمُسلِمينَ عَن أنْ يَتَشبَّهوا بالكُفّارِ والمُنافِقينَ الّذينَ زَعموا أنَّهُمُ اعتَبروا بالآياتِ بَعدَ أنْ سَمِعوها ، وإخبارٌ للمُؤْمِنينَ بأنَّ هَؤلاءِ لا يَسمعونَ سَماعَ تدبُّرٍ وإذعانٍ ، فكانوا كَمَنْ لا يَسْمَعُ ، لأنَّ سَماعَهُم لا وَزْنَ لَهُ ، ولا فائِدَةَ لَهُم مِنْ وَرائِهِ ، مَع أنَّهُم لَو فَتحوا آذانَهُم وقُلوبَهُم لِلحَقِّ لأفادوا ، لَكِنَّهُم آثَروا الغَيَّ على الرُّشْدِ .

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

هذا وَصْفٌ للكُفّارِ والمُنافِقينَ بِما يَحمِلُ المُؤْمِنَ عَلى النُّفورِ مِنهمُ . والمَعنى : إنَّ شَرَّ ما يَدُبُّ عَلى الأرضِ في حُكْمِ اللهِ تَعالى وَقضائِهِ هُمُ الأشرارُ مِنَ البَشَرِ (الصُمُّ) الّذينَ لا يُلقونَ السَّمْعَ لِمَعرِفَةِ الحَقِّ والاعتِبارِ بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، فَكانوا بِفَقدِ مَنفعَةِ السَّمْعِ كالّذينَ فَقَدوا حاسَّتَهُ ، (البُكْمُ) الّذينَ لا يقولونَ الحَقَّ كأنّهُم فَقَدوا قُوةَ النُطْقِ (الّذينَ لا يَعْقِلونَ) أي فَقدوا فَضيلَةَ العَقْلِ الّذي يُمَيِّزُ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ ، ويُفرِّقُ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، إذْ لَو عَقَلوا لَطَلَبوا ، وَلَو طَلَبوا لَسَمِعوا وَمَيَّزوا ، وَلَو سَمِعوا لَنَطقوا وَبيَّنوا وتَذكَّروا وَذَكَروا ، كَما قالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق : ٣٧] .

فَهُم لِفَقدِهِمْ مَنْفَعَةَ العَقلِ والسَّمْعِ والنُّطْقِ ، كالفاقِدينَ لِهذهِ المَشاعِرِ والقُوى . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى سوءَ هؤلاءِ الفِئَةِ مِنَ الدوابِّ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

لَو عَلِمَ اللهُ تَعالى في هؤلاءِ الصُمِّ البُكْمِ (خَيراً) أي استِعداداً للإيمانِ ورَغبَةً فيما يُصلِحُ نُفوسَهُم وَقُلوبَهُم (لأسمَعَهُم) سَماعَ تَدبُّرٍ وَتَفهُّمٍ ؛ أي جَعَلَهُم سامِعينَ للحَقِّ وَمُستَجيبينَ لَهُ ، وَلكنَّهُ سُبحانَهُ لَمْ يَعلَمْ فيهِم شَيئاً مِنْ ذلكَ ، فَحجبَ عَنهُم خَيْرَهُ بِسببِ سوءِ اسْتِعدادِهِم . وَلِهذا قالَ سُبحانَهُ عَقِبَ هذا القولِ : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

أي : وَلَو أسمَعَهُم سَماعَ تَفهُّمٍ وتَدبُّرٍ وَهُم عَلى هذهِ الحالَةِ الّتي لَيسَ فيها خَيرٌ ، لَتوَلَّوْا عَمّا سَمِعوهُ مِنَ الحَقِّ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عَنْ قَبولِهِ جُحوداً وعِناداً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وهذا نِداءٌ ثالثٌ عَقِبَ ما بَيَّنَ اللهُ تَعالى مِنْ نَكالِ الكافِرينَ بِسببِ عَدَمِ اسْتِجابَتِهِم لِما أَمَرَ اللهُ تَعالى ، وَفيهِ أمْرٌ لِلمُؤْمنينَ بالاستِجابَةِ لِما أمَرَ وَتحذيرٌ لَهُم مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الّتي تكونُ سَبَباً في هلاكِهِمْ وعذابِهِمْ .

يا أَيُّها الّذينَ صَدَّقوا بالحَقِّ وأذْعَنوا لَهُ أجيبوا اللهَ تَعالى فيما يَأمُرُكُمْ بِهِ ، وَأَجيبوا رَسولَهُ ﷺ في تَبليغِهِ ما يَأمُرُ بِهِ اللهُ تَعالى ، وذلكَ إذا دَعاكُمُ الرَّسولُ ﷺ إلى أوامِرِ اللهِ تَعالى بالأحكامِ الّتي فيها حَياةُ أجسامِكُم وأرواحِكُم وعُقولِكُم وقُلوبِكُم . واعْلَموا عِلْمَ اليَقينِ أنَّ قُلوبَكُم بيَدِ اللهِ تَعالى وَطوْعَ أمْرِهِ ، يُوجِّهُها كَما يَشاءُ ، فَيَحولُ بَيْنَكُمْ وَبينَ قُلوبِكُم إذا أَقْبلَ عَليْها الهَوى ، فَهُوَ مُنقِذُكُمْ مِنْهُ إذا اتَّجَهتُم إلى الطّريقِ المُستَقيمِ ، وأنَّكُم جَميعاً سَتُجمَعونَ يَومَ القِيامَةِ فيكونُ الجَزاءُ .

وفي قَولِهِ تَعالى : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ قَولانِ ذَكَرنا أحدَهُما ، والثّاني أنَّهُ سُبْحانَهُ يُميتُ المَرْءَ فَتَفوتُهُ الفُرْصَةُ الّتي هُوَ واجِدُها ، وَهِيَ التَّمَكُّنُ مِنْ إخلاصِ القَلبِ ومُعالجَةِ أدوائِهِ وَعِلَلِهِ ، وَرَدِّهِ سَليماً كَما يُريدُهُ اللهُ تَعالى ، فَاغتَنِموا فُرصَةَ وُجودِكُم في الدُّنيا وَأَخْلِصوا قُلوبَكُم لِطاعَةِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

هذا تَرهيبٌ لِلمُؤْمنينَ وتَحذيرٌ لَهُم مِنَ التّراخي في تَغييرِ المُنْكَرِ ، أَوِ التّمادي في المَعاصي العَظيمَةِ الّتي مِنها : تَرْكُ الجِهادِ ، والشِّقاقُ والنِّزاعُ ، فإنَّ أثَرَ هذهِ الذّنوبِ عَظيمٌ ، والعَذابُ إنْ وَقَعَ بِسبَبِها لا يَقْتَصِرُ على فاعِليها بَلْ يَعُمُّ النّاسَ جَميعاً . والفِتنَةُ هُنا تَعْني العَذابَ الدُّنيويَّ كالأمراضِ واضْطِرابِ الأحْوالِ ، وَتَسلُّطِ الظَّلَمَةِ وَعدَمِ الأمانِ ، وَغَيرِ ذلِك . وفي الآيَةِ تَنبيهٌ عَلى أنَّ اللهَ تَعالى شَديدُ العِقابِ لِمَنْ خالَفَ أمرَهُ . وَقد جاءَ في مَعنى هذهِ الآيَةِ قَولُ النبيِّ ﷺ : « نَعمْ إذا كثُرَ

الخَبَثُ »[1] . وهذهِ سُنّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الكَوْنِ .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

بَعدَ أنْ أمرَ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ بالاسْتَجابَةِ لَهُ ، وَنَهاهُم عَنِ الوُقوعِ في المَعاصي ، أخَذَ في تَذْكيرِهِم بِجانِبٍ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِم ، فقالَ لَهُم : اذكُروا يَومَ أنْ كُنتُم قِلَّةً مُسْتَضعَفينَ ، تَخَشى أنْ يأخُذَها أعداؤُها أخْذاً سَريعاً ، فَرفعَ اللهُ تَعالى عَنكُم هذهِ الحالَ بِفَضْلِهِ ، وأبدَلَكُم خَيْراً مِنها بأنْ آواكُمْ إلى المَدينةِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ يا مَعْشَرَ المُهاجرينَ والأنصار ، وأيَّدكُمْ بِنَصْرِهِ في غَزْوةِ بَدْرٍ ، وَقَذفَ في قُلوبِ أعدائِكُم مِنكُم ، وَرَزَقَكُم مِنَ الغَنائِمِ الّتي أَحَلَّها لَكُم بَعدَ أنْ كانَتْ مُحَرَّمَةً على الّذينَ مِنْ قَبْلِكُم .

كَما رَزَقَكُم بكَثيرٍ مِنَ المَطاعِمِ والمَشارِبِ الطَّيبَةِ الّتي لَمْ تَكُنْ مُتَوفِّرَةً لَكُم قَبلَ ذلكَ ، حتَّى تَستَمِرّوا على طاعَةِ اللهِ تَعالى وشُكْرِهِ ، وَلا يَشغَلُكُمْ عَنْ ذلكَ أيُّ شاغِلٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحذيرُ المُؤْمنينَ مِنْ عَواقِبِ عَدمِ طاعَةِ اللهِ تَعالى وَالتَولّي عَنْ رَسولِهِ ﷺ .

٢ـ نَهْيُ المُؤْمنينَ عَنِ التَشَبُّهِ بِالكافِرينَ .

٣ـ حَثُّ المُؤْمنينَ على الاسْتِجابَةِ للهِ تَعالى وَرسولِهِ ﷺ .

٤ـ في الاسْتِجابَةِ لِما أمَرَ اللهُ تَعالى وَرَسولُهُ ﷺ الحياةُ الكَريمةُ في الدُّنيا ، وَالحياةُ المُنَعَّمَةُ في الآخِرَةِ .

٥ـ تَحذيرُ المُؤْمنينَ مِنْ عَدَمِ تَدارُكِ الفُرَصِ في تَحقيقِ العَمَلِ الصَّالِحِ .

٦ـ إذا كَثُرَتِ الذُّنوبُ وانتُشَرتْ ، عَمَّ العَذابُ المُذْنِبَ وغَيرَ المُذْنِبِ .

---

(١) الحديث رواه البخاري : ٣/ ١٢٢١ حديث رقم : (٣١٦٨) ، ومسلم : ٤/ ٢٢٠٧ حديث رقم : (٢٨٨٠) .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

اسْتَجيبوا للهِ وَلِلرَّسولِ ، دَعاكُم لِما يُحْييكُم ، يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ ، فِتنَةً ، يَتَخطَّفَكُمُ النَّاسُ ، آواكُمْ .

٢ـ في الآياتِ الكَريمةِ أوامِرُ ونواهٍ عِدّةٌ ، اذكُرْ أمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ مِنْها .

٣ـ بيِّنْ مِنْ خِلالِ الآياتِ ماذا يَترَتَّبُ عَلى طاعَةِ اللهِ تَعالى وَطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ .

٤ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمةُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الكَونِ ، بيِّنْها .

٥ـ ذَكَرتِ الآيةُ الأخيرَةُ بَعضاً مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى المُؤْمِنينَ ، اذْكُرْها .

٦ـ ما الدَّرْسُ المُستَفادُ مِنْ كلٍّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ولا تَوَلَّوْا عنهُ وأنتُمْ تَسْمعونَ

ب ـ ولَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ

ج ـ واتّقوا فِتنةً لا تُصيبَنَّ الّذينَ ظَلَموا مِنْكُمْ خاصَّةً .

د ـ ورَزَقكُمْ مِنَ الطَّيباتِ لَعلَّكُمْ تَشْكُرونَ .

نَشاطٌ :

١ـ جَمعتِ الآيةُ الكَريمةُ (٢٤) بَيْنَ التَّرغيبِ في العَملِ الصّالحِ بسرعَةٍ ونَشاطٍ ، وَبينَ التَّرهيبِ مِنَ التَّكاسُلِ والغَفلَةِ عَن طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَضِّحْ ذلكَ ، واكتبْه في دَفْتَرِكَ .

٢ـ جَمَعتِ الآياتُ السَّابِقَةُ صُوَراً عِدَّةً مِنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، اكتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ والصّورَةَ الّتي تَدُلُّ عَلَيْها .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ

سورةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ السّادِسُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ
أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ
ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾
وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

معاني المُفْرَداتِ :

لا تَخونوا اللهَ : الخِيانَةُ هُنا هِيَ انْتِهاكُ حُرُماتِ اللهِ تَعالى الّتي نَهى عَنِ الاقْتِرابِ مِنْها .

أماناتِكُم : أسرارَكُم وعُهودَكُم وودائِعَكُمْ وَغَيْرَها .

فُرقاناً : هِدايةً ونوراً في قُلوبِكُم تُفرِّقونَ بِهِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ .

يَمْكُرُ بِكَ : المَكْرُ : هُوَ صَرْفُ الغَيْرِ عَمّا يَقصِدُهُ بِحيلَةٍ ، وَالمَقصودُ الحَديثُ عَن تآمُرِ مُشرِكي مَكّةَ عَلى سَيِّدِنا رَسولِ اللهِ ﷺ .

يُثْبِتوكَ : يَحْبسوكَ .

يَمْكُرُ اللهُ : يردُّ مكْرَهُمْ عَليْهِمْ ، ويُحبِطُ كَيْدَهُمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

لَقَدْ مَرّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بِنِداءاتٍ ثَلاثَةٍ ، وَهذا نِداءٌ رابِعٌ لِلمُؤْمنينَ فيهِ تَصْفِيَةٌ لِنُفوسِهِم ، وَإعلاءٌ

لِشأنِهم إذا ما التَزموا أمْرَ اللهِ تَعالى ، وحافَظوا عَلى شَرْعِهِ .

يَقولُ تَعالى : يا أيُّها الّذينَ صَدَّقوا بالحَقِّ وأذْعَنوا لَهُ ، لا تَخونوا اللهَ تَعالى بأنْ تَملُّوا فَرائِضَهُ وَتَتَعدَّوْا حُدودَهُ ، وَتُوالوا أعداءَهُ ، أو تَقعُدوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِهِ ، ولا تَخونوا رَسولَهُ ﷺ بِتَرْكِ سُنَّتِهِ وَمُخالَفَةِ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَلا تَخونوا أماناتِكُمْ بأنْ تُفشوا الأسْرارَ الّتي بَيْنَكُمْ ، وتَنْقُضوا العُهودَ الّتي تَعاهَدْتُم على الوَفاءِ بِها ، وَتُنْكِروا الوَدائِعَ الّتي أوْدَعَها لَدَيْكُم غَيْرُكُم ، وَتَسْتَبيحوا ما يَجِبُ حِفْظُهُ مِنْ سائِرِ الحُقوقِ المادِّيَّةِ والمَعنويَّةِ . والحالُ أنَّكُم تَعلمونَ سوءَ عاقِبَةِ الخائِنِ للهِ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ وَلِلأماناتِ الّتي ائْتُمِنَ عَلَيْها ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَتجَنَّبوا الخِيانَةَ في كُلِّ صُورَةٍ لِتَنالوا رِضى اللهِ تَعالى وَمَثوبَتَهُ .

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ولَمَّا كانَ حُبُّ الأموالِ وَالأولادِ مِنْ أهَمِّ دَواعي الإقْدامِ عَلى الخِيانَةِ ، نَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى هذا الأمْرِ لِيَتَيَقَّظَ المُؤْمِنونَ ، فَقالَ لَهُم : اعْلَموا أنَّما أمْوالُكُم وَأولادُكُم فِتنةٌ ؛ أيْ امْتِحانٌ واخْتِبارٌ لَكُم مِنَ اللهِ تَعالى ، لِيَتَبيَّنَ قَوِيُّ الإيمانِ مِنْ ضَعيفِهِ ، أمَّا قَوِيُّ الإيمانِ فلا يَشْغَلُهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَأمّا ضَعيفُ الإيمانِ فَيَشغَلُهُ ذلكَ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَجْعلُهُ يَعيشُ حَياتَهُ عَبْداً لِمالِهِ ، وَمُطيعاً لِشَهواتِ أوْلادِهِ ، حَتَّى وَلَوْ كانَتْ هذهِ الطَّاعةُ مُتَنافِيَةً مَعَ تَعاليمِ دينِهِ وَأدَبِهِ ، فَالواجِبُ عَلى المُؤْمِنِ اتِّقاءُ خَطَرِ الفِتْنَةِ الأُولى بِكَسْبِ المالِ مِنْ وُجوهِهِ الحَلالِ ، وإنْفاقِهِ في وُجوهِهِ المَشْروعَةِ ، واتِّقاءُ خَطَرِ المَعاصي والرَّذائِلِ . واعْلَموا أنَّ اللهَ تَعالى عِندَهُ أجْرٌ عَظيمٌ لِمَنْ آثَرَ طاعَتَهُ وَرِضاهُ عَلى جَمعِ المالِ وَحُبِّ الأولادِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

هذا خِتامُ نِداءاتِ اللهِ تَعالى لِلمُؤْمنينَ في هذا السِّياقِ ، وَهُوَ أعَمُّ هذهِ النِّداءاتِ وَالأصْلُ الجامِعُ لَها جَميعاً ، وَالمعنى : يا أيُّها الّذينَ آمَنوا إنْ تَتّقوا اللهَ تَعالى بأنْ تَصونوا أنْفُسَكُم عَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُهُ ، وتُطيعوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ يَجعلْ لَكُم فُرْقاناً ؛ أيْ هِدايَةً في قُلوبِكُم تُفرِّقونَ بها بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، وَنَصراً تَعلو بِهِ كَلِمتُكُم عَلى كَلِمَةِ أعدائِكُم ، وَمَخْرَجاً مِنَ الشُّبُهاتِ الّتي تُقلِقُ نُفوسَكُم ، وَنَجاةً مِمّا تَخافونَ .

وَفَوقَ هذا فَإنَّهُ سُبحانَه يُكَفِّرُ عَنكُمْ سَيِّئاتِكُم بِأنْ يَسْتُرَها لَكُم في الدُّنيا ، وَيَغْفِرَها لَكُم يَومَ القِيامَةِ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ تَعليلٌ لِما قَبْلَهُ ، وَتَنبيهٌ عَلى أنَّ ما وَعَدَ بِهِ سُبْحانَهُ

وتَعالى المُؤْمنينَ عَلى تَقْواهُم إنَّما هُوَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ لَهُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ صاحِبُ العَطاءِ الجَزيلِ ، والخَيْرِ العَميمِ لِمَنْ أطاعَهُ واتَّقاهُ وَصانَ نَفْسَهُ عَمَّا يُسْخِطُ اللهَ تَعالى وَيُغْضِبُهُ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيةِ تَذْكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ المُؤْمنينَ بِبَعضِ جَرائِمِ أعْدائِهِمْ الّتي مِنْها محاوَلَتُهُمُ المَحمومةُ اليائسَةُ لِلتَّخلُّصِ مِنْ سَيِّدِنا رَسولِ اللهِ ﷺ بِوَسائلَ مُتَعدِّدَةٍ ومُتَنوِّعَةٍ . وَتَحكي هذهِ الآيَةُ عَمّا جرى مِنْ قُريشٍ لَيلَةً مِنَ اللَّيالي بِمَكَّةَ حينَ اجْتَمعوا لِلتَّشاوُرِ في أمْرِ النَّبيِّ ﷺ وَذلِكَ بَعدَ أنِ اشْتَهرَ أمْرُهُ ، وَصارَ النّاسُ يَتَوافَدونَ إلَيْهِ ، فَقالَ بَعضُهُم إذا أصْبَحَ فأثْبتوهُ بالوَثاقِ . وقالَ بَعضُهُم : بَلِ اقْتُلوهُ ، وقالَ بَعضُهُم : بَلْ أخْرِجوهُ . ثُمَّ اتَّفَقوا على قَتْلِهِ ، فَأطْلَعَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ على ما دَبَّرَتْهُ قُريشٌ ، وَأَمَرَهُ أنْ لا يَبيتَ في مَضْجَعِهِ تِلكَ اللَّيلَةَ ؛ لَيْلَةَ تَنفيذِ المُؤامَرَةِ ، فَأمَرَ النَّبيُّ ﷺ عَلياً بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنْ يَبيتَ مَكانَهُ تِلكَ اللَّيلَةَ ، وَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ مع صاحِبِهِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَنجا هُوَ ﷺ وَصاحِبُهُ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ونَجّى اللهُ تَعالى عَلِيّاً بنَ أبي طالبٍ مِنْ مَكرِ الكُفّارِ ، وَرَجَعَ الكُفّارُ يَجُرّونَ أذْيالَ الخَيْبَةِ وَالقَهْرِ ؛ إذْ فَشِلَ ما كانَ يَتَطَلَّعونَ إلَيْهِ وَيَرْجونَهُ .

واذْكُر يا مُحَمَّدُ ﷺ وَقْتَ أنْ نَجَيَّتُكَ مِنْ مَكْرِ أعدائِكَ حينَ تآمَروا عَلَيْكَ وَأنْتَ بَينَ أظْهُرِهِم في مَكَّةَ لِكَي يَحبسوكَ في دارِكَ ، فَلا تَتَمكَّنُ مِنْ لِقاءِ النّاسِ وَمِنْ دَعْوَتِهِم إلى الدِّينِ الحَقِّ ، أَوْ يَقتُلوكَ بِمَجْموعِهِم فَلا تَقوى قَبيلَتُكَ على الأخْذِ بِثأرِكَ ، أَوْ يُخْرِجوكَ مِنْ مَكَّةَ مَنْفِيّاً مُطارَداً حتّى يَحولوا بَيْنَكَ وَبَيْنَ لِقاءِ قَوْمِكَ . ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

هذا بيانٌ لِموضوعِ النّعمةِ والمِنَّةِ ، أيْ والحالُ أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ يَمكُرونَ بكَ المَكْرَ السَّيِّءَ ، واللهُ تَعالى يردُّ مَكْرَهُمْ في نُحورِهِمْ ، ويُحْبِطُ كَيْدَهُمْ ، ويُخيِّبُ سَعْيَهُمْ ، ويُعاقِبُهُمْ عليْهِ بِعقوبَةٍ شَديدَةٍ ، ويُدبِّرُ لكَ أمْرَكَ وأمْرَ أتْباعِكَ ، ويَحفظُكُمْ جَميعاً مِنْ شُرورِ أعدائِكُمْ ، فهو سُبحانَهُ أقوى مَنْ يَردُّ كَيْدَ الماكِرينَ إلى نُحورِهِمْ ، ويُدبِّرُ ما فيهِ نَجاةُ رسولِهِ ﷺ والمُؤْمِنينَ مِنْ شُرورِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنها :

١ـ لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَخونَ اللهَ تَعالى أَوْ يَخونَ رَسولَهُ ﷺ وَذلكَ بِتَرْكِ ما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى وَأَمَرَهُ بِهِ رَسولُهُ ﷺ .

٢ـ التَّحذيرُ مِنْ فِتْنَةِ الأمْوالِ والأوْلادِ .

٣ـ بَيانُ أثَرِ التَّقوى في مَحْوِ السَّيئاتِ والذُّنوبِ .

٤ـ تَنْبيهُ المُؤْمِنينَ إلى شِدَّةِ مَكْرِ الكافِرينَ ، لِيَحذَروا شَرَّهُم وَمَكْرَهُمُ .

٥ـ بَيانُ مَعِيَّةِ اللهِ تَعالى وَتأييدِهِ وَنَصرِهِ لأوْليائِهِ المُتَّقينَ .

٦ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى غالِبٌ على أمْرِهِ ، قادِرٌ على نَصْرِ أوْليائِهِ وَعبادِهِ الصَّالِحينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

فُرْقاناً ، يُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّاتِكُمْ ، يَمْكُرُ بِكَ ، يُثْبِتوكَ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرينَ .

٢ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى عَنْ خِيانَتِهِ وخيانةِ رَسولِهِ ؟

٣ـ تَتَعدَّدُ صُورُ الخِيانَةِ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، هاتِ خَمْساً مِنْ هذهِ الصُّوَرِ .

٤ـ لِماذا كانَتِ الأمْوالُ والأوْلادُ فِتْنَةً ؟

٥ـ ما المَوْقِفُ الّذي يَنبَغي أنْ يَكونَ عَليهِ المُسْلِمُ أمامَ فِتنةِ المالِ وَالوَلدِ ؟

٦ـ ماذا تَسْتَنبطُ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ الأخيرةِ في هذا الدَّرسِ ﴿وإذ يَمْكُرُ بكَ . . . .﴾ ؟

٧ـ هاتِ الدليلَ على كلٍّ ممّا يلي :

أـ حُرْمَةُ خِيانَةِ الأمانَةِ .

ب ـ التَّقوى سَبيلُ النَّجاةِ .

ج ـ اللهُ غالِبٌ عَلى أمْرِه .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ النِّداءاتِ الخَمْسَةِ الّتي مَرَّتْ بِكَ في هذهِ السُّورَةِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ

سورةُ الأنفالِ - القِسمُ السَّابعُ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أساطيرُ الأوَّلينَ : جَمْعُ أُسطورَةٍ ، وَالمُرادُ بِها ما كانَ يُحكى عَنِ القُدامى مِنْ قَصَصٍ وحَكاياتٍ ، ويَغلِبُ عَلَيْها طابَعُ الخُرافَةِ والتَّخييلاتِ .

مُكاءً : صَفيراً .

تَصدِيةً : تَصْفيقاً .



التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَكْرَ الكافِرينَ وتَدبيرَهُمْ لِلخَلاصِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ وَأنَّهُ تَعالى نَجّى نَبيَّهُ ﷺ

وَأصحابَهُ ، وَرَدَّ كَيْدَ الكافِرينَ إلى نُحورِهِم ، ذَكَرَ رَبُّنا تَعالى جانِباً مِنَ الدَّعاوى الكاذِبَةِ الّتي تَفوَّهَ بِها المُشْرِكونَ ، وَبَيَّنَ حالَهُم وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الكَذِبُ والطُّغيانُ مَبْلَغاً عَظيماً ، حتّى أنَّهم كانوا إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى قالوا كَذِباً وَزوراً : ﴿قد سَمِعْنا﴾ أيْ : فَهِمْنا ما يَحتَوي عَلَيْهِ ما قَرأتَهُ عَلينا ، وَوَعيناهُ ، لَوْ نَشاءُ لَقُلنا مِثْلَ هذا القُرآنِ الّذي تَتلوهُ عَلَيْنا ، ما هُوَ إلاّ مِنْ قِصَصِ الأوَّلينَ وَحِكاياتِهِمُ الّتي سَطَّرَها بَعْضُهُم عَنْهُم ، وَلَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

وَمِنْ عَجيبِ بُهتانِ المُشْرِكينَ أنَّ الرَّسولَ تَحدّاهُم بِمُعارَضَةِ سورةٍ مِنَ القُرآنِ فَعَجِزوا عَنْ ذلكَ وأُفحِموا ، ثُمَّ اعْتَذَروا بِأنَّ ما في القُرآنِ أساطيرُ الأوَّلينَ ، وَأنَّهُم قادِرونَ على الإتْيانِ بِمِثْلِ ذلكَ .

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

هذِهِ جَريمَةٌ أُخرى مِنْ جَرائِمِهِمْ ، وَهذا لَونٌ مِنْ ألوانِ عِنادِهِم ، وَصورَةٌ مِنْ صُوَرِ جُحودِهِم لِلحَقِّ ، وَالمَعنى أنَّ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ قَدْ بَلَغَ بِهِمُ العِنادُ والجُحودُ أنَّهُم لَمْ يَكْتَفوا بإنكارِ أنَّ القُرآنَ مِنْ عِندِ اللهِ تَعالى ، وَأنَّ مُحمَّداً ﷺ قَدْ جاءَهُم بِالحَقِّ ، بَلْ أضافوا إلى ذلكَ قَولَهُم : اللَّهُمَّ إنْ كانَ هذا الّذي جاءَنا بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ قُرآنٍ هُوَ الحَقُّ المُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِكَ ، فَعاقِبْنا على إنكارِهِ وَالكُفْرِ بِهِ ، بِأنْ تُنَزِّلَ عَلينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ .

وهَكذا النُّفوسُ عِنْدَما تَنْغَمِسُ في الأحْقادِ ، وَتَتَمادى في الجُحودِ ، وَتَنقادُ لِلأهْواءِ والشَّهواتِ ، وَتَأْخُذُها العِزَّةُ بِالإثْمِ ، تَرى الباطِلَ حَقّاً ، والحَقَّ باطلاً وتُؤْثِرُ العَذابَ ، وَهِيَ ماضِيَةٌ في باطِلِها بَعيداً عَنِ الخُضوعِ لِلحَقِّ وَالمَنْطِقِ والصَّوابِ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

هذا تَعقيبٌ مِنَ اللهِ تَعالى على رَذائِلِ المُشْرِكينَ وَقَبائِحِهِمْ ، وَفيهِ بَيانُ الأَسْبابِ في إمْهالِهِم وَعَدمِ إجابَةِ دُعائِهِمْ في هَلاكِهِمْ ، فَبَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى السَّببَ بِأمْرَيْنِ اثنَيْنِ :

الأوَّلُ : وُجودُ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ مانِعٌ مِنْ أنْ يَعُمَّهُمُ العَذابُ ، ولا يُهلِكُ اللهُ تَعالى قَريَةً مُكَذِّبَةً وفيها نَبِيُّها والمُؤْمِنونَ مَعَهُ ، حتّى يُخرِجَهُم ثُمَّ يُعذِّبُ الكافِرينَ . وَمِثْلُ هذهِ الآيةِ في بَيانِ هذهِ السُّنَّةِ قَولُهُ تَعالى في سورة الفتح : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] .

الثّاني : أنَّ اللهَ تَعالى لا يُعذِّبُ الأقْوامَ وَهُمْ يَتوبونَ عَنِ الشِّرْكِ ، ويؤْمِنونَ باللهِ تَعالى ، وَفي هذهِ الآيةِ وعْدٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِلمُشْرِكينَ بِأنَّ التَّوبَةَ مِنَ الشِّرْكِ تَدفَعُ عَنْهُمُ العَذابَ وَتكونُ أمْناً لَهُم .

وفي الآيةِ الكَريمةِ بَيانُ فضيلَةِ الاسْتِغفارِ وَبَرَكَتِهِ وأنَّهُ مانِعٌ مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى .

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى الحِكْمَةَ مِنْ عَدَم تعذيبِ الكُفّارِ ، بَيَّنَ هَهُنا ما يَجْعَلُ الكافِرينَ مُسْتَحقّينَ لِعذابِ اللهِ تَعالى وَعِقابِهِ . والمَعنى : أيُّ شَيءٍ يَمْنَعُ مِنْ عَذابِ مُشرِكي قُرَيشٍ بَعدَ خُروجِكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ وَخُروجِ المُؤْمِنينَ المُستَضْعَفينَ مِنْ بَينِ أَظْهُرِهِم ؟ إنَّهُ لا مانِعَ مِنْهُ بَعدَ ذلِكَ خُصوصاً بَعدَ وُجودِ الجَرائِمِ الشَّنيعَةِ المُتَمثِّلَةِ في مَنْعِهِمُ المُؤْمِنينَ مِنَ الطَّوافِ بالمَسجِدِ الحَرامِ ، وَمِنْ زِيارَتِهِ ، وَمِنْ مُباشَرَةِ عِبادَتِهِمْ عِندَهُ ، إنَّهُم لا بُدَّ وأنْ يُعذَّبوا عَلى هذهِ الجَرائِمِ . وَقَد أَوْقَعَ اللهُ تَعالى بِهم بَأسَهُ يَومَ بَدْرٍ فَقُتِلَ صَناديدُهُم ، وَأُسِرَ وُجَهاؤُهُم .

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ وَهذا رَدٌّ عَلى المُشْرِكينَ الّذينَ يَقولونَ زوراً وبُهتاناً أَنَّهُم وُلاةُ بَيتِ اللهِ الحَرامِ ، فَلَهُم أنْ يَصُدُّوا مَنْ شاءوا عَنْ دُخولِهِ ، وَيُدخِلوا فيهِ مَنْ شاءوا ، فإنَّهُم ما كانوا في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ أَهْلاً لِوِلايَةِ بَيتِ اللهِ الحَرامِ بِسَبَبِ شِرْكِهِم ، وَعَداوَتِهِمْ للهِ تَعالى رَبِّ هذا البيتِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَهُ المُستَحقِّينَ لِوِلايَةِ البَيْتِ الحرامِ ، بعدَ نَفْيِها عَنِ المُشْرِكينَ ، فقالَ :

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أيْ أَوْلِياءُ البَيتِ الحَرامِ ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الّذينَ صانوا أنْفُسَهُم عَنِ الكُفْرِ والشِّرْكِ ، وَعَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ تَعالى . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أيْ أكثَرُ المُشْرِكينَ لا يَعلمونَ أحقِيَّةَ المُؤْمِنينَ بِوِلايَةِ بَيتِ اللهِ الحرامِ ، بِسبَبِ جَهْلِهِمْ وَتماديهِمْ في الجُحودِ والضَّلالِ . وإنَّما نَفى هذا العِلْمَ عَنْ أكْثَرِهِم ، لأنَّ قِلةً مِنْهُم كانَتْ تَعلَمُ أنَّهُ لا وِلايَةَ لَها على المَسْجِدِ الحَرامِ ، وَلكِنَّها كانَتْ تَجحدُ ذلكَ عِناداً وغُروراً أو مُجاراةً للعامَّةِ مِنهُم أوْ حُبّاً في الرِّياسَةِ أو ذلكِ كُلِّه .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

هذا لَوْنٌ آخَرُ مِنْ ألوانِ ضَلالِ المُشْرِكينَ ، وجُحودِهِم ، وَعَبَثِهِمْ عِندَ بَيتِ اللهِ الحَرامِ ، والمَعْنى أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ لَمَ تَكُنْ صَلاتُهُم عِندَ البَيتِ الحَرامِ إلاّ تَصفيقاً وتَصْفيراً ، وهَرْجاً وَمَرْجاً لا وَقارَ فيهِ ، ولا اسْتِشعارَ لِحُرْمَةِ البَيتِ ولا خُشوعاً لِجلالِ اللهِ تَعالى ، وهذا يؤكِّدُ عَدَمَ اسْتِحقاقِهِمْ لِوِلايَةِ البَيْتِ الحَرامِ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ وَعيداً لَهُمْ بعذابِ الآخِرَةِ بسببِ كُفْرِهِم واسْتِهزائِهِم بشَعائِرِ اللهِ ، وإمّا أنْ يَكونَ المُرادُ ما حَصَلَ لَهُم يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ القَتْلِ والأسْرِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الباطِلُ لا يَتوانى عَنْ مُحارَبَةِ الحَقِّ بِأَيِّ صورَةٍ وَوسيلةٍ .

٢ـ إنَّ وَجودَ المُؤْمنينَ بِإيمانِهِم في الأَرْضِ هُوَ أمانٌ مِنْ عذابِ اللهِ تَعالى .

٣ـ إذا سَيْطَرَتِ الأَهْواءُ والشَّهَواتُ عَلى الإنْسانِ صارَ يَرى الحَقَّ باطِلاً ، والباطِلَ حَقّاً .

٤ـ المُشْرِكونَ وَالكُفّارُ لا يَتوانَوْنَ عَنْ تَعطيلِ عِباداتِ المُسلِمينَ وَمُحاولَةِ مَنْعِهِمْ مِنْ أدائِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أساطيرُ الأوَّلينَ ، يَصُدّون عَنِ المَسجدِ الحَرامِ ، مُكاءً ، تصدِيَةً .

٢ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ المُشْرِكينَ حين تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيِّنْ أثَرَ الاسْتِغفارِ على النَّاسِ .

٤ـ ما الأَشياءُ الّتي تَحولُ بينَ النَّاسِ وعَذابِ اللهِ تَعالى ؟

٥ـ صِفْ عِبادَةَ المُشْرِكينَ عِنْدَ المسجدِ الحَرامِ .

٦ـ هاتِ الآياتِ الّتي تَدُلُّ على كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ حَماقَةُ المُشْرِكينَ .

ب ـ دَعواهُمُ الباطِلَةُ وكَذِبُهُمْ .

٧ـ مَنْ هُمْ أولياءُ المَسْجِدِ الحرامِ ؟ وما الدَّليلُ عَلى ذلكِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ماذا تَفْهَمُ مِنْ دُعاءِ الكافِرينَ على أنْفُسِهِمْ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما أثرُ الاسْتِغْفارِ في ردِّ عذابِ اللهِ تعالى عَنِ النّاسِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَصدُّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ	: يَمْنَعوا النّاسَ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلامِ .
حَسْرَةً	: نَدامَةً وأَسَفاً .
يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيبِ	: يُفَرِّقَ بَيْنَ المُؤْمنينَ والكافِرينَ ، فَلا يَختَلِطُ هؤلاءِ بِهؤلاءِ .
يَرْكُمَهُ جَميعاً	: يَجْمَعَهُ وَيَضُمَّ بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ .
ما قَدْ سَلَفَ	: ما قَدْ مَضى .
إنْ يَعودوا	: أَيْ : إلى قِتالِكَ ، وَيَستَمِرُّوا في كُفْرِهِم وَضَلالِهِم وَطُغيانِهِمْ .
مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلين	: أَيْ : تَجري عَلَيْهِم سُنَّةُ اللهِ تَعالى في أمثالِهِم مِنَ الأَوَّلينَ الّذينَ عادَوْا رُسُلَهُم وقاتَلوهُمْ .
حَتَّى لا تَكونَ فِتْنَةٌ	: حَتَّى لا يُوجَدَ مِنْهُم شِرْكٌ ، أَوْ لا يُفتَنَ مُؤْمِنٌ عَنْ دينِهِ .



التَّفسيرُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

هذا بيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى عَمَّا يَفعلُهُ الكافِرونَ في أَمْوالِهِم ، وَأَنَّهُم إِنَّما يُنْفِقونَها في الشُّرورِ والآثام ، ثُمَّ ألحقَ بِهِمْ بَعدَ البَيانِ تَهديداً لَهُم عَلى فِعْلِهِمُ المُنْكَرَ .

إِنَّ هؤلاءِ الّذينَ جَحَدوا بالآياتِ ، وأَشْرَكوا باللهِ تَعالى يُنفِقونَ أموالَهُمْ ، وَيبذُلونَها لِيَمْنَعوا النَّاسَ عَنِ الإيمانِ الحَقِّ ، وَيُبْعِدوهُمْ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَهُمْ سيُنفِقونَها لا مَحالَةَ لِرَغبَتِهِمُ الجامِحَةِ في حَرْبِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ،ثُمَّ تَكونُ هذهِ الأموالُ بِسببِ ضَياعِها عَلَيْهِم مِنْ غَيرِ جَدوى ولا فائِدةٍ وَلا مَنْفَعَةٍ ، موجِبَةً للنَّدَمِ والأَلَمِ ، وَمَعَ حَسْرَتِهِم عَلى ضَياعِ أَمْوالِهِم سَيُغلَبونَ ، ويَنْهَزِمونَ ، وَلا يَتَحقَّقُ لَهُم نَصرٌ في مَيدانِ القِتالِ ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ تَعالى مِنْهُم مَنْ بَقِيَ عَلى كُفْرِهِ وَيُدْخِلُهُ جَهَنَّمَ ، أعاذَنا اللهُ جَميعاً مِنْها وَمِنْ أَهْلِها .

وَيَلحَقُ بِحُكْمِ هذهِ الآيَةِ كُلُّ مَنْ أَنْفَقَ مالَهُ يَبْتَغي بِهذا الإنْفاقِ حَرْبَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ . فَإِنَّ الآيَةَ بِعُمومِها تَشْمَلُهُ وَلَيْسَتْ هِيَ خاصَّةً بِالكافِرينَ فَحَسْبُ ، فَفي هذهِ الآيَةِ وَعيدٌ شَديدٌ لِلكافِرينَ وَلِمَنْ فَعلَ فِعْلَهُم .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

أَيْ : أَنَّ اللهَ تَعالى أَذَلَّ الكافِرينَ وَحشَرَهُم إلى جَهَنَّمَ ، لِيَتَميَّزَ الفَريقُ الخَبيثُ وَهُوَ فَريقُ الكافِرينَ ، مِنَ الفَريقِ الطَّيِّبِ وَهُوَ فَريقُ المُؤْمِنينَ الّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم بِرِضوانِهِ ، فَإذا ما تَمايَزا جَعلَ سُبْحانَهُ الفريقَ الخَبيثَ مُنْضمّاً بَعضُهُ إلى بَعضٍ ، ثُمَّ أَلقى بِهِ في جَهَنَّمَ جَزاءَ خُبثِهِ وَمَكْرِهِ .

وبَعَدَ هذا التَّهديدِ وَالوَعيدِ وَجَّهَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى خِطابَهُ لِلنَّبيِّ ﷺ مُبَيِّناً فيهِ حُكْمَ الّذينَ يَرجِعونَ عَنِ الكُفْرِ ، وَيَدْخُلونَ في الإِسْلامِ ، لأَنَّ نُفوسَ النَّاسِ صارَتْ بَعدَ ذلِكَ التَّهديدِ تَسأَلُ بِلِسانِ الحالِ أَوْ المَقالِ عَنْ هذا البَيانِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ يا نَبيَّ الرَّحْمَةِ لِهؤلاءِ الجاحِدينَ : إِنَّهُمْ إِنْ يَنْتَهوا عَنْ هذا العِنادِ وَالكُفرِ الّذي

هُمْ فِيهِ ، فإنَّ اللهَ تَعالى يَغْفِرُ لَهُم ما سَبَقَ مِنْ أعْمالِهِمْ فَلا يُحاسِبُهُم عَلَيْها لأنّ الإسلامَ يَجُبُّ[1] ما قَبْلَهُ ، وإنِ استَمَرُّوا عَلى ضَلالِهِم وَعادوا إلى قِتالِكُم ، فَسوفَ يُصيبُهُم ما أصابَ غيرَهُم مِنَ الأُمَمِ السّابِقَةِ مِنَ العَذابِ الشَّديدِ ، وَسوفَ يُظْهِرُ اللهُ تَعالى الحَقَّ وَأهْلَهُ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

هذا أمْرٌ للمُؤْمِنينَ بِقِتالِ الكُفّارِ إنِ اسْتَمَرّوا عَلى كُفْرِهِم ، لأنَّهُم بِكُفْرِهِم يَفتِنونَ النّاسَ عَنْ دينِهِمْ ، فَالقِتالُ يُمنَعُهُم مِنْ إفْسادِ عَقائِدِ المُؤْمِنينَ بِالاضْطِهادِ والأَذى وَنَحوِهِ ، وَبِذلكَ تَخْتَفي أَسْبابُ الفِتْنَةِ ، وَيَبْقى دينُ اللهِ ظاهِراً ، وَيَزدادُ تَمَسُّكُ المُؤْمِنينَ بِدينِهِم ، فَإنِ انْتَهَوْا عَنِ الكُفْرِ وَإيذاءِ المُؤْمِنينَ ، وَخَلَصَ الدِّينُ للهِ تَعالى ، فَإنَّ اللهَ تَعالى بَصيرٌ بِأعْمالِهِم وَمُطَّلِعٌ عَلَيْها ، فَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وَهُوَ يُحاسِبُهُم عَلى ما يَراهُ مِنْهُم .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

وإنِ اسْتَمَرّوا عَلى إعْراضِهِم وَإيذائِهِمْ لِلمُؤْمِنينَ ، وَأعْرَضوا عَنْ سَماعِ تَبليغِكُم ، وَلَمْ يَنْتَهوا عَمّا هُمْ فيهِ ، فَأيْقِنوا أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّ اللهَ تَعالى هُوَ ناصِرُكُم وَمُتولّي أُمورِكُمْ ، فَلا تُبالوا بِهِمْ ، وَلا تَخافوا ، فإنَّ اللهَ تَعالى نِعْمَ المَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصيرُ ، فَلا يَضيعُ مَنْ تَولّاهُ وَلا يُغْلَبُ مَنْ نَصَرَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ أهلُ الكُفْرِ لَنْ يَتَوانَوْا أو يَتقاعَسوا عَنْ مُحارَبَةِ هذا الدِّينِ لِعِدائِهِم لَهُ .

٢ ـ الخَيْبَةُ وَالحَسْرَةُ تَكونُ لِلكافِرينَ يَومَ القِيامَةِ .

٣ ـ إذا أسْلَمَ الكافِرُ فإنَّهُ لا يُخاطَبُ بِما سَبَقَ مِنْ قَضاءِ صَلاةٍ وَزَكاةٍ وَنَحوِها ، لأنَّ الإسْلامَ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ .

٤ ـ شُرِعَ القِتالُ لأجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَكَذلِكَ رَفْعِ الأذى عَنِ المُؤْمِنينَ وَمَنْعِ الاعْتِداءِ عَلَيْهِم .

---

(١) يجُبُّ : يقطع ويمسح .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لِيَميزَ اللهُ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، تكونُ عَلَيْهِم حَسْرَةً ، يَرْكُمَهُ .

٢ـ ما الغَرَضُ مِنْ إنْفاقِ الكُفَّارِ أمْوالَهُم ؟ وما نَتيجَةُ هذا الإنْفاقِ ؟

٣ـ إذا أسْلَمَ الكافِرُ ، هَلْ يُطالَبُ بالأحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ الّتي تَرَكَها في أثْناءِ كُفْرِهِ ؟

٤ـ لِماذا يُقاتِلُ المُسلِمونَ الكافِرينَ ؟

٥ـ بَيِّنِ الآيَةَ الّتي تُشَجِّعُ الكافِرينَ عَلى الدُّخولِ في الإسْلامِ وَتَحُضُّهُمْ عَلَيْهِ .

٦ـ بَيِّنِ الآيَةَ الّتي تَدعو المُؤْمِنينَ إلى عَدَمِ المُبالاةِ بِالكافِرينَ .

نَشاطٌ :

ـ كَيفَ يَفتِنُ المُشْرِكونَ المُؤْمِنينَ عَنْ دينِهِم ؟ اكْتُبْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

غَنِمْتُم : ما أَخَذْتُم مِنْ أَمْوالِ الكُفّارِ قَهْراً بِقِتالٍ .

ابنُ السَّبيلِ : المُسافِرُ الّذي نَفِدَ مالُهُ وَهُوَ في الطَّريقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلى بَلَدِهِ .

يَومَ الفُرقانِ : يَومَ بدْرٍ ، سُمِّيَ كذلِكَ ، لأنَّهُ في ذلِكَ اليَومِ فَرَّقَ اللهُ تَعالى بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ .

الجَمْعانِ : جَمْعُ المُؤْمِنينَ ، وَجَمْعُ الكافِرينَ .

اليَتامى : أَطْفالُ المُسْلِمينَ الّذينَ ماتَ آباؤُهُم قبلَ أنْ يَبْلُغوا .

المَساكينِ : أَهْلِ الفاقَةِ وَالحاجَةِ مِنَ المُسلِمينَ .

ذَوي القُربى : قَرابَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَهُمْ بَنو هاشِمَ وبَنو المُطَّلِبِ .

التَّفسيرُ :

جاءَ في أَوّلِ السُّورةِ الكَريمَةِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾ عَلى مَعنى أَنَّ قِسْمَةَ الأَنْفالِ الأَمْرُ فيها مُفَوَّضٌ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ . ثُمَّ جاءَتْ هذهِ الآيَةُ فَفَصَّلَتْ قِسْمةَ الغَنائِمِ حَسبَما أَمَرَ اللهُ تَعالى ، حتّى لا يَتَطَلَّعَ أَحَدٌ إلى ما لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ ، فَتَفْسُدَ النُّفوسُ بِهذا التَّطَلُّعِ ، وَيَكْثُرَ الخِلافُ .

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾ .

هذا بيانٌ مُعْلِمٌ وَنِداءٌ مُفْهِمٌ ، يُبَيِّنُ مَعَهُ حُكْمَ هذهِ الغَنائِمِ بَياناً شافِياً تَنْقَطِعُ دونَهُ الأفْكارُ ، فَالغنائِمُ الّتي يَحوزُها المُسْلِمونَ مِنْ أعْدائِهِمْ بَعْدَ المَعارِكِ تُقْسَمُ إلى خَمْسَةِ أَقْسامٍ ، قِسْمٌ فَصَّلَتْهُ الآيَةُ وَبَيَّنَتْهُ ، وَأمّا الأقسامُ الأُخْرى فَتَرَكَتِ الآيَةُ الحَديثَ عَنها ، وَتُرِكَ الأمْرُ فيها لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَأمّا الخُمسُ المُفَصَّلُ فَقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ حُكْمَهُ في قَولِهِ تَعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ والمَعنى أنَّ هذا الخُمْسَ يُقَسَّمُ على النَّحْوِ التّالي :

١ـ للهِ تَعالى : فَهِمَ كَثيرٌ مِنَ العُلَماءِ أنَّ المُرادَ بِهذا الجانِبِ لَيْسَ القِسْمَةَ الحَقيقيَّةَ ، يَعني أنْ لَيْسَ هُناكَ قِسْمٌ خاصٌّ يوضَعُ عَلَيْهِ عِنْوانٌ أنَّهُ للهِ تَعالى ، وإنَّما المُرادُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى هُنا هُوَ التَّبَرُّكُ وَالتَّعظيمُ ، وَالحَضُّ عَلى إخلاصِ النِّيَّةِ عِندَ القِسْمَةِ ، وَعَلى الامْتِثالِ وَالطّاعَةِ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَلَيْسَ المَقْصودُ أنْ يُقْسَمَ هذا الخُمْسُ على سِتَّةِ أقسامٍ مِنْها قِسْمٌ للهِ تَعالى ، لأنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ الأشْياءِ ، وَفَهِمَ آخَرونَ أنَّ الأمْرَ كَذلِكَ يَعني أنَّ هُناكَ قِسْماً خاصّاً للهِ تَعالى مِنْ هذا الخُمْسِ ، وَأنَّهُ مَتروكٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ يَصرِفُهُ حَيْثُ شاءَ ، وَجُمْهورُ المُفَسِّرينَ عَلى الأمْرِ الأوَّلِ .

٢ـ لِلرَّسولِ ﷺ : وَهذا السَّهْمُ مُفَوَّضٌ أمْرُهُ إلَيْهِ يَفْعَلُ فيهِ ما يَشاءُ ، يُنْفِقُهُ عَلى أهْلِهِ ، أوْ يَرُدُّهُ عَلى المُسلِمينَ ، وَسَهْمٌ لِرَسولِهِ ﷺ ، هكَذا كانَ في حياتِهِ ، وَأمّا بَعْدَ وَفاتِهِ فَقيلَ إنَّهُ يَكونُ لِمَنْ يَلي أمْرَ المُسلِمينَ ، وَقيلَ يُصْرَفُ في مَصالِحِ المُسلِمينَ .

٣ـ لِذي القُرْبى : وَالمُرادُ بِهِمْ قَرابَةُ الرَّسولِ ﷺ ، وَخُصَّ مِنْهُمْ بَنو هاشِمٍ وَبنو المُطَّلِبِ ، لِحديثِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّما بَنو المُطَّلِبِ وَبنو هاشِمٍ شيءٌ واحدٌ » . فلا يُصرَفُ هذا السَّهْمُ إلاّ لَهُم في حَياتِهِ ﷺ ، وَأمّا بَعْدَ وَفاتِهِ ﷺ فَيَسْقُطُ ، وَإنَّما يُعطَوْنَ إذا كانوا فُقَراءَ ، وَيُقَدَّمُ فُقراؤُهُم عَلى فُقَراءِ غَيْرِهِم ، وَلا حَقَّ لأغْنِيائِهِم ، لأنَّ الخُلَفاءَ الأرْبَعَةَ قَسَموا الخُمْسَ كَذلِكَ ، وَكَفى بِهِم قُدْوَةً . وَقيلَ بَلْ بَقِيَ السَّهْمانِ يُنْفَقانِ على بَقيَّةِ المُقْتَسِمينَ في الخُمْسِ أو يُصْرَفانِ في مَصالِحِ المُسلِمينَ .

٤ـ لِليَتامى : وَاليَتيمُ هُوَ مَنْ ماتَ أبوهُ وَهُوَ صَغيرٌ ، وَلَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ . وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ : لا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلامٍ .

٥ـ لِلمَساكينِ : وَهُمْ مِنْ ذَوي الاحْتياجِ إلى مِثْلِ هذهِ النَّفَقاتِ ، لإقامَةِ شُؤونِ حَياتِهِمْ وَمَعاشِهِم .

٦ـ لابنِ السَّبيلِ : وَهُوَ مَنْ أنْفَدَ السَّفرُ مالَهُ ، فَصارَ مِنْ ذَوي الحاجاتِ إلى المالِ لِيَبْلُغَ مأْرَبَهُ الّذي مِنْ أَجْلِهِ أنْشأَ السَّفَرَ ، أوْ يَعودَ مِنْ حَيثُ أتى .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ شَرطٌ مُتَحَقِّقُ الوُقوعِ ، لأنَّ المُخاطَبينَ بِهذِهِ الآيةِ مِنَ المُؤْمِنينَ لا مَحالَةَ ، وَإنَّما جيءَ بِهِ عَلى هذا الشَّكْلِ إلهاباً لِمَشاعِرِهِمْ ، لِيَبْعَثَهُم عَلى إظْهارِ تَحقُّقِ الإيمانِ فيهِم ، وَالمَعنى : أنَّكُمْ آمَنْتُمْ باللهِ ، والإيمانُ يُرْشِدُ إلى اليَقينِ بِتَمامِ العِلْمِ وَالقُدْرَةِ لَهُ تَعالى ، وَآمَنْتُمْ كَذلِكَ بِما أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى عَلى عَبْدِهِ رَسولِ اللهِ ﷺ حينَ فَرَقَ اللهُ تَعالى بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ ، فَرَأيْتُمْ ذلِكَ رَأيَ العَيْنِ ، وَارْتَقى بِذلِكَ إيمانُكُمْ إلى دَرَجَةٍ عالِيَةٍ ، فَعَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ تَعالى أعْلَمُ بِنَفْعِكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ ، فَكانَ ما دَفَعَكُمُ اللهُ تَعالى إليهِ مِنَ اخْتِيارِ القِتالِ يَوْمَ بَدْرٍ أحْفَظَ لِمَصالِحِكُم ، وَأشَدَّ تَثْبيتاً لِقُوَّةِ دينِكُم ، فَالحَرِيُّ بِكُمْ بَعْدَ أنْ رَأيْتُمْ ذلِكَ أنْ تَعْلَموا أنَّ ما شَرَعَ اللهُ تَعالى لَكُمْ مِنْ قِسْمَةِ الغَنائِمِ هُوَ المَصْلَحَةُ لَكُمْ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أيْ لا يَتَعاصى عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى شَيءٌ ، فإنَّ ما مَنَحَكُم إيَّاهُ يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ جارِياً عَلى مُتَعارَفِ الأسْبابِ ، وَلكِنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَعالى قَلَبتِ الأحْوالَ وَأنشَأتِ الأشْياءَ مِنْ غَيْرِ مَجاريها ، فَسُبْحانَ اللهِ تَعالى القَوِيّ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُسْلِمِ أنْ يَكونَ مُطيعاً وراضِياً بِما أمَرَ اللهُ تَعالى وَقَضى .

٢ـ في تَقسيمِ الغَنائِمِ نَوْعٌ مِنَ العَدالَةِ الاجْتِماعِيَّةِ ، الّتي تَجْعَلُ لأفْرادِ المُجْتَمَعِ حُظوظاً مُشْتَرَكَةً في كَثيرٍ مِنَ الأُمورِ .

٣ـ في تَذكيرِ المُؤْمِنينَ بِبَعضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم إلْهابٌ لِمَشاعِرِهِم وَتَهييجٌ لِظُهورِ إيمانِهِم .

٤ـ إنَّ اللهَ تَعالى لا يُعْجِزُهُ شَيءٌ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعنى : الغَنيمَةِ .

٢ـ حَدَّدَتِ الآيَةُ الكَريمةُ الوُجوهَ الّتي تُصرَفُ إليْها خُمْسُ الغَنائِمِ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كما جاءَ في الآيَةِ .

٣ـ تُقْسَمُ الغَنائِمُ إلى قِسْمَيْنِ . اذْكُرْهُما .

٤ـ ما مَعنى إسْنادِ القِسْمَةِ للهِ تَعالى في قَوْلِهِ : فَإِنَّ للهِ خُمُسَهُ ؟

٥ـ ما مَعنى اليَتيمِ ؟ هاتِ دَليلاً عَلى ما تَقولُ .

٦ـ مَنْ هُمْ أُولو القُربى المَذكورونَ في هذهِ الآيَةِ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ عَلى ما تَقولُ .

٧ـ ماذا تَسْتَفيدُ مِنْ هذه القِسْمَةِ المَذكورَةِ في الآيَةِ ؟

٨ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ المِسْكينِ وابْنِ السَّبيلِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ماذا حَقَّقَ اللهُ لِلمُسْلِمينَ يَوْمَ بَدْرٍ .

* * *

الدَّرسُ العاشِرُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ العاشِرُ

إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ
لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ
بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ
قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ
لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

العُدْوَةِ الدُّنيا : جانِبِ الوادي وَحافَّتِهِ القَريبَةِ إلى جِهَةِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .

العُدْوَةِ القُصوى : حافَّةِ الوادي البَعيدةِ عَنْ جِهَةِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .

الرَّكْبُ : اسمُ جَمْعٍ لِراكِبٍ ، وَالمُرادُ بِهِ القافِلَةُ التِّجارِيَّةُ الّتي يَقودُها أبو سُفيانَ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى كَيْفِيَّةَ قِسْمَةِ الغَنائِمِ ، أظْهَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضْلِهِ وَحِكَمِهِ في غَزوَةِ بَدْرٍ ، فَبَيَّنَ الأماكِنَ الّتي نَزَلَ فيها كُلُّ فَريقٍ ، كَما بَيَّنَ الحِكْمَةَ في لِقاءِ المُؤْمِنينَ وَالكافِرينَ على

غَيْرِ ميعادٍ ، وَالحِكْمَةَ في تَقليلِ كُلٍّ مِنْهُما في عَيْنِ الآخَرِ فَقالَ : « إذْ أَنْتُمْ . . . . الخ» وَالمَعنى : وَاذْكُروا حينَ كُنتُم في الوادي بِأَقْرَبِ الجانِبَيْنِ مِنَ المَدينَةِ ، وَهُمْ بِأَبْعَدِ الجانِبَينِ ، وَرَكْبُ التِّجارَةِ الّذي تَطْلُبونَهُ أَصْبَحَ جِهَةَ البَحْرِ في طَريقِ النَّجاةِ ، وَلَوْ تَواعَدْتُمْ مَعْ قُرَيْشٍ عَلى التَّلاقي لِلقِتالِ لَما اتَّفَقْتُمْ عَلَيهِ ، وَلكِنّ اللهَ تَعالى دَبَّرَ تَلاقيكُمْ عَلى غَيْرِ مَوْعِدٍ ، لِيُنْفِذَ أَمْراً أَرادَهُ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ واقِعٌ لا مَحالَةَ ، وَهُوَ القِتالُ المُؤَدّي إلى نَصْرِكُم وَهَزيمَتِهِم لِتَنْقَطِعَ الشُّبُهاتُ ، فَيَهْلِكَ الهالِكونَ عَنْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ بِالمُشاهَدَةِ ، وَهِيَ هَزيمَةُ الكَثْرَةِ الكافِرَةِ . وَيحيى المُؤْمِنونَ عَنْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ، وَهِيَ نَصْرُ اللهِ تَعالى لِلقِلَّةِ المُؤْمِنَةِ ، إنّ اللهَ تَعالى لَسَميعٌ عَليمٌ ، لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَحْوالِ الفَريقَيْنِ وَلا نِيَّاتِهِم .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وهذا تَذكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بِبَعضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِ في بَدْرٍ ، وَمِنْها هذا التَّدبيرُ الخَفِيُّ مِنهُ تَعالى لِنَصْرِ المُؤْمِنينَ ، يَقولُ سُبْحانَهُ : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ ﷺ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَلَيْكَ وَعَلى أَصْحابِكَ ، حَيْثُ أَراكَ في مَنامِكَ الكافِرينَ قَليلاً عَدَدُهُم ، ضَئيلاً وَزْنُهُم ، فَأَخْبَرْتَ بِذلِكَ أَتْباعَكَ ، فازدادوا ثَباتاً وَاطْمِئْناناً وَجُرْأَةً عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَلَو أَراكَ اللهُ تَعالى الأَعداءَ كَثيراً عَدَدُهُمْ ، لَتَهَيَّبْتُمُ الإِقْدامَ عَلَيْهِم ، وَلَخِفْتُمْ لِقاءَهُمْ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِم وَعُدَدِهِمْ . وَلَحَصَلَ بَيْنَكُم تَنازُعٌ في أَمْرِ الإِقْدامِ عَلَيْهِم لِقِتالِهِم أَوِ الإِحْجامِ وَالامْتِناعِ عَنْهُم ، لأَنَّهُ سَيَكونُ مِنْكُم مَنْ يَرى هذا وَمِنكُم مَنْ يَرى ذاكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى بِفَضلِهِ وَإِحْسانِهِ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالسَّلامَةِ مِنَ الفَشَلِ وَالتَّنازُعِ ، وَتَفَرُّقِ الآراءِ في شَأْنِ القِتالِ ، حَيْثُ رَبَطَ عَلى قُلوبِكُمْ ، وَرَزَقَكُمُ الجُرْأَةَ عَلى أَعدائِكُمْ وَعَدَمَ المُبالاةِ بِهِم ، بِسَبَبِ رُؤيا نَبِيِّكُم ﷺ . إنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَليمٌ بِكُلِّ ما يَحصُلُ في القُلوبِ وَما يَخْطُرُ بِها مِنْ شَجاعَةٍ وَجُبْنٍ ، وَمِنْ صَبْرٍ وَجَزَعٍ ، وَلِذلِكَ دَبَّرَ ما دَبَّرَ بِحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ .

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وَاذْكُروا أَيُّها المُؤْمِنونَ وَقْتَ أَنِ التَقَيْتُمْ مَعْ أَعدائِكُم وَجْهاً لِوَجهٍ في بَدْرٍ ، فَكانَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلَيْكُم قَبلَ أَنْ تَلتَحِموا مَعَهُم أَنْ جَعَلَ عَدَدَهُم قَليلاً في أَعْيُنِكُم كَي لا تَخافوهُمْ ، وَجَعَلَ عَدَدَكُمْ قَليلاً في أَعْيُنِهِم ، وَذلِكَ لإِغْرائِهِم عَلى خَوْضِ المَعْرَكَةِ ، أَمّا أَنْتُم فَتَخوضونَها مِنْ دونِ مُبالاةٍ لِقِلَّتِهِم في أَعْيُنِكُم ، وَلِثِقَتِكُم بِنَصْرِ اللهِ تَعالى إيّاكُم .

وَأَمّا هُم فَيَخوضونَها مُعتَمِدينَ عَلى غُرورِهِم وَبَطَرِهِم وَقِلَّتِكُم في أَعْيُنِهِم ، فَيَتَرَتَّبُ عَلى ذلِكَ أَنْ يَتْرُكوا الاسْتِعدادَ اللّازِمَ لِقِتالِكُم ، فَتَكونَ الدائِرَةُ عَلَيْهِم ، وَقَدْ كانَ هذا التَّقليلُ تَصْديقاً لِرُؤيا النَّبِيِّ ﷺ ، وَالأَمْرُ كَذلِكَ مِمّا يَكونُ باعِثاً هِمَّةَ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إذا أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ أمْراً هَيّأ أسْبابَهُ .

٢ـ ثِقَةُ المُؤْمِنينَ باللهِ تَعالى مِنْ دَعائِمِ النَّصْرِ ، فَالمُؤْمِنُ واثِقٌ مِنْ نَصْرِ اللهِ لَهُ .

٣ـ غُرورُ الكافِرينَ مِنْ دَواعي الهَزيمَةِ ، فَالكافِرُ مَغرورٌ مُعتَمِدٌ عَلى قُوَّتِهِ وَجَبَروتِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المُرادُ بِالعُدْوَةِ القُصوى ، وَالعُدْوَةِ الدُّنيا ؟

٢ـ عَدِّدِ النِّعَمَ الإلهِيَّةَ الّتي أنْعَمَ اللهُ تَعالى بِها عَلى المُؤْمِنينَ مِمّا ذُكِرَ في هذهِ الآياتِ .

٣ـ بَيِّنِ الحِكْمَةَ مِنْ :

أ ـ تَقليلِ عَدَدِ المُؤْمِنينَ في أعْيُنِ الكافِرينَ .

ب ـ تَقليلِ عَدَدِ الكافِرينَ في أعْيُنِ المُؤْمِنينَ .

ج ـ رُؤْيا رَسولِ اللهِ ﷺ .

٤ـ ما المُرادُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كانَ مَفْعولاً﴾ ؟

٥ـ ما العِبَرُ المُستَفادَةُ مِنْ هذهِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى بَعْضِ كُتُبِ التَّفسيرِ واقْرأ فيها ما يَتَعلَّقُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ مِنْ سورَةِ آلِ عِمرانَ ، ثُمَّ دَوِّنْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ ، وَكَيْفَ تُوَفِّقُ بَيْنَ هذهِ الآيَةِ وَما هُوَ مَذكورٌ في الآياتِ مَوْضوعِ الدَّرسِ مِنْ تَقليلِ المُؤْمِنينَ في أعْيُنِ الكافِرينَ .

الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الحادي عَشَرَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ
بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ
إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فِئَةً : جَماعَةً .

تَذْهَبَ ريحُكُمْ : تزولَ دَوْلَتُكُمْ .

بَطَراً : تَكَبُّراً وَغُروراً .

جارٌ لَكُم : ناصِرٌ لَكُمْ وَمُعينٌ .

تَراءَتِ الفِئَتانِ : تَقارَبَتا والْتَقَتا وصارَتْ كُلُّ فِئَةٍ تَرى الأُخْرى .

نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ : وَلَّى هارِباً .

المُنافِقونَ : هُم مَنْ كانوا يُظْهِرونَ الإسْلامَ وَيُخفونَ الكُفْرَ .

الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ : الَّذينَ لَمْ يَتَمَكَّنِ الإيمانُ مِنْ قُلوبِهِم .

التَّفسيرُ :

بَعدَ هذا التَّصويرِ المُؤَثِّرِ البَليغِ لأحداثِ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَجَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى في هذِهِ الآياتِ النِّداءَ السّادِسَ والأخيرَ للمُؤْمِنينَ ، حَيْثُ أمَرَهُمْ بِالثَّباتِ في وَجْهِ أعْدائِهِم ، وَبِالمُداوَمَةِ عَلى ذِكْرِهِ وَطاعَتِهِ ، وَنَهاهُم عَنِ التَّنازُعِ والاخْتِلافِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ آمنوا باللهِ حَقَّ الإيمانِ ، إذا حارَبْتُمْ جَماعَةً مِنْ أعدائِكُم فاثْبُتوا لِقِتالِهِم ، وَأَغْلِظوا عَلَيْهِمْ في النِّزالِ ، وَلا تُوَلّوهُمُ الأدْبارَ ، وَداوِموا عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، لا سِيَّما في مَواطِنِ الحَرْبِ ، فإنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعالى مِنْ أعظَمِ وَسائِلِ النَّصْرِ ، لأنَّ المُؤْمِنَ مَتى اسْتَحضَرَ عَظَمَةَ اللهِ تَعالى في قَلبِهِ لا تُخيفُهُ قُوةُ عَدُوِّهِ ، وَلا كَثْرَتُهُ . والثَّباتُ وَذِكْرُ اللهِ تَعالى مِنْ وَسائِلِ الفَلاحِ والظَّفَرِ ، وأنْتُم أيُّها المُؤْمِنونَ مَتى فَعَلتُم ذلكَ عَنْ إخْلاصٍ رَجَوْتُمُ الظَّفَرَ بِمُرادِكُم مِنَ النَّصْرِ وَحُسْنِ الثَّوابِ ، وفي هذا الفَلاحُ المُبينُ .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

كونوا أيُّها المُؤمِنونَ ثابتينَ وَمُستَمِرّينَ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى وَطاعَتِهِ عِندَ لِقاءِ الأعْداءِ ، وَلا تَنازَعوا وَتَختَلِفوا وَتَختَصِموا ، فإنَّ ذلكَ يُؤَدّي بِكُم إلى الفَشَلِ والضَّعْفِ ، وإلى ذَهابِ دَولَتِكُمْ ، وَهُوانِ كَلِمَتِكُمْ وَظُهورِ عَدُوِّكُم عَلَيْكُمْ . وَذَهابُ الرِّيحِ اسْتِعارَةٌ لِذَهابِ الدَّوْلَةِ ، والرِّيحُ اسْتِعارَةٌ لِلدَّولَةِ لِشَبَهِها بِها في نُفوذِ أمْرِها وَتَمشِّيهِ ، وَمِنْ كَلامِ العَرَبِ في هذا : هَبَّتْ رِياحُ فُلانٍ إذا دالَتْ لَهُ الدَّولَةُ ، وَجَرى أمْرُهُ عَلى ما يُريدُ ، وَرَكَدَتْ رياحُهُ إذا أدْبَرَ أمْرُهُ وَخَفَتَ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أيْ : اصْبَروا عَلى شَدائِدِ الحَرْبِ وَمُخالَفَةِ أَهْوائِكُم الّتي تَحملُكُم عَلى التَّنازُعِ ، فانَّ اللهَ تَعالى مَعَ الصّابِرينَ بِتأْييدِهِ وَمَعونَتِهِ وَنَصْرِهِ .

والمُتأمِّلُ في هاتَينِ الآيَتَيْنِ يَجدُ أنَّهُما رَسَمَتا لِلمُؤمِنينَ طَريقَ الفَلاحِ والنَّصْرِ ، وَمِنْهُما تَعليمُ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ آدابَ اللِّقاءِ مَعَ العَدُوِّ ، وَطَريقَ الشَّجاعَةِ ، وَفيما يَلي بَيانٌ لِذلكَ :

١ـ الأمْرُ بِالثَّباتِ ، لأنَّهُ مِنْ أعْظَمِ وَسائِلِ النَّجاحِ ، ولأنَّ الثَّباتَ يَعني تَرْكَ اليَأْسِ والتَّراجُعِ .

٢ـ الأمْرُ بالمُداوَمَةِ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، لأنَّ ذلكَ يُمَثِّلُ الصِّلَةَ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ ، وَمَتى كانَ الحَبْلُ مَشدوداً إلى اللهِ تَعالى هانَتْ عِندَ العَبْدِ كُلُّ الشَّدائِدِ .

٣ـ الأمْرُ بطاعَةِ اللهِ وَرَسولِهِ ، لأنَّ ذلِكَ هُوَ الّذي يُمَيِّزُ المُؤْمِنينَ عَنْ غَيْرِهِم .

٤ـ الأمْرُ بِالصَّبْرِ ، والصَّبْرُ أَمَلُ السّائِرينَ عَلى أيِّ دَرْبٍ .

٥ـ الأَمْرُ بِعَدمِ التَنّازُعِ ، لأنَّ التَّنازُعَ أَقْصَرُ الطّرُقِ إلى الفَشَلِ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

هذا نَهْيٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ المُؤْمِنينَ عَنْ التَّشَبُّهِ بِالكافِرينَ ، لأنّ ذلكَ مَدعاةٌ لِسُخْطِ اللهِ تَعالى ، وَلِلهَزيمَةِ والفَشَلِ . يَقولُ تَعالى لَهُم : لا تَكونوا كأولئِكَ الّذينَ خَرَجوا مِنْ دِيارِهِم مَغرورينَ بِما لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَنِعمَةٍ ، مُفاخِرينَ وَمُتَظاهِرينَ بِهما أمامَ النّاسِ ، يُريدونَ الثَّناءَ عَلَيْهِم بِالشَّجاعَةِ والغَلَبَةِ ، وَهُمْ بِذلِكَ يَصُدّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى وَعَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، واللهُ تَعالى مُحيطٌ بِأعمالِهِم عِلْماً وَقُدْرَةً ، وَسَوفَ يُجازيهِم عَلَيْها في الدُّنيا والآخِرَةِ .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى دَوْرَ الشَّيطانِ في إغْواءِ الكافِرينَ واسْتِمرارِهِم عَلى فَسادِ طَريقَتِهِمْ ، مُحَذِّراً المُؤْمِنينَ مِن هذا الإغْواءِ ، يَقولُ تَعالى لِعبادِهِ مُذَكِّراً ومُحَذِّراً : واذكُروا أيُّها المُؤْمِنونَ حينما حَسَّنَ الشَّيْطانُ لِهؤُلاءِ المُشْرِكينَ أعمالَهُمْ وأوهَمَهُمْ بأنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ حَليفاً لَهمْ ، قائِلاً لَهُم : إنَّهُ لَنْ يَستَطيعَ أحَدٌ مِنَ النّاسِ أنْ يَغلِبَكُم ، وَيُؤَكِّدُ لَهُم أنَّهُ ناصِرُهُم وَمُعينُهُم ، فَلَمّا تَقابَلَ الفَريقانِ في الحَربِ بَطُلَ إيهامُهُ وَوَلّى هارِباً ، مُتَبَرِّئاً مِنَ المُشْرِكينَ مُعلِناً فيهِم أنَّهُ يَرى ما لَمْ يَروْهُ مِن دَعائِمِ نَصْرِ اللهِ تَعالى لِلمُؤْمِنينَ ، المُتَمَثِّلِ في إمدادِهِم بِالمَلائِكَةِ ، وَمُعْلِناً كذلِكَ خَوْفَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ، مُبيِّناً أنَّ اللهَ تَعالى شَديدُ العِقابِ لِمَن كَفَرَ بِاللهِ وَحارَبَ أَهْلَ دينِهِ .

وَفي أمْرِ هذا التَّزيينِ يَقولُ الشَّهيدُ سَيِّد قُطب رَحِمَهُ اللهُ تَعالى : وَفي هذا الحادِثِ نَصٌ قُرآنِيٌّ يَثْبُتُ مِنهُ أنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ لِلمُشرِكينَ أعمالَهُم ، وَشَجَّعَهمْ عَلى الخُروجِ بإعلانِ إجارَتِهِ لَهُم وَنُصْرَتِهِ إيّاهُم ، وأنَّهُ بَعدَ أنْ رأى ما رأى هَرَبَ وَخَذَلَ المُشْرِكينَ تارِكاً إيّاهُم يُلاقونَ مَصيرَهُم وَحْدَهُم ، وَلَم يوفِ بِعَهدِهِ مَعَهُم . وَلكِنَّنا لا نَعلَمُ الكَيفِيَّةَ الّتي زَيَّنَ بِها أعمالَهُم ، والّتي قالَ لَهُم بِها : لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وأنّي جارٌ لَكُم ، والّتي نَكَصَ بِها كَذلِكَ ، وَقالَ ما قالَهُ بَعدَ ذلِكَ . الكَيْفِيَّةُ فَقَط هِيَ الّتي لا نَجْزِمُ بِها ، ذلِكَ أَنَّ أمْرَ الشَّيْطانِ كُلُّهُ غَيبٌ ، وَلا سَبيلَ لَنا إلى الجَزْمِ بِشَيءٍ في أمْرِهِ إلاّ

في حُدودِ النَّصِّ الكَريمِ . والنَّصُّ هُنا لا يَذكُرُ الكَيْفيَّةَ إنَّما يُثبِتُ الحادِثَ[1] .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيَةِ تَذكيرٌ للرَّسولِ ﷺ وَللمُؤْمنينَ ببَعضِ صَنائعِ المُنافِقينَ وَمَرْضى القُلوبِ ، يَقولُ تَعالى : اذْكُر أَيُّها الرَّسولُ حينَما يَقولُ المُنافِقونَ مِنَ الكُفّارِ وَضُعفاءُ الإيمانِ عِندَ رُؤيَتِكُم في إقدامِكُم وَثَباتِكُم : غرَّ هؤُلاءِ المُسلمينَ دينُهُم . ثُمَّ يَلتَفِتُ الخِطابُ مُقرِّراً حَقيقَةً واضِحةً أَنَّ مَنْ وَكَّلَ أمرَهُ إلى اللهِ تَعالى مُؤمِناً بِهِ مُعتَمِداً عَليْهِ ، فإنَّ اللهَ تَعالى يَكفيهِ ما أَهَمَّهُ ، وَينصُرُهُ عَلى أعدائِهِ ، لأنَّ اللهَ تَعالى لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، ولا يفوتُهُ هارِبٌ ، أحسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ذِكْرُ اللهِ تَعالى يُؤَدِّي إلى تَثْبيتِ المُؤْمنينَ .

٢ـ الثَّباتُ والصَّبْرُ في القِتالِ مِنْ دَعائِمِ النَّصرِ .

٣ـ التَّحذيرُ مِنَ المُنازَعاتِ والمُخاصَماتِ المُؤَدِّيَةِ لِلفَشَلِ .

٤ـ وِحْدَةُ الصَّفِّ المُسْلِم مِنْ أَهَمِّ دَعائِمِ بُنيانِهِ .

٥ـ تحذيرُ المُؤْمنينَ مِنْ مُشابَهَةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ وَمرضى القُلوبِ والسَّيرِ عَلى طَريقِهِم .

٦ـ بَيانُ ما لِلشَّيطانِ مِن دَوْرٍ في الإفسادِ والتَّغريرِ ، والتحذيرُ مِنهُ .

٧ـ تحذيرُ المُؤْمنينَ مِن خَلخَلةِ صُفوفِهِمْ بِاختِلاطِهِمْ بِمَنْ يَقودُهُم إلى الفَسادِ والهَلاكِ .

٨ـ ضَرورَةُ الحِفاظِ عَلى نَقاءِ الصَّفِّ المُؤْمِنِ .

---

(١) في ظِلال القرآن الكَريم ، ص ١٥٣١ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

تَذهَبَ ريحُكُم ، جارٌ لَكُم ، نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ ، الّذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ .

٢ـ ما هِي مُقَوِّماتُ النَّصْرِ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ لِما تَقولُ .

٣ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَنْ مُشابَهَةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ والّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ ؟

٤ـ بَيِّنْ أثَرَ المُنازَعاتِ والمُخاصَماتِ في إضْعافِ الصَّفِّ المُسْلِمِ .

٥ـ ماذا تَستفيدُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿وأطيعوا اللهَ وَرَسولَهُ ولا تَنازَعوا﴾ .

ب ـ ﴿واصْبِروا﴾ .

ج ـ ﴿فلمَّا تَراءتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ﴾

٦ـ ماذا تَفهَمُ مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿وتذهبَ ريحُكُم﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى صَحيحِ الإمامِ مُسلِمٍ ، ودَوِّنْ في دَفْتَرِكَ أَوْصافَ المُنافِقينَ المَذكورَةَ في الأَحاديثِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني عَشَرَ

سورةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كدأْبِ : كَعادَةِ .

آلِ فِرعَونَ : هُم شيعَتُهُ وَمُناصِروهُ .

التَّفسيرُ :

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ أحوالِ المُشْركينَ في حَياتِهِمُ ، انتقَلَ لِبيانِ بَعضِ أحوالِهِمْ عِندَ مَماتِهِم ، لِيَكونَ في بَيانِ كِلا الحالَتينِ رَدْعٌ وَزَجْرٌ لِلسّامِعينَ كيلا يَسلُكوا مَسالِكَهُم ، فَقالَ تَعالى مُخاطِباً رَسولَهُ ﷺ وكلَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلخِطابِ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ .

وَلَو تَرى أيُّها الرَّسولُ أو المُخاطَبُ ذلِكَ الهَوْلَ الخَطيرَ الّذي يَنزِلُ بِهؤُلاءِ الكُفّارِ حينَ تَتَوفّاهُمُ

المَلائِكَةُ ، فَينزِعونَ أرواحَهُم ، وَهُم يَضرِبونَهُم مِن أمامٍ وَمِنْ خَلْفٍ ، ويَقولونَ لَهُم : ذوقوا عَذابَ الحَريقِ بِسببِ أفعالِكُمُ السَّيئَةِ . وَجَوابُ الشَّرطِ (لَو) مَحذوفٌ ، لِتذهبَ النَّفسُ في تَقديرِهِ كُلَّ مَذهبٍ ، وَمِمّا يُقَدَّرُ جَواباً لـ (لَو) تَرى ذلِكَ لَرَأيتَ هَوْلاً مُفزِعاً وَبَلاءً عَجيباً ، وإنَّما أُسْنِدَ الضَّرْبُ لِلوُجوهِ والأَدْبارِ ، لأنَّ ذلِكَ أشَدُّ ما يَكونُ مِنَ الذُّلِّ والخِزْيِ ، عِياذاً بِاللهِ تَعالى .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

هذا بَيانٌ لِلأسبابِ الّتي أدَّتْ بِهِم إلى هذا المَصيرِ السَّيِّيءِ ، وأنَّهُمْ هُمُ الّذينَ جَنَوْا عَلى أنفُسِهِم بِفَسادِ صَنيعِهِم ، واتِّباعِهِم لِلهَوى والشَّيطانِ .

ذلِكَ الّذي نَزَلَ بِكُم أيُّها الكافِرونَ مِنَ الضَّرْبِ وَعذابِ الإحراقِ سَبَبُهُ ما قَدَّمَتْهُ أيْديكُم مِن عَمَلٍ سَيِّيءٍ ، وَفِعْلٍ قَبيحٍ ، وَقَولٍ مُنكَرٍ ، وَجُحودٍ لِلحَقِّ ، وأنَّ اللهَ تَعالى لَيسَ بِذي ظُلْمٍ لَكُم وَلا لِغَيْرِكُمْ ، لأنَّ حِكْمَتَهُ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ أنْ لا يُعذِّبَ أحَداً إلاّ بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارتَكَبَهُ .

وَصيغَةُ التَّعبيرِ بِـ (ظَلاّمٍ) مَنفيَّةً ، لا تَعني أنَّهُ نَفى المُبالَغَةَ في الظُّلمِ ، وإنَّما المُرادُ نَفيُ أصلِ الظُّلمِ ، وَصيغَةُ المُبالَغَةِ لِتُناسِبَ كَثْرَةَ المَنفيِّ عَنهُم ، وَبِهذا يَظهَرُ أنَّ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ قَد بَيَّنَتا حالَ المُشْرِكينَ عِندَ قَبضِ أرواحِهِم ، بَياناً يَحمِلُ النُّفوسَ عَلى الإيمانِ والطّاعَةِ للهِ تَعالى ، الّذي ما ظَلَمَهُمْ ، ولكِنَّهُمْ هُم الّذينَ أَحَلّوا بِأنْفُسِهِم هذا المَصيرَ المُؤلِمَ المُهينَ ، حَيثُ كَفروا بِالحَقِّ ، وَحارَبوا أتباعَهُ ، واستَحَبّوا العَمى عَلى الهُدى .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ حالَ هؤُلاءِ في الكُفْرِ وَعادَتَهُم فيهِ كَعادَةِ مَن سَبَقَهُم مِنَ الأُممِ الظّالِمَةِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

إنَّ عادَةَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ وَشأنَهُم في الكُفْرِ ، كَشَأْنِ الفَراعِنَةِ وَسائِرِ العُتاةِ مِنْ قَبلِهِم ، جُحوداً مِنهُم بِآياتِ اللهِ تَعالى ، فَعذَّبَهُم اللهُ تَعالى عَلى ذُنوبِهِم ، وَهُوَ غَيْرُ ظالِمٍ لَهُم ، إنَّ اللهَ تَعالى قَويٌّ في تَنفيذِ حُكْمِهِ شَديدُ المجازاةِ لِمَن يَستَحِقُّ عِقابَهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ سُنَّةً مِن سُنَنِهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

ذلِكَ الّذي نَزَلَ بِهؤُلاءِ الكُفّارِ مِنَ التَّعذيبِ والخِذلانِ عَدْلٌ إلهيٌّ ، فَقد جَرَتْ سُنَّتُهُ سُبْحانَهُ في خَلْقِهِ ، واقتَضَتْ حِكْمَتُهُ في حُكْمِهِ أنْ لا يُبدِّلَ نِعمَةً بِنِقمَةٍ إلاّ بِسَبَبِ ارتِكابِ الذُّنوبِ واجتِراحِ

السَّيِّئاتِ ، فإذا لَمْ يَتَلَقَّ النّاسُ نِعمَةَ اللهِ تَعالى بالشُّكرِ والطّاعَةِ ، وَقابَلوها بالكُفرِ والعِصيانِ ، بَدَّلَ اللهُ تَعالى نِعْمَتَهُ عَلَيْهِم بِنِقْمَتِهِ مِنهُم جَزاءً وِفاقاً .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

هذهِ الآيَةُ يَعدُّها كَثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ تكراراً للآيَةِ السّابقَةِ عَلى سَبيلِ التَّأكيدِ والتَّوبيخِ ، والصَّحيحُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى ـ أَنَّ الآيَتَيْنِ لا تِكرارَ فيهما ، ذلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَكَرَ في الآيَةِ الأولى عُقوبَتَهُ إيّاهُمْ عِندَ المَوتِ في البِشارَةِ الّتي أَتَتهُم بِعذابِ الحَريقِ ، وأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فَعلَ بِهِم ذلِكَ كَما فَعَلَهُ بآلِ فِرعَوْنَ وَمَن كانَ قَبْلَهُم مِنَ الكُفّارِ .

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى في الآيَةِ الثّانِيَةِ ما يَفْعَلُهُ بِهِم مِن شِدَّةِ عِقابِهِ بَعدَ المَوتِ كَما فَعلَهُ بآلِ فِرعَوْنَ وَمَن كانَ قَبلَهُم مِنَ الكُفّارِ .

وَيُمكِنُ أن يُجابَ عَلى الآيَتَيْنِ بِجوابٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعالى أخبَرَ في الآيَةِ الأولى عَمّا عاقَبَهُم بِهِ مِنَ العَذابِ الّذي لَم يَملِكِ النّاسُ إيقاعَهُ . وَلَم يُمَكِّنْ بَعضَهُم أَنْ يَفعلَ بِبَعضٍ مِثلَهُ ، وَهُوَ ضَرْبُ المَلائِكَةِ وُجوهَهُم وأدبارَهُم عِندَ نَزْعِ أرواحِهِم ، وإخبارِهِم إيّاهُم بِمَصيرِهِم في عَذابٍ يَحرِقُهُم .

وَفي الآيَةِ الثّانِيَةِ أخبرَ تَعالى عَمّا أنزَلَهُ بِهِم مِنَ العَذابِ الّذي مَكَّنَ النّاسَ مِنْ فِعْلِ مِثلِهِ وَهُوَ الإهلاكُ والإغراقُ ، لأنَّ ذلِكَ مِمّا أقدَرَ اللهُ تَعالى العِبادَ عَلَيْهِ ، فالعَذابُ الأَوَّلُ مِنْ أحكامِ الآخِرَةِ بَعدَ ظُهورِ أشراطِ السّاعَةِ ، وأَمّا الثّاني فَمِنْ أحكامِ عَذابِ الدُّنيا ، واللهُ تَعالى أعلَمُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شِدَّةُ ما يُلاقيهِ الكُفّارُ مِنَ العَذابِ سَواءٌ أكانَ في الدُّنيا أم في الآخِرَةِ .

٢ـ مِنَ القَواعِدِ الدِّينيَّةِ القاطِعَةِ نَفيُ الظُّلمِ عَنِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى .

٣ـ بَيانُ بَعضِ أحوالِ المُهْلَكينَ مِمَّنْ سَبَقَ هذهِ الأمَّةَ .

٤ـ الأمَمُ لا تَسقُطُ وَلا تَفنى وَتَهلِكُ ، ولا يُمحى اسمُها مِن لَوحِ الوُجودِ إلاّ بِسبَبِ تَنَكُّبِها صِراطَ اللهِ المُستقيمَ ، واتِّباعِها شَهواتِها ، وَظُهورِ الفَسادِ مِنْها .

٥ـ بقاءُ الأُمَمِ وَنَماؤُها يكونُ في التَّحلّي بالفَضائِلِ ، وَجَعْلِ هَلاكِها وَدَمارِها في التَّخلّي عَنها .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا خُصَّتِ الوُجوهُ والأَدْبارُ في بَيانِ ضَربِ المَلائِكَةِ لِلكافِرينَ ؟

٢ـ بيِّنْ سُنَّةَ اللهِ تَعالى الّتي يُمْكِنُ فَهْمُها مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهِمْ﴾ .

٣ـ لِمَ المُبالَغَةُ في نَفيِ الظُّلْمِ عَنِ اللهِ تَعالى في قولِهِ : ﴿وما اللهُ بظلّامٍ للعبيدِ﴾ ؟

٤ـ ما العِبرَةُ الّتي تَستَنبِطُها مِن بَيانِ اللهِ تَعالى لِمَصارعِ المُهْلَكينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجعْ إلى سورَةِ الفَجرِ ثُمَّ اقرأها بِتَدَبُّرٍ ، وَدَوِّنْ في دَفْتَرِكَ حالاتِ مَصارِعِ تلكَ الأُمَمِ البائِدَةِ الّتي ذُكِرَت في تِلكَ السُّورَةِ .

❊ ❊ ❊

الدَّرْسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الثَّالِثَ عَشَرَ

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الدَّوابِّ	: ما يَدُبُّ على وَجهِ الأرضِ ، وَقَد غَلَبَ استِعمالُهُ في البَهائِمِ ، وَيُستَعْمَلُ في غَيْرِها على وَجهِ الاسْتِعارَةِ .
تَثْقَفَنَّهُم	: الثَّقْفُ : الحِذْقُ في إدراكِ الشَّيءِ وَفِعْلِهِ ، وَهُوَ هُنا يَدُلُّ على إدْراكِهِم مَعَ التَّمَكُّنِ مِنهُم والظُّهورِ عَلَيْهِمْ .
فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ	: نَكِّلْ بِهِم تَنكيلاً يَكونُ سَبباً لِفِرارِ مَنْ وَراءَهُم مِنَ الأعداءِ .
فانبُذْ إِلَيْهِم	: أَعْلِمْهُم بِأَنَّهُ لا عَهدَ لَهُم بَعدَ اليَومِ .

التَّفسيرُ :

بَعدَ أن أوضَحَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ أحوالِ المُهلَكينَ مِنْ شِرارِ الكَفَرةِ ، شَرَعَ في بَيانِ أحوالِ فِئَةٍ أُخرى جَمعَتْ مَعَ الكُفرِ مَعصيَةً هِيَ الغَدرُ وَنَقضُ العَهدِ . وآياتُ هذا الدَّرسِ مُقَسَّمَةٌ إلى أقسامٍ ثَلاثَةٍ :

القِسْمُ الأوَّلُ : وَيَشتَمِلُ عَلى ثَلاثِ آياتٍ جاءَتْ بَياناً لِحالِ هذا الفَريقِ المُعَيَّنِ مِنَ الكُفّارِ الّذينَ عادَوْا النَّبيَّ ﷺ وَقاتَلوهُ ، وَهُمُ اليَهودُ .

القِسْمُ الثّاني : وَيَشْتَمِلُ عَلى آيَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ في حُكْمِ أمثالِ هؤُلاءِ الخَوَنَةِ نَقَضَةِ العُهودِ .

القِسْمُ الثّالثُ : وَيَشْتَمِلُ كَذلِكَ عَلى آيَةٍ واحِدَةٍ جاءَتْ في تَهديدِ هؤُلاءِ الخَوَنَةِ ، وَحِمايَةِ الرَّسولِ ﷺ مِن عاقِبَةِ كَيْدِهِم .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

إنَّ شَرَّ ما يَدُبُّ على الأرْضِ في حُكْمِ اللهِ تَعالى وقضائِهِ همُ الّذينَ كفروا ؛ أي الّذينَ أصرّوا عَلى الكُفْرِ واستَمَرّوا عَلَيْهِ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هُنا بالدَّوابِّ لِلإشْعارِ بِأَنَّهُم لَيْسوا مِنْ شِرارِ البَشَرِ فَقط ، بَل هُم أضَلُّ مِن عَجماواتِ الدَّوابِّ ، لأنَّ لِهذِهِ العَجماواتِ مَنافعُ لِلنّاسِ وَلَيْسَ مِنْ وَراءِ الكُفّارِ إلاّ المَضارُّ والمَفاسِدُ ، وفي هذا مِنَ التَّوبيخِ لِهؤلاءِ ما لَو استَعمَلوا عُقولَهُم معهُ لَرَجَعوا إلى رَبِّهِم ، كَما فيهِ تَحذيرٌ لِلسّامِعينَ أنْ يَصيروا بِمثلِ هذِهِ الحالَةِ .

هؤُلاءِ المَوصوفونَ بِهذِهِ الأوصافِ لِغلَبَةِ الكُفْرِ عَلَيْهِم ، وَلِتَغَلْغُلِهِم فيهِ باتوا غَيْرَ مُؤْمِنينَ .

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

إنَّ شَرَّ الدّوابِّ هؤُلاءِ الكُفّارُ الّذينَ أخَذْتَ مِنهُم عُهودَهُم وَعاهَدتَهُم ، إلاّ أنَّهُم نَقَضوا عُهودَهُم باسْتِمْرارٍ ، فَلَمْ يَلتَزِموا بِها وَلَو مَرَّةً واحِدَةً ، فَحالُ هؤُلاءِ أنَّهُم دأَبوا عَلى نَقْضِ العُهودِ والمَواثيقِ في كُلِّ وَقتٍ ، وَمَع ذلِكَ فإنَّهُم لا يَشعُرونَ خِلالَ نَقضِهِم لِلعُهودِ والمَواثيقِ بِأيِّ تَحرُّجٍ أو خَجَلٍ ، بَل يَرتَكِبونَ ما يَرتَكِبونَ مِنَ المُنكَراتِ دونَ أن يَتَّقوا عارَها ، أو يَخشَوْا سوءَ عاقِبَتِها .

وهذا البَيانُ الإلهِيُّ فيهِ تَعريفٌ لِلمُؤْمنينَ أوّلِهِمْ وآخِرِهِمْ بِاليَهودِ ، وَكَيفَ يَتعامَلونَ مَعَ المُسلِمينَ ، وأَنَّ عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَرجِعوا إلى هذا البَيانِ الإلهِيِّ البَليغِ لِيَعرِفوا أينَ يَسيرونَ .

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

إنَّكَ يا مُحَمَّدُ إذا ما أدركتَ هؤلاءِ الكافِرينَ النّاقِضينَ لِعُهودِهِمْ وَظَفِرْتَ بِهِم ، فافعَلْ بِهِم فِعْلاً مِنَ التَّنكيلِ والقَتلِ يَتَفرَّقُ مَعَهُ جَمْعُ كُلِّ ناقِضٍ لِلعَهْدِ ، وَيفزَعُ مِنهُ كُلُّ مَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ في الكُفرِ وَنَقضِ العُهودِ وَيعتَبِرُ بِهِ كُلُّ مَن سَمِعَهُ .

وَقولُهُ تَعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أيْ لَعلَّ أولئِكَ المُشَرَّدينَ يَتَّعِظونَ بِهذا التَّنكيلِ والقَتْلِ الّذي نَزَلَ بِهؤلاءِ النّاقِضينَ لِعُهودِهِمْ في كُلِّ مرَّةٍ ، فَيمنَعُهُمْ ذلِكَ عَن نَقضِ العَهْدِ .

وهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تُرشِدُ المُؤْمِنينَ إلى وُجوبِ أخْذِ المُستَمِرّينَ عَلى الكُفْرِ والعِنادِ وَنَقْضِ العُهودِ أخْذاً شَديداً رادِعاً ، حَتّى يَبقى لِلمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ أمانُهُ ، واستِقرارُهُ ، وَهَيبَتُهُ أمامَ أعدائِهِ .

إنَّ الآيَةَ الكَريمةَ تَرسُمُ صورَةً بَديعةً لِلأَخْذِ المُفْزِعِ ، والهَوْلِ المُرعِبِ الّذي يَكفي السَّماعُ بِهِ لِلهَرَبِ والشُّرودِ ، فَما بالُ مَنْ يَحِلُّ بِهِ هذا الأَخْذُ الشَّديدُ ؟ إنَّها الضَّربَةُ المُرَوِّعَةُ الموجِعَةُ ، يَأمُرُ اللهُ

تَعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يُنزلَها عَلى رأسِ كُلِّ مُستَحِقٍّ لَها بِسبَبِ كُفرِهِ وَتَلاعُبِهِ بِالعُهودِ ، وَبِذلِكَ تَبقى لِدينِ اللهِ هَيْبَتُهُ وَسَطْوَتُهُ .

هذا هُوَ حُكْمُ المُصِرّينَ عَلى كُفرِهِم النّاقِضينَ لِعُهودِهِم ، أمّا الّذينَ تَخشى مِنهُمُ الخِيانَةَ فَقد بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَهُم بِقَولِهِ :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

وإمّا تعلَمَنَّ يا مُحَمَّدُ ﷺ مِن قَومٍ بَينَكَ وَبَينَهُم عَهْدٌ أنَّهُم قارَبوا عَلى نَقضِ عَهدِهِم خِيانَةً مِنهُم ، وذلِكَ بِأماراتٍ وعَلاماتٍ تَلوحُ لَكَ تَدُلُّكَ عَلى غَدْرِهِم وَخِيانَتِهِم ، فاطْرَحْ إلَيهِم عَهدَهُم عَلى طَريقٍ مُستَوٍ ظاهِرٍ ، بِأنْ تُعلِمَهُم بِأنَّكَ قَد قَطَعتَ عَهْدَهُم قَبلَ أنْ تُحارِبَهُمْ ، حَتّى تَكونَ أنتَ وَهُم في العِلْمِ بِقَطْعِ العَهدِ سَواءً ، لأنّ اللهَ تَعالى لا يُحبُّ الخائِنينَ ، وأنَّ مِن مَظاهِرِ الخِيانَةِ الّتي يَبْغُضُها اللهُ تَعالى أنْ يُحارِبَ أَحَدُ المُتَعاهِدينَ الآخَرَ دونَ أن يُعلِمَهُ بِإنهاءِ عَهدِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ أنَّ الكافِرينَ لَن يُنجوا مِنْ عِقابِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

ولا يَظُنُّ الّذينَ كَفَروا أنَّهُمْ سَبَقوا وَنَجَوْا مِنْ عاقِبَةِ خِيانَتِهِم وَغَدْرِهِم ، إنَّهُم لا يُعجِزونَ اللهَ تَعالى عَنِ الإحاطَةِ بِهِم ، بَلْ هُوَ القادِرُ وَحْدَهُ ، وَسَيَجزيهِم بِقُوَّتِهِ وَعَدلِهِ . وَفي هذِهِ الآيَةِ قَطْعُ أطماعِ الكافِرينَ في النَّجاةِ ، وإقْناطُهُمْ مِنَ الخَلاصِ ، فَكَأنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَقولُ لَهمُ : إنَّ مَنْ لَم يُصِبْهُ عَذابُ الدُّنيا ، فَسَوفَ يُصيبُهُ عَذابُ الآخِرَةِ ، وَلا مَفَرَّ مِنْ ذلِكَ ما دامَ استَحَبَّ الكُفرَ عَلى الإيمانِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بَيانُ حالِ اليَهودِ المُستَمِرِّ والدّائِمِ في خِيانَتِهِم لِلمُسلِمينَ وَنَقضِهِم عُهودَهُم مَعَهُم .

٢ـ التَّحذيرُ مِنْ نَقضِ العُهودِ والمَواثيقِ .

٣ـ يَجبُ التَّنكيلُ بِمَنْ يَنقُضُ عَهْدَهُ مِنَ الكافِرينَ ، حتّى يَخافَ غَيرُهُ مِنْ هذا التَّنكيلِ فَلا يَنقُضُ عَهدَهُ .

٤ـ لا بُدَّ مِن إحاطَةِ الدّينِ بِقُوَّةٍ تَمنَعُ عَدُوَّهُ مِنَ انتِقاصِهِ والتَّهوينِ مِن شأنِهِ وشَأْنِ المُؤْمنينَ .

٥ـ وُجوبُ كَونِ المُؤْمنينَ عَلى حَذَرٍ دائِمٍ مِن أعدائِهِمْ .

٦ـ خِيانَةُ العَهدِ وَنَقضُهُ مِمّا يَبْغُضُهُ اللهُ تَعالى حتّى وَلَو كانَ مَعَ الأعداءِ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

الدّوابِّ ، يَنقُضونَ عَهدَهُم ، تَثْقَفَنَّهُم في الحَربِ ، فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ .

٢ـ اشتَمَلتِ الآياتُ الكَريمةُ عَلى ثَلاثَةِ مَوْضوعاتٍ ، بيِّنْها .

٣ـ بيِّنْ أحوالَ اليَهودِ المَذكورَةَ في هذِهِ الآياتِ .

٤ـ قال تَعالى : ﴿فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشرِّدْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لعلَّهُمْ يَذكَّرونَ﴾ .

أـ ما الغايَةُ المَقْصودَةُ مِن هذا التَّشريدِ ؟

ب ـ علامَ يعودُ الضَّميرُ في قولِهِ ﴿لَعَلَّهُم﴾ ؟

ج ـ ما الحُكْمُ المُسْتَنْبَطُ مِن هذِهِ الآيَةِ ؟

اقرأْ وتدبَّرْ:

أخرَجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والتِّرمِذيُّ عَن سُلَيمِ بنِ عامِرٍ قالَ : كانَ مُعاويَةُ يَسيرُ في أرضِ الرُّوم ، وَكانَ بَيْنَهُ وَبينَهُم عَهْدٌ ، فأرادَ أنْ يَدنوَ مِنهُم ، فإذا انقَضى أمَدُ العَهدِ غَزاهُم ، فإذا شَيخٌ عَلى دابَّةٍ يَقولُ : (مَن كانَ بَينَهُ وَبيْنَ قَومٍ عَهْدٌ فَلا يَحُلَّنَّ عُقدَةً وَلا يَشُدَّها حَتَّى يَنقَضِيَ أمَدُها أو يَنبُذَ إلَيهِم عَلى سَواءٍ) قالَ : فَبلغَ ذلِكَ مُعاوِيَةَ فَرجَعَ »[1] .

نَشاطٌ :

ـ تَدُلُّ الآيَةُ الكَريمَةُ (٥٨) عَلى رَحمَةِ اللهِ تَعالى بِالنّاسِ ، اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٤/ ١١١ وأبو داود في الجهاد حديث : ٢٧٥١ عون المعبود : ٣/ ٣٨ طبع الهند والترمذي في باب ما جاء في الغدر حديث رقم : ١٦٢٩ تحفة الأحوذي ٥/ ٢٠٣ طبع دار الفكر .

الدَّرْسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عَشَرَ

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ
بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **رِباطِ الخَيلِ** : الرِّباطُ : الشَّدُّ ، والمَقصودُ الخَيلُ الّتي تُرْبَطُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .
- **آخَرينَ مِنْ دونِهِمْ** : أعداءً مِنْ غَيرِ المَعروفينَ لَكُم مِثْلَ : المُنافِقينَ .
- **جَنَحوا لِلسَّلْمِ** : مالوا لِلسَّلْمِ .

التَّفْسيرُ :

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أحوالَ الكافِرينَ الّذينَ عادوا اللهَ ورَسولَهُ ، وبَيَّنَ جَزاءَهُم ومَصيرَهُم ، وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى خِطابَهُ لِلمُؤْمنينَ آمِراً إيّاهُم بإعدادِ وَسائلِ القُوَّةِ الّتي يَصِلونَ بِها إلى النَّصْرِ ، وإلى بَثِّ الرُّعبِ في قُلوبِ أعدائِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وأَعِدُّوا يا مَعْشَرَ المُسلِمينَ لِمُواجَهَةِ أعدائِكُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ حَربيَّةٍ شامِلَةٍ لِجَميعِ عَتادِ القِتالِ ، وَمِنَ المُرابِطينَ في الثُّغور وأطرافِ البلادِ بِخَيْلِهِمْ وآلاتِهِم لِتُخيفوا بِهذا الأعداءَ ، وَهذا الرِّباطُ يُرهِبُ عَدُوَّ اللهِ تعالى وَعَدُوَّكُم مِنَ الكُفّارِ المُتَرَبِّصينَ بِكُمُ الدَّوائِرَ وَتُخيفونَ بِهِ آخَرينَ لا تَعلَمونَهمُ الآنَ ، واللهُ تَعالى يَعلَمُهُم ، لأنَّهُ لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ .

وهؤُلاءِ الّذينَ يَعلَمُهُمُ اللهُ وَحْدَهُ والمُؤْمِنونَ لا يَعلَمونَهُم ، الأظهَرُ واللهُ أعلَمُ أنَّهُمُ المُنافِقونَ ، لأنَّ مِن عادَتِهِم أن يَتَرَبَّصوا ظُهورَ الآفاتِ والمِحَنِ ، وَيَحْتالوا بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ في إلقاءِ الإفسادِ والتَّفريقِ بَينَ المُسلِمينَ ، فإذا شاهَدوا المُسلِمينَ وَقَد ظَهَرَتْ قُوَّتُهُم خافوهُم وَتَرَكوا الأفعالَ المَذمومَةَ هذِهِ ، وَيشهَدُ لِهذا التَّفسيرِ وأَنَّ المُرادَ بِهِمُ المُنافِقونَ قَولُ اللهِ تَعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

ثُمَّ حَضَّ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَلى الإنفاقِ ، مُخْبِراً إيّاهُمْ أنَّ ما يُنفِقونَهُ مِن شَيءٍ قَلَّ أو كَثُرَ في وُجوهِ الخَيْرِ الّتي مِنْ أعْلاها الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ ، فإنَّ عِوَضَهُ واصِلٌ إليهِمْ في الدُّنيا ، وَكَذا أَجْرُهُ في الآخِرَةِ ، وأنَّهُم لا يُنقَصونَ مِن ذاكَ العِوَضِ والأجرِ شَيئاً .

ومِمّا يُسْتَنْبَطُ مِنْ هذِهِ الآيَةِ مِنَ الأَحكامِ :

١ ـ وُجوبُ إعدادِ القُوَّةِ الحَربيَّةِ لِلدِّفاعِ عَنِ الدِّينِ وَعَنِ الوَطَنِ وَعَنْ كُلِّ ما يَجِبُ الدِّفاعُ عَنهُ .

٢ ـ وُجوبُ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَخُصوصاً في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

قالَ القاسِميُّ رَحِمَهُ اللهُ : دَلَّتْ هذِهِ الآيَةُ عَلى وُجوبِ إعدادِ القُوَّةِ الحَربيَّةِ اتِّقاءَ بَأسِ العَدُوِّ وَهُجومِهِ ، وَلَمّا عَمِلَ الأُمَراءُ بِمُقتَضى هذِهِ الآيَةِ أيّامَ حَضارَةِ الإسلامِ ، كانَ الإسلامُ عَزيزاً عَظيماً ، أمّا اليَومَ فَقَدْ تَرَكَ المُسلِمونَ العَمَلَ بِهذِهِ الآيَةِ الكَريمةِ ، ومالوا إلى النَّعيمِ والتَّرَفِ ، فأهْمَلوا فَرْضاً مِنْ فروضِ الكفايةِ ، فأصْبَحَ المُسلِمونَ جَميعاً آثِمينَ بِتَرْكِ هذا الفَرْضِ .

ولِهذا تُعاني الأُمَّةُ مِن غُصَّتِهِ ما تُعاني ، وَكَيفَ لا يَطمَعُ العَدُوُّ في بلادِ الإسلامِ وَهِيَ لا يُرى فيها مَعامِلُ لِلأسلِحَةِ ، وذَخائِرِ الحَربِ ، بَل كُلُّها مِمّا يُشتَرى مِن بِلادِ العَدُوِّ ؟ أما آنَ لِهذِهِ الأمَّةِ أنْ تَتَنَبَّهَ مِنْ غَفلَتِها ، فَتُعِدُّ العُدَّةَ الّتي أمَرَ اللهُ تَعالى بِها لأعدائِها ، وَتَتَلافى ما فَرَّطَتْ بِهِ قَبلَ أنْ يُداهِمَ العَدُوُّ ما بَقِيَ مِنها بِخَيْلِهِ وَرِجالِهِ . . . !![1]

---

(١) تفسير القاسمي الجزء الثامن ، ص ٣٠٢٥ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ بِقَبولِ السِّلْمِ والمُصالَحَةِ إذا ما رَغِبَ أعداؤُهُ في ذلِكَ ، وكانَت ظَواهِرُهُم وأفعالُهُم تَدُلُّ عَلى صِدْقِ نَواياهُم ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ .

عَلَيْكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ أنْ تُنَكِّلَ في الحَربِ بِأُولئِكَ الكافِرينَ النّاقِضينَ لِعُهودِهِم في كُلِّ مَرَّةٍ ، وأَنْ تُهيِّيءَ ما استَطَعْتَ مِن قُوَّةٍ لإرْهابِهِم ، فإنْ مالوا بَعْدَ ذلِكَ إلى المُسالَمَةِ والمُصالَحَةِ فَوافِقْهُم ، وَمِلْ إليْهِم ما دامَتْ مَصلَحَتُكَ فيها ، وَفَوِّضْ أمْرَكَ إلى اللهِ تَعالى وَلا تَخشَ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ وَغَدْرَهُم ، فاللهُ تَعالى سَميعٌ لأقوالِهِم عَليمٌ بِأحوالِهِم ، يُجازيهِم بِما يَستَحِقّونَ وَيَرُدُّ كَيدَهُم إلى نُحورِهِم .

وَيُستَفادُ مِنْ هذِهِ الآيَةِ أمرانِ :

الأوّلُ : أنَّ البدءَ بِطَلَبِ السِّلْمِ يَنْبَغي أنْ يَكونَ مِنَ الأعداءِ الّذينَ حارَبونا لا مِنّا نَحنُ .

الثّاني : أنَّ الأُمَّةَ لها أنْ تَختارَ خَيارَ السَّلامِ إذا كانَتْ في مَنَعَةٍ وَقُوَّةٍ ، حتّى لا تُملى عَليْها شُروطٌ تُصَيِّرُها مِنَ المُسالِمَةِ إلى المُستَسلِمَةِ ، كَما رأينا وَشاهَدناهُ مِمّا لا يَرضى عَنهُ اللهُ تَعالى وَلا رَسولُهُ وَلا المُؤْمِنونَ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَمَّنَ رَسولَهُ ﷺ مِنْ خِداعِ أعدائِهِ إنْ هُم أرادوا خِيانَتَهُ ، وبيَّتوا لَهُ الغَدْرَ مِنْ وراءِ الجُنوحِ إلى السَّلامِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

وَإنْ يُرِدْ هؤُلاءِ الأعداءُ الّذينَ جَنحوا لِلسِّلْمِ في الظّاهِرِ أنْ يَخدَعوكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ لِتَكُفَّ عَنهُم حَتّى يَستَعِدُّوا لِمُقاتَلَتِكَ ، فَلا تُبالِ بِخِداعِهِم ، بَل صالِحْهُم مَعَ ذلِكَ إذا كانَ في الصُّلحِ مَصلَحَةٌ لِلإسلامِ وَأَهلِهِ ، وَلا تَخشَ مِنهُم ، فإنَّ اللهَ تَعالى كافيكَ بِنَصرِهِ وَمَعونَتِهِ ، فَهُو سُبْحانَهُ الّذي أَمَدَّكَ بِوَسائِلِ النَّصرِ ظاهِرِها وَخَفِيِّها ، وَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي أَيَّدَكَ بِالمُؤْمِنينَ الّذينَ هانَتْ عَليْهِم أنفُسُهُم وَأَموالُهُم في سَبيلِ إعزازِ هذا الدِّينِ وإعْلاءِ كَلِمَتِهِ .

فالآيَةُ الكَريمةُ تَشجيعٌ للنَّبيِّ ﷺ عَلى السَّيرِ في طَريقِ الصُّلْحِ ما دامَ فيهِ مَصلَحَةُ الإسلامِ وأَهلِهِ ، وَتَبشيرٌ لَهُ ﷺ بِأنَّ النَّصرَ سَيكونُ لَهُ حَتّى وَلَو أرادَ الأعداءُ بِإظهارِ المَيْلِ إلى السِّلْمِ المُخادَعَةَ والمُراوَغَةَ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ في كَيفِيَّةِ تأْييدِهِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ بِالمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

أي : إنَّ مِنْ مَظاهِرِ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أَنْ أَيَّدَكَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِنَصرِهِ ، وأَنْ أَيَّدَكَ بالمُؤْمنينَ بِأَنْ حَبَّبَ إليهِمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلوبِهِم ، وَجَعَلَ مِنهُم قُوَّةً مُوحَّدَةً ، فَساروا بِفَضلِهِ تَعالى كالنَّفْسِ الواحِدَةِ بَعْدَ أَنْ كانوا مُتَنازِعينَ مُتَفَرِّقينَ ، وأنتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ لَو أنفَقتَ ما في الأرضِ جَميعاً مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ وَغَيرِهِما ما استَطَعتَ أَنْ تُؤَلِّفَ بَينَهُم ، فَصاروا إخواناً مُتَحابّينَ مُتَصافينَ ، إنهُ سُبْحانَهُ غالِبٌ في مُلْكِهِ وسُلطانِهِ ، حَكيمٌ في كُلِّ أفعالِهِ .

وَخَيرُ مِثالٍ يَصْدقُ عَلى هذِهِ الآيَةِ ما كانَ بَيْنَ الأوسِ والخَزْرَجِ ، ثُمَّ بِأيّ حالٍ صاروا بَعْدَ أَنْ هَداهُم اللهُ إلى الإيمانِ ، فسُبْحانَ اللهِ تَعالى مُقَلِّبِ القُلوبِ!!!

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الإنفاقَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أمْرٌ مُهِمٌ لِبيانِ أثَرِ الإيمانِ في الأَنْفُسِ ، وَلأنَّهُ صورَةٌ مِن صُوَرِ التَّعاوُنِ والتّآزُرِ المَحمودَيْنِ .

٢ـ ضَرورَةُ الحَذَرِ مِمَّنْ يَتَربَّصونَ بِنا الدَّوائِرَ .

٣ـ إنَّ الحَقَّ لا بُدَّ لَهُ مِن قُوَّةٍ تَحميهِ .

٤ـ لا يَقومُ الدِّينُ قِياماً صَحيحاً ما لَم يَتَوَفَّرِ الأَمْنُ والطُّمَأْنينَةُ لأصحابِهِ .

٥ـ خُطورَةُ التَّواني والتَّكاسُلِ عَن إعدادِ العُدَّةِ لِلجهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٦ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى غايَةٌ عُظمى يَتَطَلَّعُ إلَيْها كُلُّ مُسلِمٍ ، لأنَّ نِهايَتَهُ إمّا الظَّفَرُ بِالمَطلوبِ ، وإمّا الشَّهادَةُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٧ـ لا يَجوزُ السَّلامُ مَعَ العَدُوِّ في حالِ ضَعفِ المُسلِمينَ وانهِزامِهِم ، إلاّ أنْ يُرادَ بِهِ هُدنَةً يَتَقوّى فيها المُسْلِمونَ لِيَكرّوا مَرَّةً ثانيةً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

رِباطِ الخَيلِ ، آخَرينَ مِن دونِهِمْ ، جَنحوا لِلسَّلْمِ ، أَيَّدَكَ بِنَصرِهِ ، أَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِهِم .

٢ـ بَيِّنْ وَجْهَ الرَّبطِ بَيْنَ قَولِهِ تَعالى ﴿وأعدّوا لَهُمْ . . . . ﴾ وما سَبَقَهُ .

أـ ما المُرادُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿وإنْ جَنحوا لِلسَّلْمِ فاجْنَح لها﴾ ؟

ب ـ بَيِّنِ الأَحْكامَ المُسْتَنبَطَةَ مِن هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ ، مُبَيِّناً مَتى يَجوزُ السَّلامُ مَعَ العَدُوِّ وَمَتى لا يَجوزُ .

٣ـ بَيِّن بِمِثالٍ تاريخِيٍّ أَثَرَ الإيمانِ في التّأليفِ بَيْنَ القُلوبِ المُتنازِعَةِ .

نَشاطٌ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ قَبيلتَيْ الأَوْسِ والخَزْرَجِ قَبلَ الإسلامِ وَبَعْدَهُ ، واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى المَعاجِمِ المُفهرسَةِ لألفاظِ القُرآنِ الكَريمِ ، واستَخرِجْ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ ثَلاثَ آياتٍ دالَّةٍ عَلى فَضْلِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، ثُمَّ دَوِّنْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسَ عشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى
ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَسْبُكَ : كافيكَ .

التَّفسيرُ :

وَتمضي السُّورَةُ الكَريمَةُ في بَثِّ الطُمأنينَةِ في قَلبِ النَّبيِّ ﷺ ، وَفي قُلوبِ أصحابِهِ ، فَبَيَّنَتْ لَهُم أنَّ اللهَ تَعالى كافيهِم وناصِرُهُم ، وأنَّ القِلَّةَ مِنْهُم تَغلِبُ الكَثْرَةَ مِنْ أعداءِ اللهِ تَعالى ، وأعدائِهِم ، فَقالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

يا أيُّها النَّبيُّ ﷺ كافيكَ اللهُ تَعالى وَكافي مُتَّبعيكَ مِنَ المُؤْمنينَ ، فَهُو سُبْحانَهُ ناصِرُكُم وَمُؤَيِّدُكُم عَلى أعدائِكُم ، وإنْ كَثُرَ عَدَدُهُم وَقَلَّ عَدَدُكُم ، وَما دامَ الأمرُ كذلِكَ فاعتَمِدوا عَليْهِ وَحْدَهُ ، وأطيعوهُ في السِّرِّ والعَلَنِ لِكَي يُديمَ عَلَيْكُمْ عَوْنَهُ وَتأييدَهُ وَنَصْرَهُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

هذا نِداءٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ يأمُرُهُ فيهِ بِحَثِّ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ، فيَقولُ له : يا أيُّها النَّبيُّ ﷺ بالِغْ في حَثِّ المُؤْمِنينَ وإحمائِهِم عَلى القِتالِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى ، ورَغِّبْهُم فيما وراءَهُ مِنْ خَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ لِتَقوى بذلِكَ نُفوسُهُم ، وأبلِغْهُم أنَّهُ إنْ يوجَدْ مِنكُم عِشرونَ مُعتَصِمونَ بالإيمانِ والصَّبرِ والطّاعَةِ ، يَغلِبوا مائَتَينِ مِنَ الّذينَ كفروا ، ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يُدرِكونَ حَقائِقَ الأُمورِ ، فَلَيْسَ لَهُم إيمانٌ ولا صَبْرٌ ولا مَطْمَعٌ في ثَوابٍ .

والآيَةُ الكَريمَةُ تَدلُّ عَلى أنَّ مِن شَأنِ المُؤْمِنينَ أنْ يَكونوا أعلَمَ مِنَ الكافِرينَ وأَفْقَهَ مِنهُم بِكُلِّ عِلْمٍ وفَنٍّ يَتَعلَّقُ بِحَياةِ البَشَرِ وارتِقاءِ الأُمَمِ ، وإنَّ حِرمانَ الكُفّارِ مِن هذا العِلْمِ ، هُوَ السَّبَبُ في كَونِ المِائَةِ مِنهُم دونَ العَشرَةِ مِنَ المُؤْمِنينَ الصّابِرينَ .

وَهكذا كانَ المُؤمِنونَ في قُرونِهِمُ الأُولى ، أمّا الآنَ فَقدْ أصْبَحَ المُسلِمونَ غافِلينَ عَنْ هذِهِ المَعانِيَ الجَليلَةِ العَظيمَةِ ، فَزالَ مَجدُهُم وعِزُّهُم ، وَدالَتْ دَولَتُهُم .

وَصاروا في ذَيلِ الأُمَمِ ، فإنْ يَرتَفِعوا إلى أمثالِ هذِهِ المَعانيَ والحِكَمِ يَرفَعُهُم اللهُ تَعالى .

ثُمَّ حَكى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ عَلى المُؤْمِنينَ ورَحمَتِهِ بِهِم ، فَقَدْ خَفَّفَ عَنهُم ما وَجَدوهُ مِنْ حَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ مِمّا جاءَ في الآيةِ السّابِقَةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

سَبَبُ النُّزولِ :

أخْرَجَ البُخاريُّ عَن ابنِ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قالَ : لَمّا نَزَلَت ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ شَقَّ ذلِكَ عَلى المُسلِمينَ حينَ فُرِضَ عَلَيهِم أنْ لا يَفِرَّ المائَةُ مِنَ الألْفِ ، فجاءَ التَّخفيفُ فَقالَ : « الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمُ وعَلِمَ أنَّ فيكُمْ ضَعْفاً فإنْ يَكُنْ مِنكُمْ مائةٌ صابرَةٌ يَغلِبوا مائتينِ » فقالَ : فلمّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُم مِنَ العِدَّةِ ، نَقَصَ مِنَ الصَّبرِ بَقَدْرِ ما خَفَّفَ عنهُم(١) .

لَقَدَ فَرَضْنا عَلَيْكُم أيُّها المُؤْمنونَ أوّلَ الأمرِ أنْ يَثبُتَ الواحِدُ مِنكُم أمامَ عَشَرَةٍ مِنَ الكافِرينَ ، والآنَ بَعْدَ أن شَقَّ عَلَيْكُمُ الاسْتِمرارُ عَلى ذلِكَ ، وَلَمْ تَبقَ هناكَ ضَرورَةٌ لِدَوامِ هذا الحُكمِ لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، شَرَعْنا لَكُمُ التَّخفيفَ رَحمةً بكُم ، ورِعايةً لأَحْوالِكُم ، فأَوْجَبْنا عَلَيْكُم أنْ يَثبُتَ الواحِدُ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم : ٤٦٥٣ .

مِنكُم أمامَ اثنَينِ مِن أعدائِكُم بَدَلاً مِنْ عَشَرَةٍ ، وَبَشَّرناكُم بِأنَّهُ إنْ يوجَدْ مِنكُم مائَةٌ صابِرَةٌ يَغلِبوا مائَتَينِ مِن أعدائِكُم ، وإنْ يوجَدْ مِنكُم ألفٌ يَغلِبوا ألفَيْنِ مِنهُم بإذنِ اللهِ وَتَيسيرِهِ وَتأييدِهِ ، ذلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى معَ الصّابرينَ بِتأييدِهِ وَرعايَتِهِ وَنَصْرِهِ ، فاحْرِصوا عَلى أنْ تَكونوا مِنَ المُؤْمنينَ الصّادِقينَ ، لِتَنالوا مِنهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يُسعِدُكُم في دُنياكُم وآخِرَتِكُم .

وَجُمهورُ المُفَسِّرينَ عَلى أنَّ حُكمَ الآيَةِ الأولى مَنسوخٌ بِما وَرَدَ في الآيَةِ الثّانِيَةِ ، وَمِنَ العُلَماءِ مَن يَرى غَيرَ ذلِكَ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أهَمِّيَّةُ العَقيدَةِ الرّاسِخَةِ والإيمانِ الثّابِتِ ، فَلَيسَ المُهِمُّ العُدَّةُ ، وإنَّما القُوَّةُ قُوَّةُ الرّوحِ المُقاتِلةِ وإيمانُ القلبِ .

٢ـ مَكانَةُ القائِدِ في المَعرَكةِ ؛ إذْ مِن واجِباتِهِ تَنظيمُ جُنودِهِ وَتَحريضُهُم عَلى القِتالِ .

٣ـ ضَرورَةُ الأخذِ بالأَسْبابِ عِندَ مُزاولةِ أيِّ عَمَلٍ .

٤ـ عِنايَةُ اللهِ تَعالى بِرَسولِهِ وَبالمُؤْمِنينَ مَعَهُ .

٥ـ الصَّبرُ مِن دَواعي النَّصْرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى : حَسبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ ؟

٢ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَولِهِ تَعالى : ﴿الآنَ خفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ .

٣ـ اذكُرْ ثَلاثَ عِبَرٍ مُستَفادَةٍ مِنْ هذِهِ الآياتِ .

٤ـ ما العَدَدُ الّذي يَحرُمُ أنْ يَفِرَّ المؤمِنُ مِنهُ ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟ .



حينَ أقبَلَ المُشْرِكونَ يَومَ بَدْرٍ في عَدَدَهِم وَعُدَدِهِم قامَ النَّبيُّ ﷺ يُحَرِّضُ أَصْحابَهُ عَلى القِتالِ فَقالَ : « قوموا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ ، فَقالَ عُمَيرُ بنُ الحمامِ : عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ ؟ فَقالَ رَسولُ الله ﷺ : نعَم ، فقالَ : بَخٍ بَخٍ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : ما يَحمِلُكَ عَلى قَولِكَ : بَخٍ بَخٍ ؟ قال : رَجاءَ أنْ أكونَ مِنْ أهْلِها ، قال رسولُ اللهِ ﷺ : فإنَّكَ مِنْ أهْلِها ، فَتَقدَّمَ الرَّجُلُ فكَسَرَ جَفنَ سَيفِهِ وأخرَجَ تَمراتٍ فَجَعلَ يأكُلُ مِنهُنَّ ، ثُمَّ ألقى بَقيَّتَهُنَّ مِن يَدِهِ وَقالَ : لَئِنْ حَييتُ حَتَّى آكُلَهُنَّ إنَّها لَحَياةٌ طَويلَةٌ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقاتلَ حَتّى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[1] .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ تَصَوُّرَكَ لِما كانَ عَلَيْهِ المُؤمِنونَ في صَدرِ الإسلامِ ، والعِشْرونَ لا يفرّونَ مِنَ المائتَيْنِ مِنَ الكافِرينَ .

* * *

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة حديث رقم : ١٩٠١ ، باب ثبوت الجنة للشهيد .

الدَّرْسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ
ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم
مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُثْخِنَ في الأرضِ : يُبالِغَ في قَتْلِ الأعداءِ .

عَرَضَ الدُّنيا : حُطامَها ، وَهُوَ هُنا : الفِداءُ الّذي أَخَذَهُ المُسلِمونَ مِن أَسْرى بَدْرٍ .

أَمْكَنَ مِنهُمْ : أَقْدَرَكَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ .

سَبَبُ النُّزولِ :

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : فَلَمّا أَسَروا الأُسارى قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ لأَبي بَكرٍ وَعُمَرَ : ما تَرونَ في هؤُلاءِ الأُسارى ؟ فَقالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : يا رَسولَ اللهِ هُم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ ، أَرى أَنْ تَأْخُذَ مِنهُم فِديَةً تَكونُ لنا قُوَّةً عَلى الكُفّارِ ، فَعَسى أَنْ يَهديَهُم اللهُ إلى الإسلامِ . فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : ما تَرى يا ابنَ الخَطّابِ ؟ قالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : قُلتُ : لا واللهِ يا رَسولَ اللهِ ما أَرى الّذي رأى أبو بَكْرٍ ، وَلكنْ أرى أنْ تُمَكِّنَنا فَنضرِبَ أعناقَهُم ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِن عَقيلٍ فَيَضرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنَني مِن فُلانٍ ـ قَريبٌ لِعُمَرَ ـ فَأَضرِبَ عُنُقَهُ ، حَتّى يَعلَمَ اللهُ أنْ لَيسَ في قُلوبِنا هَوادَةٌ للمُشرِكينَ ،

فإنَّ هؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَناديدُهُ ، فَهَوِيَ رَسولُ اللهِ ﷺ ما قالَهُ أبو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهْوَ ما قُلتُ . فَلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئتُ[1] فإذا رَسولُ اللهِ ﷺ وأبو بَكْرٍ يَبكِيانِ ، فَقُلتُ : يا رَسولَ اللهِ ﷺ أخبرْني مِنْ أيِّ شَيءٍ تَبكي أنتَ وَصاحِبُكَ ؟ فإنْ وَجدتُ بُكاءً بَكَيتُ ، وإنْ لَم أجدْ بُكاءً تَباكَيتُ لِبُكائِكُما ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : أبكي عَلى أصحابِكَ مِنْ أخْذِهِمُ الفِداءَ ، لَقَد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهُمْ أدنى مِن هذه الشَّجَرَةِ ـ الشَّجَرَةُ قَريبَةٌ مِنهُ ﷺ ـ وأنزَلَ اللهُ تَعالى : ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يكونَ لَهُ أَسْرى حتّى يُثْخِنَ في الأرضِ﴾[2] .

التَّفسيرُ :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ .

لا يَسوغُ لأحَدٍ مِنَ الأنبياءِ أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى يَحتَجزُهُم ، أو يأخُذُ مِنهُم الفِداءَ ، أو يَمُنُّ عَلَيْهِم بالعَفوِ عَنهُم ، حتّى يَتَغَلَّبَ ، ويَظهَرَ عَلى أعدائِهِ وَيُثقِلَهُم بالجراحِ ، فلا يَستَطيعونَ قِتالاً في الأرضِ ، وَلكنَّكُم يا جَماعَةَ المُسلِمينَ سارَعْتُمْ في غَزوَةِ بَدْرٍ إلى اتِّخاذِ الأسْرى قَبْلَ التَّمكُّنِ في الأرضِ ، تُريدونَ مَنافِعَ الدُّنيا واللهُ تَعالى يُريدُ لَكُم الآخِرَةَ بإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، وَعَدَمِ الالتِفاتِ إلى ما يَشغَلُكُم مِنْ مَتاعِ الدُّنيا ، واللهُ تَعالى قَوِيٌّ قادِرٌ غالِبٌ يُدَبِّرُ أُمورَكُم عَلى أحْسَنِ تَدبيرٍ .

وهذِهِ الآيَةُ الكَريمةُ تَعتِبُ عَلى المُؤمِنينَ لأنَّهُم آثَروا الفِداءَ عَلى القَتْلِ والإثْخانِ في الأرضِ ، وَذلكَ لأنَّ غَزوَةَ بَدْرٍ كانت أوَّلَ مَعرَكَةٍ حاسِمَةٍ بينَ الشِّرْكِ والإيمانِ ، وَكانَ المُسلِمونَ فيها قِلَّةً ، والمُشْرِكونَ كَثرَةً ، فَلَوْ أنَّ المُسلِمينَ آثَروا المُبالَغَةَ في إذلالِ المُشْرِكينَ أعدائِهِم عَن طَريقِ القَتْلِ لَكانَ ذلكَ أدعى لِكَسرِ شَوكَةِ الشِّرْكِ وأهلِهِ ، وأظهَرَ في إذلالِ قُرَيشٍ وَحُلَفائِها ، وأصْرَحَ في بَيانِ أنَّ العَمَلَ عَلى إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى عِندَ المُؤمِنينَ فَوقَ مُتَعِ الحَياةِ الدُّنيا وأعْراضِها ، وأنَّهُم لا يُوادّونَ مَنْ حارَبَ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِ .

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ .

لَولا حُكْمٌ مِنَ اللهِ تَعالى سَبَقَ مِنهُ في الأزَلِ أنْ لا يُعَذِّبَ المُخطِيءَ عَلى اجتِهادِهِ ، أو أنْ لا يُعذِّبَ قَوماً قَبلَ تَقديمِ البَيانِ إليهِم ، لَولا كُلُّ ذلِكَ لأصابَكُم بِسبَبِ ما أخَذتُمْ مِنَ الفِداءِ قَبلَ أن تُؤمَروا بِهِ عَذابٌ عَظيمٌ ، لا يُقَدَّرُ قَدرُهُ في شِدَّتِهِ وألمِهِ .

---

(١) القائل : هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ١٣٨٣ حديث رقم : ١٧٦٣ .

ثُمَّ وَجَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ إلى ما يَنبَغي أنْ يَكونَ عَلَيْهِ أمرُهُم في هذا الشّأْنِ مُستَقبَلاً ، فَقالَ تَعالى :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

فاكتَفوا بِما تَغْنَمونَهُ ولا تُفادوا الأَسْرى إلى أنْ تُثخِنوا في الأرضِ . ثُمَّ حَثَّهُم عَلى تَقواهُ الّتي تَحولُ بَينَهُم وَبينَ الاهتِمامِ بأَعْراضِ الحياةِ الدُّنيا ، فَرَحمَةُ اللهِ تَعالى بابُها أوسَعُ الأبوابِ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُخبِرَ الأَسرى بِأنَّهُم إذا ما فَتَحوا قُلوبَهُم لِلحَقِّ واستَجابوا لَهُ ، فإنَّهُ سَيُعَوِّضُهُم عَمّا فَقَدوهُ خَيراً مِنهُ .

أمّا إذا استَمَرّوا في كُفرِهِم وَعِنادِهِم فإنّ الدّائِرَةَ سَتَدورُ عَلَيْهِم ، قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

يا أيُّها النَبيُّ ﷺ قُلْ لِلّذينَ تَحتَ تَصَرُّفِكُم مِنَ الأسرى الّذينَ أخَذتُمْ مِنهُمُ الفِداءَ لِتُطلِقوا سَراحَهُم ؛ إنْ يَعلَمِ اللهُ تَعالى في قُلوبِكُم إيماناً وَتَصديقاً وَعَزْماً عَلى اتِّباعِ الحَقِّ وَنَبذِ الكُفْرِ والعِنادِ ، إنْ يَعْلَمِ اللهُ تَعالى مِنكُم ذلِكَ ؛ يُخلِفْ لَكُم خَيراً مِمّا أخَذَهُ المُؤمِنونَ مِنكُم مِنَ الفِداءِ ، وَيَغفِرْ لَكُم ذُنوبَكُمْ ، فَهُو سُبْحانَهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ ، وَهُو سُبْحانَهُ رَحيمٌ بِهِم .

﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

وإن يُرِدْ هؤُلاءِ الأَسْرى نَقْضَ عُهودِهِم مَعَكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ والاستِمرارَ في محارَبَتِكَ وَمُعاداتِكَ ، فَلا تَهتَمَّ بِهِمْ وَلا تَجزَعْ مِنْ خِيانَتِهِمْ ، فَهُم قَد خانوا اللهَ تَعالى مِن قَبلِ هذِهِ الغَزوَةِ بِكُفرِهِم وَجُحودِهِم لِنِعَمِهِ ، فَكانَت نَتيجَةُ ذلِكَ أنْ أمكَنَكَ مِنهُم وأَظفَرَكَ بِهِم . وَسَيَنصُرُكَ عَلَيْهِم بَعْدَ ذلِكَ كَما نَصرَكَ عَلَيْهِم في بَدْرٍ ، واللهُ تَعالى عَليمٌ بِما يُسِرّونَهُ وَما يُعلِنونَهُ ، حَكيمٌ في تَدبيرِهِ وَصُنْعِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى يَجِبُ أنْ يَكونَ خالِصاً لِوَجهِهِ تَعالى ، وَمِنْ أجْلِ إعلاءِ كَلِمَتِهِ وَنُصْرَةِ دينِهِ .

٢ـ اسْتِبقاءُ الأَسْرى في أيدي المُسْلِمينَ لَيسَ لإذلالِهِمْ وَقَهرِهِمْ واسْتِغلالِهِمْ وإنَّما لإيقاظِ نورِ الحَقِّ في فِطرَتِهِم .

٣ـ لا يكونُ الإيمانُ صَحيحاً إلاّ إذا صاحَبَهُ التَّصديقُ والإذعانُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يُثْخِنَ في الأرضِ ، عَرَضَ الدُّنيا ، كِتابٌ مِنَ اللهِ ، أَمْكَنَ مِنْهُم .

٢ـ بَيِّنْ رأيَ كُلٍّ مِنْ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما في مَوضوعِ الأَسْرى يَومَ بَدْرٍ .

٣ـ بَيِّن كَيفَ يَدُلُّ سَبَبُ النُّزولِ عَلى تعميقِ الشُّورى بَيْنَ المُسلِمينَ .

٤ـ هاتِ دَليلاً مِنَ الآياتِ الكَريمةِ عَلى ما يَلي :

أ ـ لا يَجوزُ الأسْرُ قَبلَ الإثْخانِ في الأرضِ .

ب ـ حِلُّ الغَنائِمِ لِلْمُسلِمينَ .

ج ـ إذا ظَهَرَ الخَيرُ في قُلوبِ الأَسْرى لَدى المُسْلِمينَ عَوَّضَهُم اللهُ خَيراً في الدُّنيا والآخِرَةِ .

د ـ لابُدَّ وأنْ يَكونَ الجِهادُ خالِصاً للهِ تَعالى .

٥ـ بَيِّن أثَرَ الإثْخانِ في الأرضِ عَلى كُلٍّ مِنَ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ .

٦ـ بَيِّن سَبَبَ مُعاتَبَةِ اللهِ تَعالى لِلرَّسولِ ﷺ وَلِلمُؤْمنينَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفَ عامَلَ المُسلِمونَ أَسْرى بَدْرٍ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ السّابِعَ عَشَرَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ
أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ
ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ
كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الّذينَ آوَوْا وَنَصَروا : هُم أنْصارُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أهلِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .

اسْتَنْصَروكُم : طَلبوا نَصْرَكُم .

تَكُنْ فِتنَةٌ في الأرضِ : المُرادُ ضَعفُ الإيمانِ وَظُهورُ الكُفرِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ أحكامِ الأَسْرى ، خَتَمَ هذِهِ السّورَةَ الكَريمَةَ بِالحديثِ عَنْ علاقَةِ المُسلِمينَ بَعضِهِم بِبَعضٍ ، وَعَن علاقَتِهِم بِغَيرِهِم مِنَ الكُفّارِ ، وَعَنِ الأحكامِ المُنَظِّمَةِ لهذِهِ العَلاقاتِ .

وَقَد ذَكَرَت الآياتُ الكَريمَةُ التّاليةُ أنَّ المُؤْمِنينَ في العَهدِ النَّبَوِيِّ أَقْسامٌ أربَعَةٌ :

القِسْمُ الأَوّلُ : المُهاجِرونَ الأَوّلونُ أصحابُ الهِجرَةِ الأولى .

القِسْمُ الثّاني : الأنصارُ مِنْ أهلِ المَدينَةِ .

القِسْمُ الثّالِثُ : المُؤمنونَ الّذينَ لَم يُهاجِروا .

القِسْمُ الرّابِعُ : المُؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا بَعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ .

وَقَد فَصّلَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما يَكونُ عَليْهِ المُؤْمِنونَ كَما يَلي :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

إنَّ الّذينَ صَدَّقوا بِالحَقِّ وأذْعَنوا لِحُكْمِهِ ، وَهاجَروا مِن مَكَّةَ وَجاهَدوا بِأموالِهِم وأنْفُسِهِم ، والّذينَ آوَوْهُم في غُربَتِهِمْ ، وَنَصروا رَسولَ اللهِ ﷺ يُقاتِلونَ مَنْ قاتَلَهُ ، وَيُعادونَ مَنْ عاداهُ ، بَعضُهُم نُصَراءُ بعضٍ في تأييدِ الحقِّ وإعلاءِ كَلمةِ اللهِ تَعالى ، والّذينَ لَمْ يُهاجِروا لا يَثْبُتُ لَهُمْ شيءٌ مِنْ وِلايَةِ المُؤْمِنينَ وَنُصرَتِهِمْ ، إذْ لا سَبيلَ إلى وِلايَتِهِم حَتّى يُهاجِروا ، وإنْ طَلَبوا مِنكُمُ النَّصرَ عَلى مَنِ اضْطَهَدوهُم في الدِّينِ فانْصُروهُم ، فإنْ طَلَبوا النَّصْرَ عَلى قَومٍ مُعاهِدينَ لَكُم ، لَم يَنقُضوا الميثاقَ مَعَكُم ، فَلا تُجيبوهُم ، واللهُ بِما تَعملونَ بَصيرٌ ، لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ ، فَقِفوا عِندَ حُدودِ اللهِ لِئلا تَقَعوا في عَذابِهِ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

والّذينَ كَفروا بَعضُهُم أولياءُ بَعضٍ في النُّصْرَةِ والتَّعاوُنِ عَلى قِتالِكُم وإيذائِكُم أيُّها المُؤْمِنونَ ، فَهُم وإنِ اختَلَفوا فيما بَيْنَهُم إلاّ أنَّهُم يَتَّفِقونَ عَلى عَداوَتِكُم وإنزالِ الأَضْرارِ بِكُم .

ثُمَّ حَذَّرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ تَحذيراً شَديداً مِنْ مُخالَفَةِ أمْرِهِ ، قائِلاً لَهُم : إلاّ تَفْعَلوا أيُّها المُؤْمِنونَ ما أمَرتُكُم بِهِ مِنَ التَّناصُرِ والتَّواصُلِ وَتَوَلّي بَعْضِكُم بَعضاً ، تَكُنْ مَفسَدَةٌ شَديدةٌ في الأرضِ ، لأنَّكُم إذا لَم تَصيروا يَداً واحِدَةً عَلى الشِّرْكِ يَضعُفُ شَأْنُكُمْ ، وَتَذهَبُ ريحُكُم ، وَتُسفَكُ دِماؤُكُم ، وَيَتطاوَلُ أعداؤُكُم عَلَيْكُم ، وتَصيرونَ عاجزينَ عنِ الدِّفاعِ عَنْ دينِكُم وَعِرْضِكُم ، وَبِذلكَ تَعُمُّ الفِتنَةُ وَيَنْتَشِرُ الفَسادُ ، وَيَبقى الكُفْرُ مُسَيْطِراً .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

والّذينَ آمَنوا وَهاجَروا في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، والّذينَ آوَوْهُم وَنَصروا الحَقَّ وأعلَوْا كَلِمَةَ اللهِ

تَعالى ، هُمُ الصّادِقو الإيمانِ ، واللهُ تَعالى يَغفِرُ لَهُم ، ولَهُم رِزقٌ كَبيرٌ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَهذِهِ صِفَةُ المُهاجِرينَ والأنصارِ ، فازوا بالإيمانِ وَمَغفِرَةِ الذُّنوبِ ، رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

والّذينَ آمَنوا بَعْدَ الأوَّلينَ ؛ أيْ : بَعْدَ صُلحِ الحُدَيْبيَةِ وَقَبلَ الفَتحِ وَهاجَروا ، وَهِيَ الهِجرَةُ الثّانِيَةُ ، فأُولئِكَ مِنكُم يا جَماعَةَ المُهاجرينَ والأنصارِ ، لَهُم مِنَ الوِلايَةِ والحُقوقِ ما لِبَعضِكُم عَلى بَعضٍ ، وَذَوو الأرحامِ مِنَ المُؤْمِنينَ لَهُم مِنْ وِلايَةِ الإيمانِ والقَرابَةِ ، فَبَعْضُهُم أولى بِبَعضٍ في المَوَدَّةِ والمالِ والنُّصرَةِ والتّأييدِ ، وَقَدْ بيَّنَ اللهُ تَعالى ذلِكَ في كِتابِهِ ، وَهُو العَليمُ بِكُلِّ شَيءٍ .

وَهذِهِ الآياتُ وإنْ تَشابَهَتْ ألفاظُها فَلَيْسَ فيها تَكرارٌ ، ذلِكَ أنَّ الآيَةَ الأولى مِنها جاءَت لِبيانِ أنَّ رابِطَةَ الإسلامِ أقوى مِنْ رابِطَةِ النَّسَبِ ، وَجاءَتِ الثّانِيَةُ لِبَيانِ مَكانَتِهِم وأنَّهُم هُمُ المُؤْمِنونَ حَقّاً ، وجاءَتِ الثّالِثَةُ لِبيانِ أنَّ الّذينَ جاءوا بَعْدَهُم وآمَنوا بَعْدَ ظُهورِ الإسلامِ فأولئِكَ مِنْكُمْ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ رابِطَةُ العَقيدَةِ والدِّينِ هِيَ أَمْتَنُ الرَّوابِطِ .

٢ـ المُؤمِنونَ يَتناصَرونَ وَيَتعاوَنونَ فيما بَيْنَهُم .

٣ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى فيهِ رِفعَةٌ لِلمُسلِمينَ وإذلالٌ لِلمُشْرِكينَ .

٤ـ المُسلِمُ يَجتَهِدُ في إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وإعزازِ دينِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

أوَوْا وَنَصَروا ، أولياءُ بَعْضٍ ، فِتنَةٌ في الأرضِ .

٢ـ قَسَمَتِ الآياتُ الكَريمَةُ المُؤمِنينَ بِخُصوصِ المُوالاةِ إلى أقسامٍ عِدَّةٍ ، اذْكُرْها .

٣ـ بيِّنْ مِنْ هذهِ الآياتِ واجبَ المُسلِمِ تجاهَ أخيهِ المُسلِمِ .

٤ـ هاتِ دَليلاً عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ وِلايَةُ المُؤْمِنينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ .

ب ـ وِلايَةُ الكافِرينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ .

ج ـ وُقوعُ الفِتنَةِ بَينَ المُسلِمينَ إذا لَمْ يُوالِ بَعضُهُم بَعضاً وَيُعادوا الكافِرينَ .

دـ لا وِلايَةَ لِمُؤمِنٍ لَم يُهاجِرْ عَلى مُؤْمِنٍ مُهاجِرٍ .

٥ـ في الآياتِ الكَريمَةِ امتِداحٌ لِلمُهاجِرينَ والأنصارِ ، بيِّنْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ استَنتِج مِنَ الآيَةِ اهتِمامَ الإسلامِ بِالمُعاهِدينَ ، واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

فكِّرْ :

ـ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « لا هِجرَةَ بَعْدَ الفَتحِ . . . » ، كَيفَ تُوَفِّقُ بَينَ هذا الحَديثِ وما جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الأوَّلُ

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ
ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟
سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورَةُ التَّوْبةِ ، سورَةٌ مَدَنيَّةٌ ، وَهِيَ مِن آخِرِ ما نزَلَ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، نَزَلَتْ في العامِ التّاسعِ لِلهجرَةِ ، وآياتُها مائَةٌ وتِسعٌ وَعِشرونَ آيَةً .

وَقَد اشتَمَلَتْ عَلى مَوضوعاتٍ مُتَنوِّعَةٍ ، تُشَكِّلُ مَعَ ما في سورَةِ الأَنْفالِ صورَةً تاريخِيَّةً مُجمَلَةً لِدَعوَةِ النَّبيِّ ﷺ وَجِهادِهِ إلى أنْ أتَمَّ اللهُ تَعالى نِعمَةَ النَّصرِ .

وَمِن مَوضوعاتِها : إعلانُ القَطيعَةِ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ ، وَمِنها : بَيانُ بَعضِ العَلاقاتِ المَخصوصَةِ لِمَن كانَتْ لَهُم عُهودٌ مِنَ المُشْرِكينَ مَعَ المُسلِمينَ ، ومِنها : وُجوبُ قِتالِ اليَهودِ والنَّصارى حَتَّى يُعلِنوا الإذعانَ لِلدَّولَةِ الإسلامِيَّةِ ، وَمِنها : فَضحُ المُنافِقينَ وَكَشفُ أسرارِهِم وَحَماقاتِهِم ، وَمِنها : بَيانُ حُرمَةِ الأشهُرِ الحُرُمِ ، وَمِنها : وَصفُ حالَةِ الأعرابِ مِن

مُحْسِنٍ وَمُسيءٍ ، وَمُهاجِرٍ وَمُتَخَلِّفٍ ، وَمنها : التَّوبَةُ عَلى مَن تَخَلَّفوا مِنَ المُؤْمنينَ عَن غَزوَةِ تبوك .

وَمِن أسمائِها : بَراءَةٌ والتَّوبَةُ .

وحُذِفَتِ البَسمَلَةُ مِن أوَّلِها ، وَلَمْ يَثبُتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قِراءَةُ البَسمَلَةِ في أوَّلِها .

مَعاني المُفْرَداتِ :

بَراءَةٌ	: مَصدَرٌ ، مَعناهُ التَّباعُدُ عَن الشَّيءِ والتَّخَلُّصُ مِنهُ .
سِيحوا في الأرضِ	: سيروا فيها وَتَجَوَّلوا .
أَذانٌ	: إعلامٌ وإعلانٌ .
يَومَ الحَجِّ الأكبَرِ	: يومَ النَّحرِ ، يَومَ عيدِ الأضْحى .
يُظاهِروا عَلَيْكُم	: يُعينوا عَلَيْكُم .
انسَلَخَ الأشهُرُ الحُرُمُ	: اسْتِعارَةٌ مَعناها انقَضاءُ تِلكَ الأشْهُرِ .
احْصُروهُم	: مِنَ الحِصارِ ، وَهُوَ المَنْعُ ، والمُرادُ مَنعُهُمْ مِنَ الخُروجِ .
مَرْصَدٍ	: المَرْصَدُ هُوَ المَوْضِعُ الّذي يُقعَدُ فيهِ لِلعَدُوِّ لِمُراقَبَتِهِ .

التَّفسيرُ :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ ﴾

هذا إعلانٌ مِنَ اللهِ تَعالى وإعلامٌ بِأنَّهُ سُبْحانَهُ قَد قَطَعَ هُوَ وَرَسولُهُ ﷺ ما بَينَهُ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ مِنْ صِلاتٍ وَعلائِقَ ، فَلا عَهْدَ ولا تَعاهُدَ وَلا سِلْمَ وَلا أمانَ ، تَرَكَهُم تَعمَلُ فيهِم سُيوفُ المُؤْمِنينَ حَتَّى يُقَوِّموهُم أو يُبيدوهُم . فهذِهِ الآيَةُ تُقَرِّرُ حُكْماً تَكليفِيّاً لِلمُسلِمينَ في شَأْنِ مُعامَلَةِ المُشْرِكينَ ، وَضَرورةِ التَّخلّي عَمّا بَيْنَهُم وبَيْنَهُم .

﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ ﴾

لَكُمُ الأمانُ أيُّها المُشْرِكونَ مُدَّةَ أربَعَةِ أشهُرٍ ، مِن حينِ البَراءَةِ ، تَنتَقِلونَ فيها حَيْثُ شِئتُم ، واعْلَموا أنَّكُم حَيثُما كُنتُمْ خاضِعونَ لِسُلطانِ اللهِ تَعالى ، وأنتُم لا تُعجِزونَهُ ، وأنَّ اللهَ تَعالى كَتَبَ الخِزْيَ عَلى الّذينَ يَكفُرونَ بِهِ ويَجْحَدونَهُ .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ .

هذا بَلاغٌ مِنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ إلى النّاسِ عامَّةً ، في مُجتَمَعِهِم يَومَ عيدِ النَّحرِ ، أنَّ اللهَ تَعالى بَريءٌ وَرَسولَهُ بَريءٌ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ الخائِنينَ ، فيا أيُّها المُشْرِكونَ النّاقِضونَ لِلعَهدِ ، إذا رَجَعتُم عَنْ شِرْكِكُم وَآمَنتُم بِاللهِ تَعالى فإنَّ ذلِكَ خَيرٌ لَكُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، أمّا إنْ أعرَضتُم وبَقيتُم عَلى ما أنتمُ عَلَيْهِ ، فاعلَموا أنَّكُم خاضِعونَ لِسُلطانِ اللهِ تَعالى ، وَيا أيُّها الرَّسولُ أنذِرْ جَميعَ الكافِرينَ بِعذابٍ شَديدٍ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٤) ﴾ .

اعْلَموا أيُّها المُؤمِنونَ أنَّ بَراءَةَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ إنَّما كانَتْ بِسَبَبِ نَقْضِهِم لَها ، لَكِنَّ الّذينَ عاهَدتُموهُم وَلَم يَنقُضوا عُهودَهُم ، وَلَمْ يَنقُصوكُم شَيئاً مِن شُروطِ العَهدِ ، وَلَم يُعاوِنوا عَلَيْكُم أحَداً مِنَ الأعداءِ ، فَهؤُلاءِ أتِمّوا إليهِمْ عَهدَهُمْ إلى مُدَّتِهِم وَلا تُعامِلوهُم مُعامَلَةَ النّاكِثينَ .

فالآيَةُ الكَريمَةُ تَدُلُّ عَلى أنَّ المُرادَ بِالمُشْرِكينَ الّذينَ تَبَرّأَ اللهُ تَعالى وَرَسولُهُ مِنهُم ، وَأُعطوا مُهْلَةَ الأربَعَةِ أشهُرٍ ، هُم أولئِكَ الّذينَ عُرِفوا بِنَقضِ العُهودِ ، أمّا الّذينَ عاهَدوا وَوفّوا بِعُهودِهِم ، فإنَّ هؤُلاءِ يَجِبُ إتمامُ عَهدِهِم إلى مُدَّتِهِم ، وَفاءً بوفاءٍ ، وَكَرامَةً بكرامَةٍ .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) ﴾ .

فإذا انقَضَتْ مُدَّةُ الأمانِ الّتي مُنِحَتْ لِلكافِرينَ لِتَصويبِ أوضاعِهِم وَهِيَ أربَعَةُ أشْهُرٍ ، فاقْتُلوا المُشْرِكينَ النّاقِضينَ لِلعَهدِ في كُلِّ مَكانٍ وَخُذوهُم بِالشِّدَّةِ ، وَاضْرِبوا الحِصارَ عَلَيْهِم بِسَدِّ الطُّرُقِ ، واقْعُدوا لَهُم في كُلِّ سَبيلٍ ، فإنْ تابوا عَنِ الكُفْرِ ، والتَزَموا أحكامَ الإسلامِ بإقامَةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فَلا سَبيلَ لَكُم عَلَيْهِم لِدُخولِهِم في دينِ اللهِ تَعالى ، واللهُ تَعالى عَظيمُ المَغفِرَةِ لِمَن تابَ ، واسِعُ الرَّحمَةِ بعبادِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إعلانُ القَطيعَةِ مَعَ المُشْرِكينَ دَليلُ قُوَّةِ الإسلامِ .

٢ـ في الاسْتِمساكِ بِحَبلِ اللهِ تَعالى غَناءٌ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ .

٣ـ مَصلَحَةُ الإسلامِ والمُسلمينَ مُقَدَّمَةٌ عَلى سائر العَلائِقِ والمُعاهداتِ .

٤ـ الوَفاءُ بِالعَهدِ مَعَ مَنْ لَم يَنقُضْ عَهدَهُ واجِبٌ شَرْعِيٌّ .

٥ـ منَحَ الإسلامُ الفُرْصَةَ الكامِلَةَ لأَعدائِهِ كَي يُفكِّروا ، فَهُو لا يأخُذُهُم عَلى غِرَّةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

بَراءَةٌ ، فَسيحوا في الأرضِ ، أَذانٌ مِنَ اللهِ ، لَم يُظاهِروا عَلَيْكُم أحَداً ، انسَلَخَ الأشهُرُ .

٢ـ بَيِّنِ المُرادَ بالأشهُرِ الحُرُمِ في هذِهِ الآياتِ .

٣ـ بَيِّنْ سَبَبَ إعلانِ القَطيعَةِ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ .

٤ـ ما المُرادُ بِيَومِ الحَجِّ الأكبَرِ ؟

٥ـ ماذا عَلى المُسلِمينَ أنْ يَفعَلوا مَعَ مَنْ نَقَضَ عَهدَهُ مَعَهُم ؟

٦ـ ما السَّبَبُ في تَركِ البَسمَلَةِ أوَّلَ سورَةِ التَوْبَةِ ؟

٧ـ بَيِّن ثَلاثَةً مِنَ المَوضوعاتِ الّتي اشتَمَلَتْ عَلَيْها السّورَةُ .

٨ـ هاتِ اسْمَيْنِ لِهذه السّورَةِ مُبَيِّناً المَعانِيَ الّتي تَدُلُّ عَلَيْها هذِهِ الأسماءُ .

٩ـ ماذا تَفهَمُ مِن قَولِ اللهِ تَعالى : ﴿فإنْ تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فخلّوا سبيلَهُم﴾ ؟



١ـ كَيفَ تُوَفِّقُ بَينَ كَوْنِ البِشارَةِ لِما فيهِ خَيرٌ ، وَمَجيئِها في الآياتِ لِما فيهِ شَرٌّ ؟ اكتبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى كُتُبِ السِّيرَةِ أو التَّفسيرِ وَبَيِّنْ ما يَلي واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ :

أـ مَن كانَ أميرَ الحَجِّ عِندَ نُزولَ هذِهِ السُّورَةِ ؟

ب ـ مَن الّذي مَثَّلَ رَسولَ اللهِ في تَبليغِ النّاسِ ما جاءَ في السُّورَةِ ؟

ج ـ ما الأمورُ الّتي بُلِّغَتْ لِلنّاسِ يَومَ الحَجِّ الأكبَرِ في ذلِكَ العامِ ؟

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورَةُ التَّوْبةِ ـ القِسْمُ الثّاني

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَبْلُغَ مأمَنَهُ : حِمايَةُ المُستَجيرِ حَتّى يَجِدَ الأمانَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَ المُصِرِّينَ عَلى الشِّرْكِ ، وَهُو قِتالُهُم وأخْذُهُم ، وَحُكْمَ الرّاجِعينَ عَنهُ وَهُوَ إخلاءُ سَبيلِهِم ، بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَ المُشْرِكينَ الّذينَ يَطلُبونَ الأمانَ لِمَعرِفَةِ شَرائِعِ الإسلامِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

وإنِ استأمَنَكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ وَطَلبَ جِوارَكَ وَحِمايَتَكَ بَعْدَ انقِضاءِ مُدّةِ الأمانِ المُحَدَّدَةِ لَهُ فأمِّنْهُ وأجِبْهُ إلى طَلَبِهِ ، لِكَي يَسمَعَ كَلامَ اللهِ تَعالى وَيَتَدبَّرَهُ وَيَطَّلِعَ عَلى حَقيقةِ ما تَدعو إليهِ مِن تَعاليمَ مُقنِعَةٍ لِلعُقولِ السَّليمَةِ ، فإنْ آمَنَ بَعْدَ سَماعِهِ ما تُسمِعُهُ إيّاهُ مِنَ القُرآنِ صارَ مِن أتباعِكَ ، وَإنْ بَقِيَ عَلى شِرْكِهِ وأرادَ الرُّجوعَ إلى جَماعتِهِ ، فَعَلَيْكَ أنْ تُحافِظَ عَلَيْهِ حتّى يَصِلَ إلى مَكانِ أمْنِهِ واستِقْرارِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يُصبِحُ حُكْمُهُ حُكْمَ المُصِرِّ عَلى الشِّرْكِ وَيُعامَلُ بِما يُعامَلونَ بِهِ .

وكذلكَ إجارَةُ المُستَجيرِ مِنَ المُشْرِكينَ وإبلاغُهُ مأمَنَهُ إذا لَمْ يُسلِمْ ، ذلِكَ أنَّ هؤُلاءِ قَومٌ

لا يَعلَمونَ الإسلامَ ولا حَقيقةَ ما تَدعوهُم إليهِ .

إنَّ هؤلاءِ قَومٌ يَحتاجونَ إلى فَترَةٍ مِنَ الوَقتِ يَسْمَعونَ فيها كَلامَ اللهِ تَعالى وَهُم آمِنونَ ، وَبِهذا السَّماعِ مِنكَ وَمِنْ أصحابِكَ لا يَبقى لَهُم عُذرٌ في استِمرارِهِم عَلى الباطِلِ .

وَقَدِ اشتَمَلَتْ هذِهِ الآيَةُ عَلى مَجموعَةٍ مِنَ الأحكامِ والآدابِ مِنها :

أوّلاً : إنَّ المُستأمِنَ لا يُؤذى ، بَلْ يَجِبُ عَلى المُسلِمينَ حِمايَتُهُ في نَفْسِهِ ومالِهِ وعِرْضِهِ ما دامَ في دارِ الإسلامِ ، وَقَدْ حَذَّرَ الإسلامُ مِنَ الغَدْرِ أشَدَّ تَحذيرٍ ، قالَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسلامُ : « مَنْ أمَّنَ رَجُلاً عَلى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فأنا بَريءٌ مِنَ القاتِلِ وَإنْ كانَ المَقتولُ كافِراً » .

ثانياً : يَلحَقُ بِالمُستَجيرِ الطّالِبِ لِسماعِ كَلامِ اللهِ تَعالى ، مَنْ كانَ طالِباً لِلجَوابِ عَنِ الشُّبُهاتِ الّتي أثارَها أعداءُ الإسلامِ ، لأنَّ هؤُلاءِ وأمثالَهُمْ يَطرُقونَ بابَ الفَهْمِ والمَعرِفَةِ وَيَبحَثونَ عَنِ الحَقِّ ، فَعَلَيْنا أنْ نَحمِيَهُمْ ، وأنْ نَبْذُلَ أقصى الجُهودِ في تَعليمِهِم وإرشادِهِم وإزالَةِ الشُّبُهاتِ عَنهُم .

ثالِثاً : عَلى الإمامِ أو مَن يَقومُ مَقامَهُ أنْ يُعطِيَ المُستأمِنَ المُهلَةَ الّتي يَراها كافِيَةً لِفَهمِهِ حَقائِقَ الإسلامِ ، وأنْ يُبلِغَهُ مَأْمَنَهُ بَعْدَ انقِضاءِ حاجَتِهِ .

رابِعاً : وُجوبُ التَّفقُّهِ في الدِّينِ وَعَدمُ الاكتِفاءِ بِالظُّنونِ والتَّقليدِ لِلغَيْرِ .

خامِساً : إنَّ حَقَّ إعطاءِ الأمانِ إنَّما هُوَ لِلسُّلطانِ ، وَيلحَقُ بِهِ كُلُّ أمانٍ صَدَرَ مِن مُسلِمٍ حُرٍّ في بِلادِ الإسلامِ .

سادِساً : إنَّ هذِهِ الآيَةَ تَشهَدُ بِسُمُوِّ تَعاليمِ الإسلامِ وَسَماحَتِها وَحِرْصِها عَلى هِدايَةِ النّاسِ إلى الحَقِّ ، وَعلى صِيانَةِ دِمائِهِم وأموالِهِم وأعراضِهِم مِنَ العُدوانِ عَلَيْها ، حَتَّى وَلَو كانَ هؤُلاءِ النّاسُ مِن أعداءِ الإسلامِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ سَماحَةُ الإسلامِ وَعَدالَتُهُ وَرأفَتُهُ بِالنّاسِ .

٢ـ بابُ الهِدايَةِ مَفتوحٌ لَم يُغلَقْ دونَ أحَدٍ .

٣ـ الإسلامُ مَنهَجُ هِدايَةٍ لا مَنهَجَ إبادَةٍ .

٤ـ إباحَةُ تأمينِ المُشرِكِ حَتَّى يَسمَعَ كَلامَ اللهِ ، وَوجوبُ حِمايَتِهِ لَعَلَّ في ذلِكَ تَرقيقاً لِقلبِ الإنسانِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

استَجارَكَ ، مَأْمَنَهُ .

٢ـ ما سِرُّ قَبولِ استِجارَةِ المُشْرِكينَ ؟

٣ـ ماذا أوجَبَ اللهُ تَعالى عَلى المُؤْمنينَ بِقَولِهِ لِنَبيِّهم ﷺ (فَأَجِرْهُ) ؟

٤ـ هاتِ ثَلاثَةً مِنَ الأحكامِ المُستَنبَطَةِ مِن هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ .

* * *

الدَّرْسُ العِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن
يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ
أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَظْهَروا عَلَيْكُمْ	: تكونَ الغَلَبَةُ لَهُم عَلَيْكُم .
لا يَرْقُبوا فيكُم	: لا يُراعوا في شَأْنِكُم .
إلاًّ	: عَهْداً أو حِلْفاً أو قَرابَةً .
ذِمَّةً	: كُلَّ أَمْرٍ تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ بِحَيْثُ إذا ضَيَّعْتَهُ لَزِمَكَ الوَفاءُ بِهِ .
نَكَثوا أَيْمانَهُم	: نَقَضوا عُهودَهُم .

التَّفْسيرُ :

بَعْدَ أَنْ صَرَّحَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِبَراءَةِ اللهِ تَعالى وَبَراءَةِ رَسولِهِ ﷺ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ الخائِنينَ ، وَأَمَرَتِ المُؤْمِنينَ بِإِعْطائِهِم مُهلَةً يَسيحونَ فيها في الأَرْضِ وَيَتَدبَّرونَ خِلالَها أَمْرَهُم ،

وأباحَتْ بَعْدَ ذلِكَ لِلمُؤْمِنينَ أنْ يَقتُلوهُم حَيْثُ وَجَدوهُم ، وأنْ يَستَعمِلوا مَعهُم كُلَّ الوَسائِلِ المَشروعةِ لإذلالِهِم ، وَأنْ يُؤَمِّنوا المُشركَ الّذي يُريدُ أنْ يَسمَعَ كَلامَ اللهِ تَعالى ، وأنْ يُحافِظَ عَلَيْهِ حتّى يَصِلَ إلى مَكانِ استِقرارِهِ ، بَعْدَ ذلِكَ أخَذَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ في بَيانِ الأسبابِ الّتي أوجَبَتِ البَراءَةَ مِن عُهودِ المُشْركينَ ، والحِكَمِ الّتي مِن أجْلِها أمَرَ اللهُ تَعالى بِقِتالِهِم والتَّضييقِ عَلَيْهِم ، فقالَ تَعالى :

﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ ﴾ .

يَنبَغي أنْ لا يَكونَ لِلمُشركينَ عَهْدٌ عندَ اللهِ تعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ ، لأنَّ هؤُلاءِ المُشْركينَ لا يَدينونَ للهِ تَعالى بالعُبوديَّةِ وَلا لِرَسولِهِ ﷺ بالطّاعَةِ ؛ قَومٌ دأبُهُم الخِيانَةُ ، وَعادتُهُم الغَدرُ ، نَقَضَةُ عُهودٍ ، كَيفَ يَكونُ لِهؤُلاءِ عَهدٌ مُحتَرَمٌ ؟ لا تَأخُذوا أيُّها المُؤْمِنونَ بِعُهودِهِم ، لكِنَّ الّذينَ عاهَدتُمُوهُم مِنْ قَبائِلِ العَرَبِ عِندَ المَسجِدِ الحَرامِ واستَقاموا عَلى عُهودِهِم مَعَكُمْ وَلَم يَنقُضوها ، فاسْتَقيموا أنتُم عَلى عُهودِكُم مَعَهُم ما داموا كذلِكَ ، إنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ الطّائِعينَ لَهُ ، المُؤْمِنينَ بِعُهودِهِم .

﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ﴾ .

بِأيَّةِ صِفَةٍ يَكونُ لِهؤُلاءِ المُشْرِكينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ تَعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ ، والحالُ أنَّهُم إنْ غَلَبوكُم ـ أيُّها المُؤْمِنونَ ـ فَعلوا بِكُمُ الأفاعيلَ وَتَفنَّنوا في إيذائِكُم مِنْ غَيرِ أنْ يُقيموا وَزناً لِما بَيْنَكُم وَبَيْنَهُم مِنْ عُهودٍ وَمَواثيقَ وَقَراباتٍ وَصِلاتٍ ، أمّا إذا كانَتِ الغَلَبَةُ لَكُم فإنَّهُم في هذِهِ الحالَةِ يُعطونَكُم مِنَ ألسِنَتِهِم ، فهُم كَما وَصَفَهُم اللهُ تَعالى في مَوضِعٍ آخَرَ : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

وَهؤلاءِ أكثَرُهُم خارِجونَ عَن حُدودِ الحَقِّ ، مُنْفَصِلونَ عَن كُلِّ فَضيلَةٍ وَمَكْرُمَةٍ .

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ ﴾ .

هذا بَيانُ سَبَبِ كَوْنِ الغَدرِ دَيدَنُهُم ، والحِقدِ عَلى المُؤْمِنينَ دأبُهُم ، والمَعنى : إنَّ السَّبَبَ الّذي حَمَلَ هؤُلاءِ المُشْركينَ عَلى الغَدْرِ وَعلى الطُّغيانِ والفُجورِ عِندَ القُوَّةِ ، والمُداهَنَةِ والمُخادَعَةِ عِندَ الضَّعْفِ ، هُوَ أنَّهُمْ استَبدَلوا بِآياتِ اللهِ تَعالى المُتَضَمِّنَةِ لِلسَّعادَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ثَمناً قَليلاً ، وَعَرَضاً باهِتاً حَقيراً مِنْ أعراضِ الدُّنيا وَزَخارِفِها ، وَمَنَعوا النّاسَ عَنِ الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى ، إنَّ هؤُلاءِ قَبُحَ ما كانوا يَعمَلونَ ، فَلَيْسَ لَهُم عاقِبَةٌ إلاّ الخُسرانُ .

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

هذا بَيانٌ أنَّ هذا العِداءَ بما يَحمِلُ مِنَ الغَدرِ والخِيانَةِ مِن هؤُلاءِ لَيْسَ مُقتَصِراً عَلى المُؤْمِنينَ الّذينَ يَعيشونَ مَعَهُم ، وَإِنَّما هُوَ عِداءٌ وَخِيانَةٌ لِكُلِّ مُؤمِنٍ مَهْما تَباعَدَ عَنهُم ، فهؤُلاءِ المُشْرِكونَ لا يُراعونَ في أيِّ مُؤمِنٍ يَقدِرونَ عَلى الفَتْكِ بِهِ عَهْداً يُحَرِّمُ الغَدْرَ ، ولاَ قَرابَةً تَقْتَضي الوُدَّ وَلا ذِمَّةً توجِبُ الوَفاءَ ، خَشيَةَ الذَمِّ ، وإنَّما يُبيِّتونَ الحِقدَ والغَدْرَ والأذى لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِن غَيرِ أنْ يُقيموا لِلفَضائِلِ وَلِلعُقودِ وَزناً ، إنَّ هؤُلاءِ شأنُهُم الاعتِداءُ ، فَهُو مَرَضٌ مُلازِمٌ لِهُم .

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

هذا بَيانُ ما يَجِبُ أنْ يَفعَلَهُ المُؤْمِنونَ مَع أولئِكَ المُشْرِكينَ في حالَتَي إيمانِهِم أو بَقائِهِم عَلى الكُفْرِ ، وَذلِكَ بَعْدَ أنْ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السّابِقَةُ طَبيعَةَ هؤُلاءِ في تَعامُلِهِم مَعَ المُؤْمِنينَ ، وبيَّنَتِ الأَسبابَ الّتي جَعَلَتهُم بِمَعزِلٍ عَنِ الحَقِّ والخَيرِ .

فإنْ رَجَعوا عَنِ الكُفْرِ تائِبينَ ، وَتَرَكوا الرَّذائِلَ ، والمُنكَراتِ الّتي كانوا عَلَيْها والتَزَموا أحكامَ الإسلامِ بإقامَةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فَهُم إخوانُكُم في الدِّينِ ، لَهُم ما لَكُم وَعَلَيْهِمْ ما عَلَيكُم ، وَهذِهِ الأُخُوَّةُ تَجُبُّ ما قَبلَها مِنَ عَداواتٍ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ إنَّما يُبيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَنتَفِعونَ بِالعِلْمِ .

وفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِما يَجِبُ على المُؤْمِنينَ نَحوَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ إنْ تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ، أمّا إذا لَم يَتوبوا وأَصَرُّوا عَلى عُدوانِهِم ، فالواجِبُ عَلى المُؤْمِنينَ نَحوَهُم ما هُوَ مَذكورٌ تالِياً ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وإنْ نَقَضوا عُهودَهُم مِنْ بَعْدِ أنْ تَعاقَدوا مَعَكُم عَلى الوَفاءِ بِها ، واستَمرُّوا عَلى الطَّعْنِ في دينِكُمْ بِأَنْ عابوهُ وانتَقَصوهُ ، فَقاتِلوا رُؤَساءَ الضَّلالِ وَمَنْ مَعَهُم مِنَ المُشْرِكينَ ، بِعَزيمَةٍ صادِقَةٍ وَقُلوبٍ ثابِتَةٍ ، لأَنَّهُم قَومٌ لا عَهدَ لَهُم وَلا ذِمَّةَ ، وَلْيَكُنْ مَقصودُكُم مِنْ مُقاتَلَتِهِم ، بَعْدَ أنْ وُجِدَ مِنهُم ما وُجِدَ مِن إيذائِكُم ، الرَّجاءُ في هِدايَتِهِم ، والانتِهاءُ عَن كُفرِهِم وَخيانَتِهِم ، واحْذَروا أنْ يَكونَ مَقصِدُكُم مِن ذلِكَ العُدوانُ واتِّباعُ الهَوى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عِداءُ المُشْرِكينَ لِدينِ اللهِ تَعالى وَلِلمُسلِمينَ حَقيقَةٌ واقِعَةٌ وَلَيسَ خَيالاً مَوهوماً .

٢ـ الأُخُوَّةُ الإِسلامِيَّةُ بابٌ مَفتوحٌ لِكُلِّ مَن أقلَعَ عَنِ الشِّركِ وَتَرَكَ المُنكَراتِ وَدَخَلَ في دينِ اللهِ .

٣ـ العَهدُ المُعتَدُّ بِهِ في شَريعَةِ الإِسلامِ هُوَ عَهدُ الأوفِياءِ غَيرِ النّاكِثينَ ، فَمَنِ استقامَ عَلى عَهدِهِ عومِلَ بِمُقتَضى استِقامَتِهِ .

٤ـ الغَدرُ مُلازِمٌ لِلكافِرينَ في حالِ ضَعفِهِم وَقُوَّتِهِم .

٥ـ يَجِبُ عَلى المُسلِمينَ قِتالُ كُلِّ مَن نَقَضَ عَهدَهُ وَطَعَنَ في دينِ اللهِ تَعالى ، وَقِتالُهُم لا لِسَلبِ أموالِهِم بَل رَجاءَ هِدايَتِهِم .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّالِيَةِ :

يَظهَروا عَلَيْكُم ، إلاًّ ، ذِمَّةً ، نَكَثوا أيْمانَهُم .

٢ـ اربِط بَيْنَ آياتِ هذا الدَّرسِ والآياتِ الّتي وردتْ في الدّرسِ السّابِقِ .

٣ـ بَيِّنْ بِالأدِلَّةِ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ كَيفَ لا يَنبَغي لِلمُشرِكينَ عهدٌ عِندَ اللهِ تَعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ وَعِندَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ أوضَحتِ الآياتُ الكَريمةُ كَيفَ يَجِبُ أنْ يَتَعامَلَ المُسلِمونَ مَع عُهودِ الكافِرينَ ، بَيِّنْ ذلكَ .

٥ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يلي :

أـ وُجوبُ نَقضِ عُهودِ المُشْرِكينَ .

ب ـ الغَدرُ مُلازِمٌ لِلكافِرينَ .

ج ـ الأُخُوَّةُ الإسلامِيَّةُ بابٌ واسِعٌ .

دـ الالتزامُ بِالعَهدِ مِنَ التَّقوى .

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورةِ المُمْتَحَنةِ المشابِهَةَ للآيةِ (٩) .

٢ـ ما الفَرقُ بينَ الآيةِ (١٠) والآيةِ (٩)؟ اكتبْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ ارجعْ إلى كتابِ البدايَةِ والنِّهايةِ لابنِ كَثيرٍ ، وانظُر في حَوادثِ سنَةِ ٦٥٦هـ لِترى ما فَعَلَ الكُفّارُ بِالمُؤْمنينَ ، أو ارْجِعْ إلى تفسيرِ الظِّلالِ عِندَ تَفسيرِهِ لِهذِهِ الآياتِ لِترى ما فَعلَهُ الوَثَنيّونَ الهُنودُ مَع مُسلمي باكِستانَ ، وَما فَعلهُ الشيُوعِيّونَ في روسيا والصّينِ ، وغيرِها مَعَ المُسلِمينَ . واكتُب ذلِكَ وَعلِّقْهُ عَلى مَجلَّةِ الحائِطِ في مَدرَسَتِكَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي والعِشرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الرّابِعُ

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ
أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ
قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

غَيْظَ قُلوبِهِمْ : ما في قُلوبِهِمْ مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ وَكَرْبٍ .

وَليجَةً : بِطانَةً وَصاحِبَ سِرٍّ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ الأسْبابَ المُوجِبَةَ لِقتالِ المُشْرِكينَ ، شَرَعَتْ في تَحريضِ المُؤْمِنينَ عَلى مُهاجَمَتِهِم وَمُقاتَلَتِهِم بِأُسلوبٍ يُثيرُ الحَمِيَّةَ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ ، وَيَحمِلُ عَلى الإقدامِ وَعَدَمِ المُبالاةِ بالمُشْرِكينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ
أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

ذَكَرتِ الآيَةُ الكَريمَةُ ثَلاثَةَ أسبابٍ لِحَمْلِ المُؤْمِنينَ عَلى قِتالِ المُشْرِكينَ ، وَهِيَ :

أَوَّلاً : إنَّ المُشْرِكينَ نَقَضوا عُهودَهُم مِراراً .

ثانياً : إنَّ المُشْرِكينَ هَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ ﷺ مِن مَكَّةَ .

ثالثاً : إنَّ المُشْرِكينَ كانوا البادِئينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ .

وَالمَعنى : هلاَّ سارَعتُم أيُّها المُؤْمِنونَ إلى قِتالِ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ الّذينَ نَقَضوا عُهودَهُم مِراراً ، وَقدَ سَبَقَ أنْ هَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ ﷺ مِن مَكَّةَ وَأرادوا قَتْلَهُ ، وَهُمُ الّذينَ بَدَأوكُم بالإيذاءِ وَالعُدوانِ مِن أوَّلِ الأمرِ ، أتَخافونَهُم ؟ لا تَخافوهُم ، فاللهُ وَحْدَهُ أحَقُّ أنْ تخافوهُ إنْ كُنتُم صادِقينَ في إيمانِكُم .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أمْراً صَريحاً قاطِعاً بِمُقاتَلَةِ المُشْرِكينَ ، وَبَيَّنَ أنَّ هذِهِ المُقاتَلَةَ يَتَرَتَّبُ عَلَيها خَمْسٌ مِنَ الفَوائِدِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قاتِلوهُم أَيُّها المُؤْمِنونَ ، يُذِقْهُمُ اللهُ العَذابَ عَلى أيْديكُمْ وَيُذِلَّهُمْ ، وَينصُرْكُم عَلَيْهِم ، وَيشْفِ بَهَزيمَتِهِم وَإعلاءِ عِزَّةِ الإسلامِ ما كانَ من ألَمٍ كامِنٍ وَظاهِرٍ في صُدورِ قَومٍ مؤمنين طالَما لَحِقَهُم أذى الكُفَّار .

وَقَدِ اشتَمَلَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ عَلى أربعِ فَوائِدَ مِن قِتالِ المُشْرِكينَ نُجمِلُها فيما يَلي :

الأولى : إنَّ اللهَ تَعالى يُعذِّبُ المُشْرِكينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ لَهُم .

الثّانِيَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يُخْزي المُشْرِكينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ لَهُم .

الثّالِثَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يَنصُرُ المُؤْمِنينَ عَلى المُشْرِكينَ .

الرَّابِعَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يَشفي صُدورَ القَومِ المُؤْمِنينَ مِمّا لَحِقَهُم مِنْ أذى المُشْرِكينَ .

وَأما الفائِدَةُ الخامِسَةُ مِن قِتالِ المُؤْمِنينَ لِلمُشرِكينَ فَهِيَ المُبَيَّنَةُ في الآيَةِ التّالِيَةِ :

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَيَملأُ اللهُ تَعالى قُلوبَ المُؤْمِنينَ فَرَحاً بِالنَّصرِ بَعدَ الهَمِّ وَالخَوفِ ، وَيُذهِبُ عَنهُمُ الغَيْظَ ، وَيَقْبَلُ اللهُ تَعالى تَوبَةَ مَن يَشاءُ مِنهمُ ، وَاللهُ واسِعُ العِلْمِ بِشُؤونِ عِبادِهِ ، عَظيمُ الحِكمَةِ فيما يُشَرِّعُ لَهُمْ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِبيانِ شُمولِ قُدرَتِهِ وواسِعِ رَحمَتِهِ .

وَبَعدَ ذلِكَ خَتَم اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ الّتي حَرَّضَتِ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ أعظَمَ

تَحريضٍ ، بِبيانِ ما يُمتَحَنُ بِهِ المُؤْمِنونَ لِيظهَرَ صِدْقُ إيمانِهِم ، وَإخلاصِهِم لِلّهِ رَبِّ العالَمينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾ .

أمْ هُنا لِلاستِفهامِ الإنكاريِّ ، وَالمَعنى : أحَسِبتُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تُتْرَكوا دونَ أنْ تُؤمَروا بِقِتالِ المُشْرِكينَ ، وَالحالُ أنَّ اللهَ تَعالى لَم يُظهِرِ الّذينَ جاهَدوا مِنكُم بِإخلاصٍ ، وَلَم يَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ أعدائِكُمْ ، مِمَّنْ جاهَدوا مِنكُم مِنْ دونِ إخلاصٍ ؟ لا أيُّها المُؤْمِنونَ ، إنْ كُنتُم حَسِبتُم ذلِكَ فَهوُ حُسبانٌ باطِلٌ ، لأنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ أنْ يُمَيِّزَ المُخلِصُ في جِهادِهِ مِن غَيرِهِ ، وَأنْ يَجعَلَ مِنْ حِكَمِ مَشروعِيَّةِ الجِهادِ الامتِحانَ والتَّمحيصَ . قالَ بَعضُ العُلماءِ : إنَّ اللهَ تَعالى لَمّا شَرَعَ الجِهادَ لِعبادِهِ ، بَيَّنَ أنَّ لَهُ حِكْمَةً وَهِيَ اختِبارُ عَبيدِهِ ؛ مَنْ يُطيعُهُ مِمَّنْ يَعصيهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى العالِمُ بِما كانَ وَما يَكونُ .

وأمّا قَولُهُ تَعالى : ﴿وَاللهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ﴾ فَهُوَ بَيانٌ لِشُمولِ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى لِجَميعِ خَلْقِهِ وَشُؤونِهِم ، واللهُ تَعالى خَبيرٌ بِجَميعِ أعمالِكُم ، مُطَّلِعٌ عَلى نِيّتِكُم ، فَأخْلِصوا لَهُ العَمَلَ وَالطّاعَةَ ، لِتَنالوا ثَوابَهُ وَرِضاهُ وَعَوْنَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لابُدَّ أنْ يَنتَصِرَ المُسلِمُ لِدينِهِ ، وَيجبُ ألاّ يُبالِيَ بِالكُفّارِ ، وَأنْ يَكونَ خَوفُهُ مِنَ اللهِ وَحدَهُ .

٢ـ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى تَمييزٌ لِلمُخلِصينَ مِن غَيرِهِم .

٣ـ اتِّخاذُ البِطانَةِ مِن غَيرِ المُؤْمِنينَ دَليلٌ عَلى ضَعفِ الإيمانِ وَرُبَّما فُقدانِهِ .

٤ـ شُمولُ عِلْمِ اللهِ تَعالى لِكُلِّ شُؤونِ خَلْقِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اربط بينَ آياتِ هذا الدَّرسِ وَآياتِ الدَّرْسِ السَّابِقِ .

٢ـ بيِّنِ الأسبابَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ الكَريمةُ لِحَمْلِ المُؤْمنينَ على قِتالِ المُشْركينَ .

٣ـ هاتِ الآياتِ الدَّالّةَ على كُلٍّ مِمّا يلي :

أـ تَعذيبُ المُشْركينَ بِقِتالِ المُؤْمنينَ .

ب ـ في قِتالِ المُشْركينَ شِفاءٌ لِما في صُدورِ المُؤْمنينَ .

٤ـ بيِّنِ الحِكَمَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ الكَريمةُ والّتي مِن أجلِها شُرِعَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٥ـ ما سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ تَعالى : ﴿واللهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلونَ﴾ في خِتامِ هذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ
رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَعمُروا مَساجِدَ اللهِ : عِمارَةُ المَسْجِدِ تَشمَلُ لُزومَهُ وَالإقامَةَ فيهِ ، وَبُنيانَهُ وَترميمَهُ وَخِدْمَتَهُ وَالعِنايَةَ بِهِ .

حَبِطَتْ أعمالُهُم : فَسَدَتْ .

سِقايَةَ الحاجِّ : تَقديمَ الماءِ لِلحُجّاجِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بَعضاً مِن أوْجُهِ العَلاقَةِ بَينَ المُؤْمنينَ وَالكافِرينَ ، تَوَجَّهَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِالإعلانِ بِتبرئَةِ بُيوتِ اللهِ تَعالى مِنْ أنْ يَكونَ لِلمُشرِكينَ بِها عَلاقَةُ بُنيانٍ وَعِمرانٍ ، لأنَّ شَأنَ ذلِكَ إنَّما هُوَ لِلمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

لا يَنبَغي وَلا يَصِحُّ لِلمُشركينَ أنْ يَعمُروا مَساجدَ اللهِ تَعالى الّتي بُنِيَتْ لِعبادَتِهِ وَحدَهُ سُبْحانَهُ ، لأنَّ المُشْرِكينَ قَد شَهدوا عَلى أنفُسِهم بالكُفْرِ شَهادةً نَطَقَتْ بِها ألسِنَتُهُمْ ، وَأيَّدَتْها جَوارِحُهُم وأعمالُهُم . هؤُلاءِ المُشْرِكونَ لا يَنطِقونَ بِكَلِمةِ التَّوحيدِ ، وَإنَّما بِالكُفرِ وَالإشراكِ ، وَهُمْ لا يَعمَلونَ أعمالَ المُؤْمِنينَ ، وإنَّما الأعمالَ القَبيحَةَ الّتي تَدُلُّ عَلى إصْرارِهم عَلى باطِلِهِمْ ، كسَجُودِهِم لِلأَصْنامِ عَقِبَ الطَّوافِ بِالكَعبَةِ .

أولئِكَ المُشْرِكونَ الشّاهِدونَ عَلى أنفُسِهِم بِالكُفرِ قد فَسَدَتْ أعمالُهُم ، لأنّها مَعَ الكُفْرِ لا قيمَةَ لَها . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ مَصيرَ هؤُلاءِ الخُلودُ في جَهَنَّمَ وَالعِياذُ بِاللهِ بِسَبَبِ إصْرارِهِم عَلى الكُفْرِ وباطِلِ أعمالِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ عِمارَةَ المَساجِدِ إنّما هِيَ لِلمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

وَفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِمَن هُم أوْلى النَّاسِ بِعِمارَةِ بُيوتِ اللهِ تَعالى حَتَّى يَشعَّ الإيمانُ مِنها إلى النّاسِ ، وَهؤُلاءِ المُتَحَدَّثُ عَنهُم بِخُصوصِ هذِهِ العِمارَةِ هُمْ مَنْ يَتَّصِفونَ بِعِدّةِ أوصافٍ ، أجمَلَتها الآيَةُ الكَريمَةُ فيما يَلي :

أوّلاً : هُمُ الّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَبارَكَ وتَعالى إيماناً صادِقاً أبعَدَهُم عَنِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَصاروا مُوَحِّدينَ .

ثانياً : هُمُ الّذينَ أيْقَنوا بِالبَعثِ وَالجَزاءِ ، لأنَّ هذِهِ مِنَ الفَوارِقِ الرَّئيسَةِ بَينَ المُؤْمِنينَ وَالكافِرينَ ، لأنَّ الكافِرَ لَمّا لَمْ يُؤمِنْ بِالبَعثِ وَالجَزاءِ فَسَدَ عَمَلُهُ ، وَلَمّا كانَ المُؤمِنُ يُؤمِنُ بِالبَعثِ وَالجَزاءِ حَرِصَ عَلى صَلاحِ عَمَلِهِ .

ثالثاً : هُمُ الّذينَ أقاموا الصَّلاةَ ، لأنَّ في إقامَةِ الصَّلاةِ مَظهَراً واضِحاً عَلى تَجَنُّبِ السُّلوكِ مَعَ الكُفْرِ ، وَهذا مِن أهَمِّ ما يَتَمَيَّزُ بِهِ المُؤْمِنونَ ، فَصَلاتُهُم هِيَ صِلَتُهُم بِرَبِّهِم ، وَلِذلِكَ يَحرِصونَ عَلى إقامَتِها وَيَتَمَيَّزونَ بها .

رابعاً : هُمُ الّذينَ يُؤَدّونَ زَكاةَ أموالِهِم ، وَفي هذا أيضاً مَظْهَرٌ واضِحٌ مِن مَظاهِرِ التَّآلُفِ الاجتِماعيِّ بَينَ أفرادِ المَجتَمَعِ المُؤمِنِ .

خامساً : هُمُ الّذينَ لا يَخشَوْنَ إلاّ اللهَ تَعالى ، وَهذا عُنوانُ قُوَّتِهِم وَسِرُّ وَحدَتِهِم ، فَالدَّينونَةُ للهِ تَعالى تَقتَضي أنْ تَكونَ الخَشيَةُ للهِ تَعالى ، لأنَّ المُؤْمِنَ لا يَنبَغي لَهُ أنْ يَجمَعَ في إيمانِهِ بَيْنَ خَشيَتِهِ للهِ تَعالى وَخَوفِهِ مِمَّن سِواهُ .

وَهذِهِ الصِّفاتُ مُجتَمِعَةً هِيَ صِفاتُ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ الّذينَ حازوا شَرَفَ رضى اللهِ تَعالى عَنهُم ، وَامتِداحِهِم بِإعمارِ بُيوتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَخَتَمتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِبَيانِ أنَّ أصحابَ هذِهِ الصِّفاتِ الجَليلَةِ هُمُ المُهتَدونَ إلى الخَيرِ دائِماً ، المُستَحِقّونَ عَلى أعمالِهِم عَظيمَ الأَجْرِ ، وَهَل جَزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ؟ وَفي تَصديرِ جَزائِهِم بِكَلِمَةِ (عَسى) إشارَةٌ إلى قَطْعِ أطماعِ الكُفّارِ ، والمَعنَى : إذا كانَ هؤُلاءِ العامِلونَ المُقَرَّبونَ جَزاؤُهُم بَينَ (لَعَلَّ وَعَسى) فَما بالُ الكُفّارِ ! !

كَما أنَّ في (عَسى) هذِهِ حَثّاً لِلمُؤْمِنينَ عَلى الاستِزادَةِ مِن هذا الاهتِداءِ ، وَتَحذيرٌ مِنَ الغُرورِ وَالاعتِمادِ عَلى بَعضِ العَمَلِ الصّالِحِ باعتِقادِ أنَّ بَعضَ الأَعمالِ يُغني عَن بَقيَّتِها .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ لا يَصْلُحُ أنْ يُسَوَّى بَيْنَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ لِمُجَرَّدِ سِقايَتِهِم الحُجّاجَ وَعِمارَتِهِمُ المَسجِدَ الحَرامَ ، وَبَيْنَ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَتِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

الخِطابُ في هذِهِ الآيَةِ لِكُلِّ مَنْ جَعَل مُساواةً بَيْنَ ما كانَ المُشْرِكونَ يَفْعَلونَهُ خِدمَةً لِبَيتِ اللهِ الحَرامِ وَأهلِهِ وَضُيوفِهِ ، وجِهادِ المُسلِمينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَتِهِ .

لا يَنبَغي أنْ تَجعَلوا القائِمينَ بِسِقايَةِ الحَجيجِ وَعِمارَةِ المَسجِدِ الحَرامِ مِنَ المُشْرِكينَ في مَنزِلَةِ الّذينَ آمنوا بِاللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وصَدَّقوا بِالبَعثِ وَالجَزاءِ ، وَجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى . ذلِكَ أنَّهُم لَيسوا بِمَنزِلَةٍ واحِدَةٍ عِندَ اللهِ تَعالى ، وَاللهُ تَعالى لا يَهدي إلى طَريقِ الخَيرِ القَومَ المُستَمِرّينَ عَلى ظُلمِ أنفُسِهِم بِالكُفْرِ وَظُلمِ غَيرِهِم بِالأذى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَراتِبِ فَضْلِ المُؤْمِنينَ ، تأكيداً عَلى عَدَمِ جَوازِ المُساواةِ بَيْنَ أفْعالِ المُؤْمِنينَ وَأفعالِ الكافِرينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

هؤُلاءِ هُمُ الّذينَ صَدَّقوا بِوحدانيَّةِ اللهِ تَعالى وَهاجَروا مِن دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلامِ ، وَتَحَمّلوا مَشاقَّ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بِأموالِهِم وَأنفُسِهِمَ ، هؤُلاءِ هُم أصحابُ المَنزِلَةِ العَظيمَةِ عِندَ اللهِ

تَعالى ، وَمَنزِلَتُهُم أعظَمُ مِنْ مَنزلَةِ مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمِثْلِ هذِهِ الأوصافِ ، وَهؤُلاءِ هُمُ الظّافِرونَ بِمَثوبَةِ اللهِ تَعالى وَكَرَمِهِ .

ثُمَّ فَصَّلَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذِهِ التَّوبَةَ وَهذا الفوزَ بما يَحفِزُهُم إلى مَزيدٍ مِنَ العَمَلِ وَالإخلاصِ ، وَبِما يَقطَعُ أمَلَ الكافِرينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يُبَشِّرُهُم رَبُّهُم تَبارَكَ وتَعالى عَن طَريقِ نَبيِّهِ ﷺ في الدُّنيا ، وَعَلى لِسانِ المَلائِكَةِ عِندَ المَوتِ برحمتِهِ تَعالى الواسعةِ الّتي تشمَلُهُمْ ، وأنّهُ سُبْحانَهُ يخصُّهُمْ بِرِضاهُ ، وهو أكبرُ جزاءٍ ، وأنّهُ سُبْحانَهُ سيُدْخِلُهُمْ يومَ القِيامَةِ جَنّاتٍ لَهُم فيها نَعيمٌ قائِمٌ ثابِتٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ نَعيمَهُم في الجَنَّةِ دائِمٌ لا يَزولُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

إنَّ هؤُلاءِ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ ، الّذينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، ماكِثونَ في تِلكَ الجَنَّاتِ مُكْثاً أبَدِيّاً . ثُمَّ أخبَرَهُم سُبْحانَهُ أنّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ لا يُقَدَّرُ قَدَرُهُ ، حَتّى يَطمَعَ العِبادُ في رَحمَتِهِ فَيَزدادوا لَهُ تَعَبُّداً وَتَذَلُّلاً .

وَفي هذِهِ الآياتِ الأخيرَةِ ، كَما هُوَ الظّاهِرُ وَصَفَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِثَلاثِ صِفات ، هِيَ : الإيمانُ ، وَالهِجْرَةُ وَالجِهادُ بالنَّفسِ وَالمالِ ، ثُمَّ قابَلَهُم عَلى ذلِكَ بِالتَّبْشيرِ بِثَلاثِ مُبَشِّراتٍ ، هِيَ : الرَّحمَةُ وَالرِّضوانُ وَالجَنَّةُ ، وَهذا كُلُّهُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى وَمِنَّةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنّ أعمالَ البِرِّ الّتي يَقومُ بِها المُشْرِكونَ لا وَزنَ لَها عِندَ اللهِ تَعالى ، لاقتِرانِها بِالكُفْرِ ، تَصديقاً لِقولِهِ تَعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

٢ـ إنّ عِمارَةَ مَساجِدِ اللهِ تَعالى إنّما هِيَ شَأنٌ لِلمُؤْمِنينَ وَحدَهُم ، وَلا يَصِحُّ ذلِكَ مِنَ الكافِرينَ بِسَبَبِ كُفرِهِم وَنَجاسَتِهِم .

٣ـ التَّنويهُ بِشأنِ المَساجِدِ وَبِنائِها وَالتَّعَبُّدِ فيها وَإصلاحِها وَخِدمَتِها .

٤ـ شُرِعَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وهو مِنْ أعظمِ القُرُباتِ عِندَ اللهِ سُبْحانَهُ .

٥ـ لا يَستَوي المُؤْمنونَ مَعَ الكافِرينَ ، لا في عَقيدَتِهِم ولا في أفعالِهِم .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَ اللهُ تَعالى أوصافَ المُؤْمنينَ الّذينَ هُم أوْلى النّاسِ بِرِعايَةِ المَساجِدِ ، بَيِّنْ هذِهِ الأوصافَ ذاكِراً الآيَةَ الّتي تَدُلُّ عَلى ذلِكَ .

٢ـ بيِّن مَعنى (عَسى) في قَولِهِ تَعالى : ﴿فعسى أُولئكَ أنْ يَكونوا مِنَ المُهْتَدينَ﴾ .

٣ـ بيِّن كَيفَ تَستَدِلُّ عَلى إحْكامِ الرَّوابِطِ الاجتماعِيَّةِ بَيْنَ المُسلِمينَ مِن خِلالِ هذِهِ الآياتِ .

٤ـ ذُكِرَ في الآياتِ الكَريمَةِ ثَلاثُ مُبَشِّراتٍ لِلمُؤْمنينَ عَقِبَ ذِكرِهِم بِثلاثِ صِفاتٍ ، بَيِّنْ ذلِكَ .

٥ـ ما سَبَبُ عَدَمِ أَهْلِيَّةِ الكافِرينَ لِعِمارَةِ المَساجِدِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ ما فَعَلَهُ المُشْرِكونَ بِبَيتِ اللهِ الحَرامِ .

٢ـ اكتُبِ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الكَريمَةَ مِن سُورَةِ الجِنِّ الّتي تُبَيِّنُ كَوْنَ المَساجِدِ للهِ وَحْدَهُ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى
ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ
وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **استَحَبّوا الكُفْرَ** : أحَبّوهُ حُبّاً مُتَمَكِّناً .
- **وَعَشيرَتُكُم** : أقارِبُكُمْ الأَدْنَوْنَ .
- **اقتَرَفْتُموها** : اكْتَسَبْتُموها .
- **كَسادَها** : بَوارَها وَعَدَم رَواجِها .
- **فَتَرَبَّصوا** : انتَظِروا .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما أعَدَّهُ مِن عَطاءٍ عَظيمٍ لِلمُؤْمنينَ الصّادِقينَ الّذينَ هاجَروا وَجاهَدوا في سَبيلِهِ بِأموالِهِم وَأنفُسِهِم ، أتبَعَ ذلِكَ بِتَوجيهِ نِداءٍ إلَيْهِمْ ، حَضَّهُمْ فيهِ عَلى أنْ يُجَرِّدوا أنفُسَهُم لِعَقيدَتِهِم ، وَأنْ يُقاطِعوا أعداءَهُم في الدِّينِ ، مَهْما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِم مِنهُم ، وأن يُؤْثِروا حُبَّ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ عَلى كُلِّ شَيءٍ مِن زينَةِ الحَياةِ الدُّنيا ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ آمنوا إيماناً حَقّاً : لا تَتَّخِذوا آباءَكُم وَإخوانَكُمُ المُشْرِكينَ أولِياءَ وأصدِقاءَ تُفشونَ إلَيهِم أسرارَكُمْ ، وَتُطلِعونَهُم عَلى ما لا يَجوزُ إطلاعُهُم عَلَيْهِ مِن شُؤونِكُم ، وَتُلقونَ إليهِم مَوَدَّتَكُم ، فإنَّ ذلِكَ يَتَنافى مَعَ الإيمانِ الحَقِّ ، وَمَعَ الإخلاصِ للعَقيدَةِ ، وَإيثارِها عَلى كُلِّ ما سِواها مِن زينَةِ الحَياةِ .

وَخَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الآباءَ والإخْوَةَ ، إذْ لا قَرابَةَ أقرَبَ مِنهُم فَنَفى المُوالاةَ بينَهُم ، لِيُبَيِّنَ أنَّ القُرْبَ قربُ الأديانِ لا قُربَ الأبدانِ .

وَهذا النَّهيُ مَخصوصٌ في حالَةِ كَونِ هؤُلاءِ الأقرَبينَ عَلى الكُفْرِ والشِّركِ ؛ أي لا تَتَّخِذوهُم أولِياءَ إنِ اختاروا الشِّرْكَ وَالكُفْرَ عَلى الإيمان ، وَأصَرّوا عَلى شِرْكِهِم وَباطِلِهِم ، أمّا إذا أقْلَعوا عَنْ ذلِكَ وَدَخَلوا في دينِكُم ، فَلا حَرَجَ عَلَيْكُم مِنَ اتِّخاذِهِم أولياءَ وَأصفِياءَ .

وَفي الآيَةِ الكَريمَةِ تَهديدٌ وَوَعيدٌ لِمَن يَفعَلُ ذلِكَ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

أي : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُم في حالِ استِحبابِهِمُ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ، فَأولئِكَ المُوالونَ لَهُم هُم الظّالِمونَ لأنفُسِهِم ، لأنَّهُم وَضَعوا المُوالاةَ في غَيرِ مَوضِعِها وَتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ الّتي نَهاهُم عَن تَجاوُزِها ، وَسَيُجازيهِم سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى ذلِكَ بِما يَستَحِقّونَ مِنَ العَذابِ .

وبَعدَ ذلِكَ أمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُعلِنَ لِلنّاسِ هذِهِ الحَقيقَةَ ، وَهِيَ أنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ يَجِبُ أنَ تَفوقَ كُلَّ مَحَبَّةٍ لِغَيرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، فَقال تَعالى :

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ لِمَنِ اتَّبَعَكَ : مِنَ المُؤْمِنين إنْ كانَ آباؤُكُمُ الّذينَ أنتُم بِضعَةٌ منهُم ، وَأبناؤُكُم الّذينَ هُمْ قِطعَةٌ مِنكُم ، وَإخوانُكُمُ الّذينَ تَربِطُكُم بِهِم وَشيجَةُ الرَّحِمِ ، وَأزواجُكُم اللّائي جَعَلَ اللهُ تَعالى بَينَكُم وَبينَهُنَّ مَوَدَّةً وَرَحمَةً ، وَعَشيرَتُكُم ؛ أي : أقارِبُكُم الأدنَوْنَ الّذينَ تَربِطُكُم بِهِم رابِطَةُ المُعاشَرَةِ وَالعُصبَةِ ، وَأموالٌ اقتَرَفتُموها ؛ أي : اكتَسَبْتُموها ، فَهِيَ عَزيزَةٌ عَلَيْكُم ، وَتِجارَةٌ تَخشَوْنَ كَسادَها ؛ أي : تَخافونَ بَوارَها وَعَدَم رَواجِها بِسَبَبِ اشتِغالِكُم بِغيرِها مِنْ مُتَطَلَّباتِ الإيمانِ ، وَمَساكِنُ تَرضَوْنَها وَتُعجِبُكُم الإقامةُ فيها ؛ قُل لَهُم يا مُحَمَّدُ ﷺ إنْ كانَ كُلُّ ذلِكَ أحَبَّ إلَيْكُم مِنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وَجهادٍ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَتَربَّصوا حَتّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ ؛ أيْ : إذا كانَت هذِهِ

الأشياءُ أحسَنَ في نُفوسِكُم وَأقرَبَ إلى قُلوبِكُم مِنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى وَطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ وَمِنَ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، فانتَظِروا حَتّى يَحكُمَ اللهُ تَعالى بِحُكْمِهِ فيكُم ، وَهُوَ العَذابُ العاجِلُ أو العِقابُ الآجِلُ .

وَفي هذِهِ الجُملَةِ تَهديدٌ وَوَعيدٌ لِمَنْ آثَرَ حُبَّ هذِهِ الأشياءِ عَلى حُبِّ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ، وَالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمَةِ الدِّين .

وَقولُهُ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيهِ تَتميمٌ لِهذا التَّهديدِ وَهذا الوَعيدِ ، بِأنَّ اللهَ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ حِكمَتُهُ أنْ لا يُوَفِّقَ القَومَ الخارِجينَ عَن حُدودِ دينِهِ وَشَريعَتِهِ ، لا يُوَفِّقُهُم إلى ما فيه مَثوبَتُهُم وَرِضاهُ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحريمُ مُوالاةِ الكافِرينَ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِم ، وَاعتِبارُ هذِهِ المُوالاةِ مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ .

٢ـ المُؤْمِنُ لا يَتِمُّ إيمانُهُ إلاّ إذا كانَت مَحَبَّتُهُ للهِ تَعالى وَرَسولُهُ ﷺ مُقَدَّمَةٌ عَلى كُلِّ مَحبوبٍ .

٣ـ إذا تَعارَضَتْ مَصلَحَةٌ مِن مَصالِحِ الدِّينِ مَعَ مُهِمّاتِ الدُّنيا ، وَجَبَ تَرجيحُ جانِبِ الدِّينِ عَلى الدُّنيا لِيَبقى الدِّينُ سَليماً .

٤ـ لَيسَ المَطلوبُ أنْ يَنقَطِعَ المُؤْمِنُ عَن أهلِهِ وَعَشيرَتِه وَمالِهِ لِيَبْقى وَحدَهُ ، إنَّما المَطلوبُ أنْ تُسَيطِرَ عَقيدَتُهُ عَلى أفعالِهِ ، وَتُهَيمِنَ عَلى سُلوكِهِ وَتَكونَ هِيَ الدّافِعَةُ لِكُلِّ ما يَعمَلُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

استَحَبّوا الكُفْرَ ، أموالٌ اقتَرَفتُموها ، تِجارَةٌ تَخشَونَ كَسادَها ، فَتَربَّصوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ .

٢ـ بَيِّنْ الدَّليلَ عَلى أنَّ المَطلوبَ في الحَياةِ قُربُ الأديانِ لا قُربَ الأبدانِ .

٣ـ بَيِّنْ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى عَن مُوالاةِ مَن نَهى عَنهُم في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ .

٤ـ إذا تَعارَضَتْ مَصلَحَةٌ دينِيَّةٌ مَعَ مَصلَحَةٍ دُنيَوِيَّةٍ ، بَيِّن ما مَوقِفُ المُسلِمَ مِن ذلِكَ ، مَعَ ذِكْرِ الدَّليلِ عَلى ما تَقولُ .



أخرجَ البُخاريُّ عَن أبي عَقيلٍ أنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبدَ اللهِ بنَ هِشامٍ قالَ : كُنّا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ ، فَقالَ عُمَرُ : « يا رَسولَ اللهِ ﷺ لأنتَ أَحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلاّ مِن نَفْسِي فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « لا والّذي نَفسي بِيَدِهِ حَتّى أكونَ أحَبَّ إلَيكَ مِنْ نَفْسِكَ » ، فقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : الآنَ أنتَ واللهِ أَحَبُّ إليَّ مِن نَفسي ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : الآنَ يا عُمَرُ[1].

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيَةٍ مِن سُورَةِ المُمْتَحنَةِ وَبيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بَينَها وَبَينَ الآيَةِ (٢٣) مِنْ هذهِ السّورةِ .

٢ـ مَتى يَكونُ حُبُّ الأشياءِ المذكورةِ في الآيةِ (٢٤) مُباحاً لا حَظْرَ فيه ؟ اكتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

(١) أخرجه البخاري : ٦/ ٢٤٤٥ حديث رقم : (٦٢٥٧) .

الدَّرسُ الرَّابِعُ والعِشرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ
عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ
عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَواطِنَ : مَواقعَ الحَربِ .

حُنَيْنٍ : وَادٍ بينَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ .

رَحُبَتْ : وَسِعَتْ .

سَكِينَتَهُ : طُمَأْنينَتَهُ ، وَالمُرادُ ما يُسَكِّنُهُم ويُذهِبُ خَوْفَهُم .

نَجَسٌ : قَذِرينَ خُبَثاءُ .

عَيْلَةً : فَقْراً وَفاقَةً .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعِبادِهِ المُؤْمنينَ خُطورَةَ الوَلاءِ لأعداءِ الدِّينِ وَحَثَّهُم عَلى أَنْ لا يَكونَ وَلاؤُهُم إلاّ للهِ تَعالى ، نَبَّهَهُمْ في هذهِ الآياتِ إلى بَعْضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى الَّتي أَنْعَمَ بِها عَلَيْهِم يَومَ خَذَلَتهُم أَنفُسُهُم ، مُبيِّناً لَهُم أنّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ تَعالى ، فَقالَ تَعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

اذْكُروا أيُّها المُؤْمِنونَ نِعَمَ اللهِ تَعالى عَلَيْكُم ، وَحافِظوا عَلَيْها بِالشُّكْرِ ، وَحُسْنِ الطّاعَةِ . وَمِن مَظاهِرَ هذِهِ النِّعمِ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ نَصَرَكُم عَلى أعدائِكُم في مَواقِفَ وَحروبٍ كَثيرَةٍ ، كَغَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَغَزوةِ بَني قَيْنُقاعَ وَغَيرِها ، كَما نَصَرَكُم سُبْحانَهُ وتَعالى في يَومِ غَزوَةِ حُنَيْنٍ ، وَهُوَ اليَومُ الّذي أعْجَبَتْكُمْ فيهِ قُوَّتُكُم وَغُرِرْتُم بِها أيَّما غُرورٍ ، وَلكِنَّ هذِهِ الكَثرَةَ الّتي أعجَبَتْكُم وَغَرَّتكُم لَمْ تَنفَعْكُم بِسَبَبِ شِدَّةِ خَوفِكُم .

وَكانَ مِن أمرِ هذِهِ الغَزوَةِ أنَّ قَبيلَةَ هَوازِنَ لَمّا بَلَغَها أمرُ فَتحِ مَكَّةَ ، جَمَعَ القَبيلَةَ رَئيسُها وَكانَ يَومَذاكَ مالِكُ بنُ عوفٍ ، وَاجتَمَعَ لَهُ بَنو ثقيفٍ وَنَزَلوا بأوطاسَ (وَادٍ في هُوازِنِ) وَبَلَغَ خَبَرُهُم النَّبيَّ ﷺ ؛ هُنالِكَ عَزَمَ عَلى قِتالِهِم وَأعَدَّ لِذلِكَ ، فَخَرجَ مَعَهُ ﷺ اثنا عَشَرَ ألفاً مِنَ المُسلِمينَ ، عَشَرَةُ آلافٍ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأنصارِ ، وَألفانِ مِمّنْ أسْلَمَ يَومَ الفَتحِ ، لَمّا رَأى المُسلِمونَ قُوَّتَهُم وَكَثرَتَها اغتَرَّ بَعضُهُم ، فَصاحَ بَعضُهُم لَنْ نُهْزَمَ اليومَ مِنْ قِلّةٍ ، فَوَكَلَهُمُ اللهُ تَعالى إلى أنْفُسِهِمْ أوّلَ أمرِ المعركةِ ، فكانتِ هزيمَتُهُمْ المُنْكَرَةُ أوّلاً ، ثمَّ صَفَتْ نُفوسُهُم مِن كَدَرِ الغُرورِ وَالتَجَأوا إلى رَبِّهِم تَبارِكَ وتَعالى ، فَنَصَرَهُم وَأظفَرَهُم عَلى عَدُوِّهِم .

ثُمَّ قالَ تَعالى مُبيِّناً فَضلَهُ عَلى عِبادِهِ بَعْدَ أنْ تابوا إليهِ وَرَجَعوا :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

إنَّهُ بَعْدَ أن تَرَكَكُمُ اللهُ تَعالى لأنفُسِكُم أوّلَ الأمرِ ، فَلم تَنفَعْكُم كَثرَتُكُمْ شَيئاً وَظَهَرَ عَلَيْكُم عَدُوُّكُم ، وَلِشِدَّةِ فَزَعِكُم ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرضُ بِما رَحُبَتْ فَلَمْ تَجِدوا سَبيلاً لِلقِتالِ أو النَّجاةِ الشَّريفَةِ ، وَلَم يَجِدْ أكثَرُكُم وَسيلَةً لِلنَّجاةِ غَيرَ الهَرَبِ ، فَفَرَرتُم مُنهَزِمينَ وَتَرَكْتُمْ رَسولَ اللهِ ﷺ مَعَ قِلَّةٍ مِنَ المُؤْمِنينَ ، بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ أدْرَكَتْكُمْ عِنايَةُ اللهِ تَعالى ، فأنزَلَ الطُّمأنينَةَ عَلى رَسولِهِ ﷺ ، وَمَلأَ قُلوبَ المُؤْمِنينَ ، وَأمَدَّكُم بِالمَلائِكَةِ جُنودِهِ ، الّذينَ ثَبَّتوا أقدامَكُم دونَ أنْ تَرَوْهُم فانتَصَرْتُم ، وأذاقَ اللهُ تَعالى عَدُوَّكُم مَرارَةَ الهَزيمَةِ ، وَذلِكَ جَزاءُ الكافِرينَ في الدُّنيا . وبَعدَ ذلِكَ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَظاهِرَ فَضلِهِ عَلى عِبادِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

ثُمَّ يَتوبُ اللهُ تَعالى مِنْ بعدِ هذا التَّعذيبِ لِّلذينَ كَفَروا في الدُّنيا عَلى مَن يَشاءُ أنْ يَتوبَ عَلَيْهِ

منهُم ، وَذلِكَ بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِلدُّخولِ في الإسلامِ ، ذلِكَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى واسعُ المَغفِرَةِ ، عَظيمُ الرَّحمَةِ ، لا يُحاسِبُ الكافِرينَ بَعْدَ إيمانِهِم عَلى ما بَدَرَ مِنهُم وَقتَ أَنْ كانوا كافِرينَ .

وَقدَ تابَ اللهُ تَعالى عَلى بَقِيَّةِ هُوازِنَ فَأَسْلَموا ، وَقَدِموا عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ مُسلِمينَ ، وَلَحِقوهُ وَقَد قارَبَ مَكَّةَ ، وذلِكَ بَعدَ المَعرَكَةِ بِزَمانٍ قَليلٍ يَقرُبُ مِن عِشرينَ يَوماً ، فَعِندَ ذلِكَ خَيَّرَهُم رَسولُ اللهُ ﷺ بَينَ سَبيِهِم وأموالِهِم ، فَاخْتاروا سَبْيَهُم ، وَكانوا سَتَّةَ آلافِ أسيرٍ ما بَينَ صَبيٍّ وامرَأَةٍ ، فَرَدَّهُ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِم ، وَقَسَمَ الأموالَ بَينَ الغانِمينَ ، وَأعطى رسولُ اللهِ ﷺ ناساً مِمّنْ أسلمَ حديثاً مِنْ أهلَ مَكَّةَ لِكَي يتألَّفَ قلوبَهُمْ على الإسلامِ ، فأعطاهُمْ مائةً مِنَ الإبلِ ، وكانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أُعْطِيَ مالكُ بنُ عوفٍ ، وَاستَعمَلَهُ عَلى قَومِهِ بَعْدَ أنْ أسلَمَ وَحَسُنَ إسلامُهُ .

وبَعدَ هذا التَّوجيهِ وَالتَّذكيرِ مِنَ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ المُؤْمِنينَ وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى لَهُم نِداءً ، أمَرَهُم فيهِ بِمَنْعِ المُشْرِكينَ مِنْ قُربانِ المَسجِدِ الحَرامِ ، وَوَعَدَهُم بِالعَطاءِ الَّذي يُغنيهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى مُخاطِباً عِبادَهُ المُؤْمِنينَ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يا أيُّها المُؤْمِنونَ ، إنَّما المُشْرِكونَ بِسَبَبِ شِرْكِهِم نَجِسَتْ نُفوسُهُم وَخَبُثَتْ وَهُم ضالّونَ في العَقيدَةِ ، فَلا تُمَكِّنوهُم مِنْ دُخولِ المسجِدِ الحَرام بَعْدَ عامِهِم هذا (التاسع مِنَ الهجرَةِ) ، وَإنْ خِفتُم فَقْراً بِسَبَبِ انقطاعِ تِجارَتِهِمْ عَنكُم فإنَّ اللهَ تَعالَى سَوفَ يُعَوِّضُكُم خيراً ، وَيُغنيكُم مِنْ فَضْلِهِ إنْ شاءَ ، إنّ اللهُ تَعالى عَليمٌ بِشُؤونِكُمْ حَكيمٌ في تَدبيرِهِ .

وَالتَّقييدُ بِالمَشيئَةِ في قَولِهِ تَعالى : « إنْ شاءَ » لَيْسَ لِلتَّرَدُّدِ ، وَلكِنَّهُ لِتَعليمِ المُؤْمِنينَ رِعايَةَ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعالى ، وَلِبيانِ أنَّ هذا الإغناءَ بِإرادَتِهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ ، فَعَلَيْهِم أنْ يَجعَلوا اعتِمادَهُم عَلَيْهِ ، وَتَضَرُّعَهُم إلَيْهِ لا إلى غَيرِهِ ، وَلِلتَّنبيهِ عَلى أنَّ عَطاءَهُ سُبْحانَهُ لَهُم هَوَ مِنْ بابِ التَّفَضُّلِ لا الوُجوبِ ، لأنَّهُ لَو كانَ واجِباً ما قَيَّدَهُ بِالمَشيئَةِ .

وَقَدَ أنجزَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَعْدَهُ للمُؤْمِنينَ ، فَأَرسَلَ السَّماءَ عَلَيْهِم مِدْراراً ، وَفَتَحَ لَهُمُ البِلادَ ، فَكَثُرَتْ بَينَ أيْديهِمُ الغَنائِمُ ، وَألوانُ الخَيراتِ ، وَدَخَلَ في دينِ اللهِ تَعالى مَنْ هُم أيْسَرُ حالاً ، وَأغنى مِنْ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اعتمادُ المُؤْمِنِ يكونُ دائِماً عَلى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، يَتوكَّلُ عَلَيْهِ مَعَ الأَخْذِ بِالأَسْبابِ .

٢ـ تَحذيرُ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَشغَلَهُ أَيُّ شَيءٍ عَن اللهِ تَعالى .

٣ـ نَجاسَةُ المُشْرِكينَ راجِعَةٌ إلى أَمْرَيْنِ : خُبْثُ بَواطِنِهِم لِعبادَتِهِم غَيرِ اللهِ تَعالى ، ولِعَدَمِ التِزامِهِم بِالطَّهارَةِ .

٤ـ الاشْتِغالُ بِالأَسبابِ في الرِّزْقِ جائِزٌ ولا يُنافي التَّوَكُّلَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

مَواطِنَ ، حُنَيْنٍ ، رَحُبَتْ ، سَكينَتَهُ ، وَلَيْتُم مُدبِرينَ .

٢ـ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ بِأَنَّهُ نَصَرَهُم في مَواطِنَ كَثيرَةٍ ، سَمِّ ثَلاثَةً مِن هذِهِ المَواطِنِ .

٣ـ بَيِّنْ بِماذا طَمْأَنَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ في هذهِ الآياتِ .

٤ـ بَيِّنْ ماذا تَستَفيدُ مِمّا يَلي :

أ ـ أعجَبَتكُم كَثْرَتُكُم فَلَم تُغْنِ عَنكُم شَيئاً .

ب ـ ثُمَّ وَلَّيتُم مُدبِرينَ .

ج ـ أنزلَ جُنوداً لَم تَرَوْها .

د ـ ثُمَّ يَتوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ .

هـ ـ وإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فَسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ .

٥ـ بَيِّن لِماذا مَنَعَ اللهُ المُؤْمنينَ أَنْ يَسمَحوا لِلمُشركينَ بِدُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ .

٦ـ بَيِّنْ بِالدَّليلِ كَيفَ أَنَّ السَّيْرَ في طَريقِ الأَسبابِ لا يَتَنافى مَعَ التَّوَكُّلِ .



١ـ اكتُبْ في دَفْتَرِكَ مَوقِفَ الرَّسولِ ﷺ عِندَما انهَزَمَ المُسلِمونَ ، وَعَلى ماذا يَدُلُّ ذلِكَ ؟

٢ـ ارجِع إلى كِتابِ سيرَةِ ابنِ هِشامٍ ، وَلَخِّصْ مِنهُ أحداثَ هذِهِ المَعْرَكَةِ ، وَانقُلْ ذلِكَ إلى دَفتَرِكَ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ الخامِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ
صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ
ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ
أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ
سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ
إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الجِزيَةَ : مِقْداراً مِنَ المالِ يُفرَضُ عَلى القادِرينَ مِنْ أَهلِ الكِتابِ لِدَولَةِ الإِسلامِ .

عَنْ يَدٍ : عَنْ سَعَةٍ وَقُدرَةٍ .

صاغِرونَ : خاضِعونَ لأَحكامِ الإِسلامِ وَسِيادَتِهِ .

عُزَيْرٌ : عِزرا المَذكورُ في كُتُبِهِم .

يُضاهِئونَ : يُشْبِهونَ .

أَنّي يُؤفَكونَ : كَيفَ يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ إِلى غَيرِهِ .

أَحبارَهُم : جَمعُ حَبْرٍ ، وَهُوَ لَقَبُ رَجُلِ الدِّينِ عِندَ اليَهودِ .

رُهبانَهُم : جَمعُ راهِبٍ ، وَهُوَ لَقَبُ رَجُلِ الدِّينِ عِندَ النَّصارى .



التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى لِعبادِه بَعضَ نِعَمِهِ عَلَيْهِم ، وَخُصوصاً نِعمَةَ النَّصرِ مِنْ عِندِهِ سُبْحانَهُ ، وَبَيَّنَ لَهُم كذلِكَ نَجاسَةَ المُشْرِكينَ وَأمرَهُم بِمَنْعِهِم مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ ، وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى كَلامَهُ لِعبادِهِ المُؤْمنينَ في آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بَيَّنَ فيها ما يَجبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوْقِفُهُم مِنَ المُنحَرِفينَ مِنْ أهلِ الكِتابِ ، وَقَدْ بَدَأها سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَولِهِ :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

هذا أمرٌ مِنَ الله سُبْحانَهُ وتَعالى بِقِتالِ مَنْ هذِهِ أوصافُهُ مِنْ أهلِ الكِتابِ ، فَإنَّ مَن اجتَمَعَت فيهِ هذِهِ الأوصافُ لا يَكونُ مُؤْمِناً أَلبَتَّةَ . وَهذِهِ الأوصافُ الّتي بِموجِبِها أُمِرَ المُؤْمِنونَ بِقِتالِ أهلِ الكِتابِ هِيَ :

أوّلاً : أنَّهُم لا يُؤمِنونَ باللهِ تَعالى .

ثانياً : أنَّهُم لا يُؤمِنونَ باليَوْمِ الآخِرِ .

فَإنْ قيلَ إنَّ أهلَ الكِتابِ مُؤْمِنونَ باللهِ وَباليَومِ الآخِرِ ، قيلَ إنّهُم يُؤمِنونَ إيماناً مُشَوَّشاً فيهِ أخلاطٌ كَثيرَةٌ مِنَ الكُفْرِ ، وَلَمّا كانَ كذلِكَ عُدَّ كالإيمانِ .

ثالثاً : أنَّهُم لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ تَعالى وَرَسولُه ﷺ ، أي : لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى لا في شَريعَتِهِم وَلا يَتَّبِعونَ شَريعَتَنا .

رابِعاً : أنَّهُم لا يَدينونَ بِدينِ الحَقِّ ، أي : لا يَتَّخِذونَ الإسلامَ ديناً لَهُم ، وَإنَّما يَتَّبِعونَ أَحْبارَهُم وَرُهبانَهُم فيما يُحِلّونَهُ لَهُم وَيُحَرِّمونَهُ عَلَيْهِم .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يَتَمَيَّزُ هذا الصِنفُ مِنَ النّاسِ عَنِ المُشْرِكينَ ، لأنَّ قِتالَ المُشْرِكينَ يَنتَهي بِإسلامِهِم أوِ المَوتِ ، وَأمّا أهلُ الكِتابِ فَإمّا الإسلامُ أو الجِزْيَةُ . وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ مَعناهُ : يُعطونَها عَنْ سِعَةٍ وَقُدْرَةٍ ، وَهُم خاضِعونَ لأحكامِ الإسلامِ وَسِيادَتِهِ .

وَلَيسَ مَعنى هذِهِ الآيَةِ قَهْرُ النّاسِ عَلى الإسلامِ ، وإنّما المُرادُ أنّ الإسلامَ كانَ يَكتَفي مِنَ الفَتحِ بِإدخالِ الأرضِ المَفتوحَةِ تَحتَ سُلطانِهِ ثُمَّ يَترُكُ النّاسَ وَما كانوا عَلَيْهِ مِن دينٍ ، ثُمَّ يُكَلِّفُهُم بِجِزيَةٍ يَدفَعونَها لِتَكونَ عَوْناً عَلى حِفْظِ حَياتِهِم وَالمُحافَظَةِ عَلى أمْنِهِم في دِيارِهِم ، وَهُم في عَقائِدِهِم

وَمَعابِدِهِم وَعاداتِهِم بَعْدَ ذلِكَ أحرارٌ ، لا يُضايَقونَ في عَمَلٍ وَلا يُظلَمونَ في مُعامَلَةٍ .

وبَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ رَذائِلِ أهلِ الكِتابِ عَلى سَبيلِ الإجمالِ ، أتْبَعَ ذلِكَ بَتَفصيلِ هذِهِ الرَّذائلِ ، فَحَكى أقوالَهُمُ الباطِلَةَ ، وَأفعالَهُمُ الذَّميمَةَ ، وَنواياهُمُ السَّيِّئَةَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

تَرَكَ اليَهودُ الوَحدانِيَّةَ في عَقيدتِهِم ، وَقالوا : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ، وَكذلِكَ فَعلَتِ النَّصارى ، فَقالوا : المَسيحُ ابنُ اللهِ ، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ، وَقَولُهُم هذا مُبْتَدَعٌ ، يُردِّدونَهُ بأفواهِهِم ، وَلَم يأتِهِم بِهِ كِتابٌ وَلا رَسولٌ ، وَلَيسَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ وَلا بُرهانٌ ، وَهُم في هذا القَولِ يُشابِهونَ قَولَ المُشْرِكينَ قَبْلَهُمُ الّذينَ اتَّخَذوا مَعَ اللهِ تَعالى آلِهَةً أُخرى . لَعَنَ اللهُ تَعالى هؤُلاءِ الكُفّارَ جَميعاً وَأهلَكَهُم ، عَجَباً لَهُم كَيفَ يَضِلُّونَ عَنِ الحَقِّ وَهُوَ ظاهِرٌ ، وَيَعدِلونَ إلى الباطِلِ ؟

ثُمَّ حَكى اللهُ تَبارَكَ وتَعالى لَوْناً آخَرَ مِن ألوانِ باطِلِهِمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

جَمَعَ اللهُ تَعالى في هذهِ الآيَةِ بَينَ اليَهودِ وَالنَّصارى في اتِّخاذِهِمْ رِجالَ دينِهِم أرْباباً ، بِأنْ أعْطوهُم حَقَّ التَّشريعِ فيهِم ، وَذَكَرَ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذلِكَ ما انفَرَدَ بِهِ النَّصارى دونَ اليَهودِ مِنَ اتخاذِهِمُ المَسيحَ رَبّاً وَإلهاً يَعبُدونَهُ ، وَالمَعنى المَقصودُ مِنَ الآيَةِ الكَريمَةِ : اتَّخذوا رِجالَ دينِهِم أرباباً يُشَرِّعونَ لَهُم وَيَكونُ كَلامُهُم ديناً ، وَلَو كانَ يُخالِفُ قَولَ رَسولِهِم ، فاتَّبَعوهُم في باطِلِهِم وَعَبَدوا المَسيحَ ابنَ مَريَمَ ، وَقَدْ أمَرَهُمُ اللهُ تَعالى في كُتُبِهِ عَلى لِسانِ رُسُلِهِ أنْ لا يَعبُدوا إلاّ إلهاً واحِداً ، لأنَّهُ لا يَستَحِقُّ العِبادَةَ في حُكْمِ الشَّرعِ وَالعَقلِ إلاّ اللهُ الواحِدُ سُبْحانَهُ .

جاءَ عَن عَدِيِّ بن حاتِمٍ حينَ قَدِمَ مُسلِماً عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ لَمّا جاءَ إلَيهِ كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقرأُ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قالَ عَدِيٌّ : أما إنَّهُم لَم يَكونوا يَعبُدونَهُم ، وَلكِنَّهُم كانوا إذا استَحَلّوا لَهُم شَيئاً استَحَلّوهُ ، وَإذا حَرَّموا عَلَيهِم شَيئاً حَرَّموهُ[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي : ٥/ ٢٧٨ حديث رقم : (٣٠٩٥) .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ ما الّذي يُريدُهُ أهلُ الكِتابِ وَيَهدِفونَ إليهِ مِن وَراءِ هذِهِ الأقاويلِ الكاذِبَةِ وَالدَّعاوى الباطِلَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

يُريدُ هؤُلاءِ الكافِرونَ مِنْ أهلِ الكِتابِ أنْ يَقضوا عَلى دينِ الإسلام ، وَأنْ يَطمِسوا تَعاليمَهُ الّتي جاءَ بِها رسولُهُ ﷺ عَنِ طَريقِ أقوالِهِمُ الباطِلَةِ الصّادِرَةِ مِن أفواهِهِم ، مِنْ غَيرِ أنْ يَكونَ لَها تَصديقٌ مِنَ الواقعِ تَنطَبِقُ عَلَيْهِ أو أصْلٍ تَستَنِدُ إليهِ ، وَإنَّما هِيَ لَغْوٌ ساقِطٌ مُهمَلٌ لا وَزنَ لَهُ وَلا قيمَةَ ، وَهُم يُريدونَ ذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى يُريدُ غَيرَ ما أرادوا ، يُريدُ سُبْحانَهُ إتمامَ نورِهِ بإظهارِ دينِهِ ، وَنَصْرَ رَسولِهِ ﷺ وأتباعِهِ حَتّى يَمضِيَ أهلُهُ قُدُماً على تَنفيذِ ما كَلَّفَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ دونَ إبطاءٍ أو تَثاقُلٍ .

ثُمَّ أكّدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَعْدهُ بإتمامِ نورِهِ ، وَبَيَّنَ كَيفيَّةَ هذا الإتمامِ ، فَقالَ سُبحانَهُ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

هُوَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الّذي كَفِلَ إتمامَ نورِهِ بِإرسالِ رَسولِهِ مُحَمَّداً ﷺ بالحُجَجِ البَيِّناتِ ، وَدينِ الحَقِّ (الإسلامُ) ، لِيُعلِيَ هذا الدينَ عَلى جَميعِ الأديانِ السّابِقَةِ عَلَيْهِ ، وَإنْ كَرِهَهُ المُشْرِكونَ ، فَإنَّ اللهَ تعالى يُظهِرُهُ رَغْماً عَنُهم .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَشروعِيّةُ الجزيَةِ في الإسلامِ ، وهِيَ ما يُؤخَذُ مُقابِلَ حِمايَةِ أهْلِ الذِّمَّةِ وَتَوفيرِ الأَمْنِ لَهُم .

٢ـ كُفْرُ اليَهودِ والنَّصارى عَلى الرَّغمِ مِن كَوْنِهم أهلَ كِتابٍ .

٣ـ تَحذيرُ المُؤْمِنينَ مِن أباطيلِ أهلِ الكِتابِ .

٤ـ لا يُعبَدُ وَلا يُطاعُ إلاّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

٥ـ نَصْرُ اللهِ تَعالى قادِمٌ لِلمُؤْمِنينَ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

الجزيَةَ ، صاغِرونَ ، يُضاهِئونَ ، أنّى يُؤفكونَ .

٢ـ بيِّنِ الأَسْبابَ الّتي بِموجِبِها أُمِرَ المُسلِمونَ بِقِتالِ أهلِ الكِتابِ .

٣ـ هَل تَسْتَلزِمُ الجِزيَةُ قَهرَ النّاسِ عَلى الإسلامِ ؟ بَيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ بيِّنْ كَيفَ شابَهَ قَولُ اليَهودِ وَالنَّصارى في الكُفرِ قَولَ الكافِرينَ قَبْلَهُمْ .

٥ـ ما مَعنى عِبادَةُ اليَهودِ وَالنَّصارى لأَحْبارِهِم وَرُهبانِهِم ؟

٦ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يلي :

أـ مَشروعِيَّةُ أَخْذِ الجزيَةِ مِن أهلِ الكِتابِ .

ب ـ كُفْرُ اليَهودِ والنَّصارى .

ج ـ النَّصْرُ قادِمٌ بِإذنِ اللهِ تَعالى .

د ـ الإسلامُ دينُ الحَقِّ .

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دفترِكَ الآيَةَ المُماثِلَةَ لِلآيَةِ (٣٢) مِن سُورَةِ الصَّفِّ ، وَبيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بَيْنَهُما .

٢ـ ارجِع إلى تَفسيرِ ابنِ كَثيرٍ وَدوِّن في دَفْتَرِكَ عِندَ تَفسيرِ الآيَةِ (٣٢) الأحاديثَ الّتي ذَكَرَها ، وَالّتي تُرشِدُ إلى بِشارَةِ المُؤْمِنينَ بنَصرِ اللهِ تَعالى ، وَاقرَأها عَلى طُلابِ المَدرَسَةِ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا
يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَكْنِزونَ : يَجْمَعونَ الأَمْوالَ وَيخْزِنونَها وَيُمسِكونَها عَن الإنفاقِ .

بَشِّرْهُمْ : أنذِرهُمْ ، وَهِيَ عَلى سَبيلِ التَّهَكُّمِ .

تُكْوى : يُلْصَقُ الحارُّ مِنَ الحَديدِ وَالنّارِ بَأجسادِهِم حَتّى تَحتَرِقَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أن بيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ أَقْوالِ أهلِ الكِتابِ القَبيحَةِ ، وَبَعضَ أَفْعالِهِمُ الذَّميمَةِ ، تَوَجَّهَ بِالخِطابِ إلى المُؤْمنينَ مُبيِّناً لَهُم سِيَرَ كَثيرٍ مِنَ الأحبارِ وَالرُّهبانِ العَمَليَّةَ ، وكاشِفاً نَفسيَّتَهُم تِجاهَ المالِ ، حَتّى يَقِفَ أهلُ الكِتابِ عَلى خَطَئِهِمْ في اتّخاذِ الأحبارِ والرُّهبانِ أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ تَعالى والإقتداءِ بِهِم ، وَليعلَمَ المُسلِمونَ السِّرَّ في عِنادِهِم وَكُفرِهِم ، وَأَنَّهُم يُريدونَ إطفاءَ هذا النُّورِ لأَنَّهُم أَلِفوا الضَّلالَ ، ألا ساءَ ما كانوا يَعمَلونَ ، وَلْيَحذَرِ المُسلِمونَ مِنَ الوقوعِ فيما وَقَعوا فيهِ ، قالَ تَعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِجَريمَتَيْنِ أخلاقيَّتَيْنِ مِنْ جَرائِمِ هؤُلاءِ الأحبارِ وَالرُّهبانِ وَهُما : أَكْلُ أموالِ النّاسِ بِالباطِلِ ، وَالثّانِيَةُ : الصَّدُّ عَن سبيلِ اللهِ تَعالى . وَتَستَتبِعُ هاتَيْنِ الجَريمَتَيْنِ جَريمَةٌ أخرى هِيَ لَهُما تَبَعٌ ، وَهِيَ عَدَمُ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَعالى وَرُسُلِهِ : اعْلَموا أَنَّ كَثيراً مِنَ الأحبارِ وَالرُّهبانِ لَيَأكُلونَ أموالَ النّاس بِالباطِلِ لا بِالحَقِّ . وَإنَّما نَسَبَ هذا الفِعْلَ لِكَثيرٍ مِنهُم لا لَهُم جَميعاً ، إحقاقاً لِلحَقِّ ، فإنَّ أكثَرَهُم فاسِقونَ ، وَالقَليلَ النّادِرَ مِنهُم صالِحونَ .

وَعَبَّرَ القُرآنُ الكَريمُ عَنْ هذِهِ الأفعالِ الذَّميمَةِ بِالأَكْلِ ، لأنَّ الأَكْلَ هُوَ المَقصودُ المُهِمُّ مِنْ أخذِ الأموالِ وَالتَّصَرُّفِ فيها هذِهِ التَّصَرُّفاتِ الباطِلَةَ .

وَأَمّا صَدُّهُم عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى فبِما يَختَلِقونَ عَلى اللهِ تَعالى مِنَ الكَذِبِ وَيَصِفونَ النَّبِيَّ ﷺ بِأحقرِ الأوصافِ الّتي لا تَليقُ يَكتُمونَ صِفَتَهُ وبِشارَتَهُ الّتي هِيَ عِندَهُم ، وَالنَّصارى انفَرَدوا في هذِهِ الأيّامِ بِالمُبالَغَةِ في الصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى بِالتَّبشيرِ في البِلادِ الإسلاميَّةِ عَنْ طَريقِ المَدارِسِ وَالمُستَشفَياتِ وَالجَمعيّاتِ .

وَأَمّا قَولُهُ تَعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ . فَالمُرادُ مِنهُ : إمّا الأَحْبارُ وَالرُّهبانُ ، أَوْ يُؤخَذُ عَلى عُمومِهِ فَيَشمَلُ هؤُلاءِ وَغَيْرَهُم مِمَّنْ يَفعَلونَ هذا الفِعْلَ ، وَالمَعنى : والّذينَ يَجْمَعونَ المالَ وَيَحبسونَهُ عَنِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى فَبَشِّرهُم ، أيْ أنذِرهُم إنذاراً بِأَنَّ اللهَ تَعالى سَيُعَذِّبُهُم عَذاباً أليماً بِسَبَبِ حَبْسِهِمُ المالَ عَنِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

وَكَنْزُ المالِ لا يَكونُ خَطِراً إلاّ إذا مُنِعَتْ فيهِ حُقوقُ اللهِ تَعالى ، أَمّا إذا أُدِّيَتِ الحُقوقُ الواجِبَةُ في هذا المالِ فَلا ضَيْرَ في جَمْعِهِ .

وَالعذابُ الّذي تَوَعَّدَ بِهِ هؤُلاءِ الكافِرينَ عَذابٌ أليمٌ جِدّاً جاءَ تَفصيلُهُ في قَولِهِ تَعالى :

﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يُجاءُ بَهذا الذَّهَبِ وَهذِهِ الفِضَّةِ الّتي كَنَزوها ، فَيوقَدُ عَلَيْها في النّارِ حَتّى تَحمى فَتُكوى بِها جِباهُهُمُ الّتي طالَما اغتَرَّتْ بِكَثْرَةِ المالِ ، وَتُكوى جُنوبُهُمُ الّتي طالَما تَمَتَّعَتْ بِالحَريرِ وَالدِّيباجِ ، وَتُكوى ظُهورُهُمُ الّتي طالَما استَنَدَت لِلمالِ ، عَلى أنَّ الكَيَّ عَلى الوَجهِ أَشهَرُ وأَشنَعُ ، وَالكَيُّ عَلى

الجَنبِ وَالظَّهرِ أوْجَعُ وآلَمُ ، ويُقالُ لَهُم : هذا جَزاءُ ما كنَزتُم لأنفُسِكُمْ فَذوقوا ما كُنتُمْ تكنِزونَ .

وَمن صُوَرِ تَعذيبِ الكافِرينَ بِأموالِهِم ما ذَكَرَهُ الإمامُ البُخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى في صَحيحِهِ ، قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فَلَم يُؤَدِّ زَكاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يومَ القِيامَةِ شُجاعاً أقرَعَ لَهُ زَبيبَتانِ ، يُطَوِّقُهُ يومَ القِيامَةِ ثُمَّ يَأخُذُ بِلِهزِمَتَيهِ ـ يَعني شِدقَيهِ ـ ثُمَّ يَقولُ : أنا مالُكَ ، أنا كَنْزُكَ ، ثُمَّ تلا قولَهُ تَعالى : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1] [آل عمران : ١٨٠] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّحذيرُ مِنَ الانقِيادِ لِدُعاةِ السُّوءِ ، وَمِن تَقليدِهِم في رَذائِلِهِم وَقَبائِحِهِم ، وَوُجوبُ السَّيْرِ عَلى حَسَبِ ما جاءَ بِهِ الإسلامُ مِن تَعاليمَ وَتَشريعاتٍ .

٢ـ أكْلُ أموالِ النّاسِ بِالباطِلِ جَريمَةٌ أخلاقِيَّةٌ .

٣ـ تَحريمُ كَنْزِ المالِ وَمنعِ إخراجِ الحُقوقِ مِنهُ .

٤ـ إباحَةُ اقتِناءِ المالِ الزّائِدِ عَنِ الحاجَةِ ما دامَتْ تُؤدَّى زَكاتُهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يَكْنِزونَ ، بَشِّرْهُمْ ، تُكْوى .

٢ـ بيِّنِ الجَريمَتَيْنِ الأخلاقِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحدَّثَتْ عَنهُما الآيَةُ الأولى (٣٤) .

٣ـ بيِّنْ بَعضَ صُوَرِ أكْلِ أموالِ النّاسِ بِالباطِلِ .

٤ـ مَا السِّرُّ في قَولِهِ تَعالى : ﴿يَأكلونَ أموالَ النّاسِ﴾ ؟

٥ـ متَى يَكونُ كَنْزُ المالِ حَراماً ؟ وهَلْ يكونُ المالُ الّذي أُخْرِجَتْ زَكاتُهُ كَنْزاً ؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة حديث رقم : ١٤٠٣ .

٦ـ بَيَّنَت الآيَةُ الثّانِيَةُ (٣٥) العَذابَ المُتَوعَّدَ بِهِ الكانِزونَ لأموالِهِم ، وَذَكَرَتهُ في صُورَةٍ مُؤلِمَةٍ ، بَيِّنْ هذا العَذابَ مِن خِلالِ تِلكَ الآيةِ .

٧ـ في الحَديثِ أيضاً صورَةٌ لِعَذابِ هؤُلاءِ النّاسِ ، بَيِّنْها .

٨ـ ما الأثَرُ النَّفْسيُّ الحاصِلُ لَدَيْكَ بَعْدَ سَماعِكَ لِهذا اللَّونِ مِنَ العَذابِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بعضَ المُمارَساتِ الّتي تَدُلُّ عَلى أكْلِ الأحبارِ وَالرُّهبانِ المالَ بِالباطِلِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرَكَ ثَلاثَةً مِنَ الحُقوقِ الّتي فَرَضَها اللهُ تَعالى في المالِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ العاشِرُ

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟
ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا
ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عِدَّةَ الشُّهورِ	: عَدَدَ الشُّهورِ .
حُرُمٌ	: جَمعُ حَرامٍ ، والمُرادُ احْتِرامُ هذِهِ الشُّهورِ وَامتِناعُ القِتالِ فيها .
كافَّةً	: جَميعاً .
النَّسيءُ	: تَأخيرُ حُرْمَةِ شَهرٍ إلى شَهرٍ آخَرَ .
لِيُواطِئوا	: لِيُوافِقوا .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ ما يَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوقِفُ المُؤْمِنينَ مِنْ أَهلِ الكِتابِ ، وَكَشَفَتْ عَنْ أَحوالِهِمُ الباطِلَةِ ، وَعَنْ جُحودِ رُؤَسائِهِم لِلحَقِّ ، وَعَنِ انقيادِ عامَّتِهِم لِلضَّلالِ ، وَعَنِ استِحلالِ كَثيرٍ مِنْ أَحبارِهِم ورُهبانِهِم لِمَحارِمِ اللهِ تَعالى . بَعْدَ ذلِكَ عادَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ إلى تَكمِلَةِ الحَديثِ عَن أَحوالِ المُشْرِكينَ السَّيِّئَةِ وَعَن وُجوبِ مُقاتَلَتِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

إنَّ عِدَّةَ شُهورِ السَّنَةِ القَمَرِيَّةِ اثنا عَشَرَ شَهراً في حُكْمِ اللهِ تعالى وَتَقديرِهِ ، وَفيما بيَّنَهُ في كُتُبِهِ مُنذُ خَلَقَ العالَمَ سَماءَهُ وَأرْضَهُ ، وَأنَّ هذهِ الشُّهورَ مِنها أربَعَةُ أشهُرٍ حُرُم ، أيْ : مُحَرَّمٌ فيها القِتالُ ، وَهِيَ : ذو القِعدَةِ ، وَذو الحِجَّةِ ، وَالمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ ، وَقَد أجمَعَ عُلَماءُ الإسلامِ عَلى ذلِكَ ، وبِهذا جاءَتِ الأحاديثُ الشَّريفَةُ ، مِنها ما أخرَجَهُ الإمامُ البُخاريُّ عَن أبي بَكْرٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ في خُطبَةِ حِجَّةِ الوَداع : (إنَّ الزَّمانَ قَد استَدارَ كَهَيئَتِهِ يَومَ خَلَقَ اللهُ تَعالى السَّمواتِ وَالأرضَ ، السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهراً مِنها أَربَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلاثٌ مُتَوالياتٌ : ذو القِعدَةِ ، وَذو الحِجَّةِ ، وَالمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الّذي بَينَ جُمادى وَشَعبانَ)[1] .

وَقَد بَيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أنَّ هذا التَّحريمَ لِهذِهِ الأشْهُرِ الأربَعَةِ المَذْكورَةِ هُوَ دينُ اللهِ تَعالى المُستَقيمُ ، الّذي لا تَبديلَ فيهِ وَلا تَغييرَ ، وَحثَّتِ الآيَةُ الكَريمَةُ : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ عَلى عَدَمِ الظُّلْمِ في هذِه الأشْهُرِ باسْتِحلالِ القِتالِ أوِ الامتِناعِ عَنهُ إذا أغارَ عَلَيْكُمُ الأعداءُ فيها .

والنَّهْيُ عَنِ الظُّلمِ في هذِهِ الأشْهُرِ الأربَعَةِ ، يَعْني بالقِتالِ فيها ، ولا يَعني أنَّهُ مُباحٌ في بَقِيَّةِ الأشهُرِ ، فَالظُّلمُ حَرامٌ في الأشهُرِ الحُرُمِ وَغَيرِها ، وَلكِنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ هذا لِخُصوصِيَّةِ هذِهِ الأشهُرِ ، وَلأنَّ فيها مِنَ الأحكامِ ما لَيسَ في غَيرِها .

ثُمَّ وَجَّهَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ النِّداءَ لِلمُؤْمنينَ بأنْ يُقاتِلوا جَماعَةَ المُشْرِكينَ دونَ استِثناءِ أَحَدٍ مِنهُم ، كَما أنَّهم يُقاتِلونَكُم أيُّها المُؤمِنونَ مُعادينَ لَكُم جَميعاً ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِأدَبٍ عالٍ مَعَ اللهِ تَعالى حَثّاً لِلمُؤْمِنينَ عَلى أنْ يَكونوا عَلى يَقينٍ مِنْ أنَّ اللهَ تَعالى ناصِرٌ لِلّذينَ يَخافونَ ، فَيَلتَزِمونَ أوامِرَهُ ، وَيجتَنِبونَ نَواهيهِ .

وَبَعْدَ هذا نَعى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى المُشْرِكينَ ما كانوا يَعْمَلونَ مِنْ تَقديمِ الأشهُرِ وَتَأخيرِها حَسَبَ أهوائِهِم وَتأييداً لِمَآرِبِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

---

(١) أخرجَهُ البخاريُ ، وسمّاهُ النبيُ ﷺ رجبَ مضرٍ ، لأنَّ بني ربيعةَ بنَ نزارٍ كانوا يُحرِّمونَ شهر رمضان ، ويسمّونهُ رجباً ، وكانتْ قبيلةُ مضرٍ تحرِّمُ رجبَ نفسهُ : ٤/ ١٧١٢ حديث رقم(٤٣٨٥) .

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الحادي عَشَرَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ
أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ
خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **انْفِروا** : اخْرُجوا لِلجهادِ بِسُرعَةٍ وَنَشاطٍ .
- **اثّاقَلتُمْ** : تَثاقَلتُمْ وَتَباطَأْتُمْ مائِلينَ إلى الرَّاحَةِ وَإِلى شَهَواتِ الدُّنيا الفانِيَةِ .
- **الغارِ** : غارِ ثَورٍ ، الّذي أوى إليهِ الرَّسولُ يَومَ الهِجرَةِ .
- **كَلِمَةَ الّذين كَفَروا** : كَلِمَةَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ ، وَدَولَتَهُ .

التَّفسيرُ :

هذِهِ الآياتُ إلى آخِرِ السُّورَةِ الكَريمَةِ نَزَلَتْ في غَزوَةِ تَبوكَ ، تُقَوِّي مِن عَزْمِ المُؤْمِنينَ ، وتَكشِفُ

عَنْ كَذِبِ المُنافِقينَ ، وَتُبَيِّنُ أحكاماً كَثيرَةً لازِمَةً لِجماعَةِ المُؤْمِنينَ ، وَتُعاتِبُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسول اللهِ ﷺ .

وَغَزوَةُ تبوكَ كانَت في السَّنَةِ التّاسِعَةِ لِلهِجرَةِ ، بِسَبَبِ حُشودِ الرُّوم وَأتباعِهِم لِحَربِ المُسلِمينَ ، وَكانَ المُسلِمونَ في عُسْرَةٍ وَضيقٍ ، لِهذا كَرِهَ بَعضُ المُسلِمينَ الخُروجَ إلى القِتالِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ آمَنوا باللهِ وَرَسولِهِ : مالَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ ، يَعني : ما الّذي جَعَلَكُم تباطَأتُم عَنِ الخُروجِ إلى الجِهادِ حينَ دَعاكُمْ رَسولُكُم ﷺ إلى قِتالِ الرُّوم ، وإلى النُّهوضِ لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنُصْرَةِ دينِهِ . وَقَد ناداهُم سُبْحانَهُ وتَعالى بِصيغَةِ الإيمانِ لِتَحريكِ واعِظِ العَقيدةِ في قُلوبِهِم ، ثُمَّ خاطَبَهُم مَتَعَجِّباً مِنهُم : عَجَباً لَكُمْ آآثَرتُم الحَياةَ الدُّنيا الفانِيَةَ عَلى الحَياةِ الآخِرَةِ وَنَعيمِها الدّائِم ، فَما التَّمتُّعُ بِالدُّنيا وَلَذائِذِها في جَنبِ مَتاع الآخِرَةِ إلاّ قَليلٌ تافِهٌ . قالَ رَسولُ اللهِ في بَيانِ حَقارَةِ الدُّنيا بالنِّسبَةِ لِلآخِرَةِ : (ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاّ كَما يَجعَلُ أحَدُكُم إصْبَعَهُ هذِهِ في اليَمِّ ، فَلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ)[1] .

ثُمَّ هَدَّدَهُم سُبْحانَهُ وتَعالى بِالعَذابِ الأليمِ إنْ لَم يَنفِروا لِلجهادِ في سَبيلِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

إنْ لَم تَستَجيبوا لِلرَّسولِ ﷺ ، فَتَخرُجوا لِلجهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، يُعَذِّبْكُمُ اللهُ عَذاباً موجِعاً ، وَيستَبدِلِ اللهُ تَعالى بِكُم قَوماً آخَرينَ يَستَجيبونَ لِلرَّسولِ ﷺ ، وَلا يَتَخَلَّفونَ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَأنتُم بِتَخَلُّفِكُم هذا لا تَضُرُّونَ اللهَ تَعالى شَيئاً ، لأنَّكُمْ أنتُمُ الضُّعَفاءُ ، وَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى القَديرُ عَلى كُلِّ شَيءٍ ، فَالخَسارَةُ إنّما تَعودُ عَلَيْكُم .

وَهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ والّتي سَبَقَتها اشتَمَلتا عَلى أقوى الأساليبِ الّتي تَحُضُّ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَتُرَغِّبُ فيهِ ، وَتُرَهِّبُ مِنَ النُّكوصِ وَالتَّخَلُّفِ عَنهُ ، وَتَبعَثُ عَلى الجِدِّ في طاعَةِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَكَّرَ المُؤْمِنينَ بِما يَعرِفونَهُ مِنْ حالِ الرّسولِ ﷺ ، حَيثُ إنَّ اللهَ تَعالى نَصَرَهُ عَلى أعدائِهِ مِنْ دونِ عَوْنٍ مِنهُم ، وَأيَّدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِجُنودٍ لم يَرَها المُؤْمِنونَ ، وهذا كُلُّه

---

(١) رواه مسلم في صفة الجنة حديث رقم : ٢٨٥٨ .

بيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى أنَّهُ مُتكفِّلٌ بنَصرِ رَسولِهِ ﷺ على أعدائهِ ، وإظهارِ دينِهِ علَى سائِرِ الأديانِ أعانَهُ المُؤْمِنونَ عَلى ذلِكَ أم لَم يُعينوهُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

يا أَيُّها المُؤْمِنونَ : إنْ لَم تَنصُروا رَسولَ اللهِ ، فَإنَّ الله تَعالى كَفيلٌ بنَصْرِهِ وَتأْييدِهِ ، كَما أَيَّدَهُ وَنَصرَهُ حينَما اضطَرَّهُ الّذينَ كَفَروا إلى الخُروجِ مِن مَكَّةَ وَلَيسَ مَعَهُ إلاّ رَفيقُهُ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، وكانَ ثانيَ اثنَيْنِ ، وَبَينَما هُما في الغارِ مُختَفِيانِ عَنْ أعْيُنِ الكُفّارِ الّذينَ يَتعقَّبونَهُما ، خَشِيَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَلى حَياةِ الرَّسولِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ مُطَمْئِناً : لا تَحزَنْ ، إنَّ اللهَ معنا بِالنَّصْرِ وَالمَعونَةِ ، عِندَ ذلِكَ أنْزَلَ اللهُ تَعالى الطُّمَأْنينَةَ في قَلْبِ صاحِبِه ، وَأَيَّدَ رَسولَهُ ﷺ بِجُنودٍ مِنْ عِندِهِ ، لا يَعلَمُها إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ ، وَانتَهى الأمرُ بأنْ جَعَلَ اللهُ تَعالى شَوْكَةَ الكافِرينَ مَكسورَةً ، مَقهورَةً ، وَدينُ اللهِ هُوَ الغالِبُ ، وَكَلِمَتُهُ هِيَ العُليا ، وَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يُقهَرُ ، حَكيمٌ لا يَختَلُّ تَدبيرُهُ وَلا خَللَ في فِعْلِهِ .

وبَعدَ هذا التَّذكيرِ لِلمُؤْمِنينَ بما كانَ مِنهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ تأييدٍ لِرَسولِهِ ﷺ عِندَ هِجرَتِهِ ، أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِالنَّفيرِ في كُلِّ حالٍ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا إذا دَعا داعي الجِهادِ فَلَبُّوا النِّداءَ شَباباً وَشيباً ، رُكباناً وَمُشاةً ، سَهُلَ النَّفْرُ عَلَيكُم أو ثَقُلَ وَصَعُبَ ، وَانْشَطوا بِالقُوّةِ وَالسِّلاحِ ، وَجاهِدوا بِالمالِ وَالنَّفسِ في سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، فَفي ذلكَ العِزُّ وَالخَيرُ لَكُم في دُنياكُم وَفي آخِرَتِكُم ، إنْ كُنتُم مِن أهلِ العِلْمِ بِحقيقَةِ ما بَيَّنَ لَكُم خالِقُكُم وَمُرَبّيكُم عَلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ .

وَلَقَدْ أدرَكَ المُؤْمِنونَ الصّادِقونَ حَقيقَةَ هذا الخَيرِ ، فامتَثَلوا أمْرَ رَبِّهِم ، وَنَفَروا لِلجِهادِ في سَبيلِهِ خِفافاً وَثِقالاً ، دونَ تَباطُؤٍ أو تَقاعُسٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّحذيرُ مِن مُخالَفَةِ أمرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ بالإخلادِ إلى الأرضِ .

٢ـ الحَياةُ الدُّنيا في جَنْبِ الآخِرَة مَتاعٌ قَليلٌ زائِلٌ .

٣ـ وَجوبُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بِكُلِّ حالٍ ، وَالتَّحذيرُ مِنَ القُعودِ عَنهُ .

٤ـ ضَرَرُ القُعودِ عَن الجِهادِ يُلازِمُ القاعِدينَ .

٥ـ بَيانُ نِعمَةِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ بِنُصْرَةِ رَسولِهِ ﷺ وَإعلائِهِ كَلِمَتَهُ وَعنايَتِهِ بِرَسولِهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

انفِروا ، أثّاقَلْتُم ، كَلِمَةَ الّذينَ كَفَروا ، كَلِمَةُ اللهِ .

٢ـ بيّنْ ما الّذي يَجبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوقِفُ المُؤْمِنِ حينَ يُدْعى إلى النَّفيرِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ جَزاءَ القُعودِ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، بَيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ بَيِّن كَيفَ تَستَدِلُّ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى فَضْلِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ .

٥ـ في الآيَةِ الأخيرَةِ (٤١) بَيانٌ لِوُجوبِ الجِهادِ ، بَيِّنْ ذلِكَ .

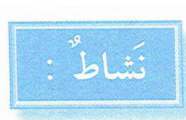
٦ـ ماذا تَفهَمُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿أَرَضيتُم بِالحياةِ الدُنيا مِنَ الآخِرَةِ﴾ .

ب ـ ﴿وَلا تَضُرّوهُ شَيئاً﴾ .

ج ـ ﴿إلاّ تَنصُروهُ فَقَد نَصَرَهُ اللهُ﴾ .

٧ـ بيّنْ سببَ نزولِ هذهِ الآياتِ .



١ـ ماذا تَفهَمُ مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿كلمةُ اللهِ هِيَ العليا﴾ بَعدَ قَولِهِ تَعالى : ﴿وجَعَلَ كلمةَ الّذينَ كَفروا السُّفلى﴾ ؟ اكتُبِ الجوابَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى أحَدِ كُتُبِ السّيرَةِ النَّبويَّةِ ، واكتُبْ أسبابَ غَزوَةِ تَبوكَ ، وانقُلْ ذلِكَ إلى دَفْتَرِكَ .

اقرأْ وتدبَّرْ :

ذَكَرَ القُرطُبيُّ أنَّ أبا طَلحَةَ قَرَأَ سورَةَ (بَراءَةٍ) فَأتى عَلى هذِهِ الآيَةِ : ﴿انفِروا خِفافاً وثِقالاً﴾ فقالَ : أيْ بَنِيَّ ، جَهِّزوني جَهِّزوني ، فَقالَ بَنوهُ : يَرحَمُكَ اللهُ! لَقَد غَزَوتَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ حَتّى ماتَ ، وَمَعَ أبي بَكْرٍ حَتّى ماتَ ، وَمَعَ عُمَرَ حَتّى ماتَ ، فَنَحنُ نَغزو عَنكَ ، فَقالَ : لا ، جَهِّزوني ، فَغَزا في البَحرِ فَماتَ في البحرِ ، فَلَم يَجِدوا لَهُ جَزيرةً يَدفِنونَهُ فيها إلاّ بَعْدَ سَبعَةِ أيّامٍ ، فَدَفَنوهُ فيها ، وَلَم يَتَغَيَّرْ رَضِيَ اللهُ عَنهُ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ التّاسِعُ والعِشرونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ
أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عَرَضاً	: غَنيمَةً أو مَتاعاً .
سَفراً قاصِداً	: سَهلاً لا عَناءَ فيهِ وَلا مَشَقَّةَ .
الشُّقَّةُ	: المَسافَةُ البَعيدَةُ الشّاقَّةُ .
ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ	: اضْطَرَبَتْ وَأَصابَها الهَلَعُ مِن ثِقَلِ الدِّينِ الجَديدِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ تَحذيرِ المُؤْمِنينَ مِنَ القُعودِ عَنِ الجِهادِ ، وَبَيانِ نَصرِ اللهِ تَعالى لِرَسولِهِ ﷺ ، أَخَذَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في بَيانِ قَبائِحِ المُنافِقينَ ، وَمَعاذيرِهِمُ الواهِيَةِ وَمَسالِكِهِمُ الخَبيثَةِ ، وَأَيْمانِهِمُ الفاجِرَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

نَدَّدَ القُرآنُ الكَريمُ بِالمُنافِقينَ في تَخَلُّفِهِم عَنْ مُتابَعَةِ الرَّسولِ ﷺ وَالجِهادِ مَعَهُ ، فَقالَ : لَو كانَ

الّذي دَعوتَهُم إليهِ يا مُحَمَّدُ ﷺ متاعاً مِنْ مُتعِ الحَياةِ الدُّنيا ، وَسَفَراً سَهْلاً قَريباً لاتّبَعوكَ فيما دَعوتَهُم إلَيهِ ، لأنَّهُ يُوافِقُ أهواءَهُم ، وَيشْبِعُ رَغَباتِهِم ، وَلَكِنَّهُم حينَ عَرَفوا أنَّ ما دَعوتَهُم إلَيهِ هُوَ الجهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَما يَصحَبُهُ مِن سَفَرٍ وَمَشَقَّةٍ ، وَتَضحِياتٍ جَسيمَةٍ ، تَعَلّلوا لَكَ بِالمَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، وَتَخَلّفوا عَنِ الخُروجِ مَعَكَ ، جُبْناً مِنهُم ، وَحُبّاً لِلرّاحَةِ وَالسَّلامَةِ ، وَسَيَحلِفُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ بِاللهِ تَعالى كَذِباً وَزوراً قائِلينَ : لَو اسْتَطَعْنا أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ نَخرُجَ مَعَكُم لِلْجِهادِ في تبوكَ لَخَرَجنا ، فَإنَّنا لَم نَتَخَلَّفْ عَنِ الخُروجِ مَعَكُم إلاّ مُضطَرّينَ ، فَقَد كانَ لَنا مِنَ الأعذارِ ما حَمَلَنا عَلى التَّخَلُّفِ عَنكُم .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى سوءَ مَصيرِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الكَذّابينَ فَقالَ : ﴿ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ .

أيْ أنَّ هؤُلاءِ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجهادِ يُهْلِكونَ أنفُسَهُم بِإيقاعِها في ضُرِّ الدُّنيا وَعَذابِ الآخِرَةِ بِسَبَبِ حَلْفِهِمُ الكاذِبِ ، وَجُرْأتِهِم عَلى اللهِ تَعالى في اختِلاقِ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ الباطِلَةِ ، مَع أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَعلَمُ كَذِبَهُم في أيْمانِهِم ، وَفيما قَدَّموهُ مِنْ أعذارٍ .

ثُمَّ عاتَبَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى نَبيَّهُ مُحَمَّداً عِتاباً رَقيقاً ، لأنَّهُ أذِنَ لِلمُنافِقينَ الّذينَ استَأذَنوهُ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الجِهادِ حينَ طَلَبوا ذلِكَ دونَ أنْ يَتَبَيَّنَ أحوالَهُم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

عَفا اللهُ تَعالى عَنكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ وَتَجاوَزَ عَنْ مُؤاخَذَتِكَ فيما فَعلْتَهُ مَعَ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِن سَماحِكَ لَهُم بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الجهادِ مَعَكَ في غَزوَةِ تَبوكَ ، حينَ اعتَذَروا إليكَ بِالأعذارِ الكاذِبَةِ ، وَكانَ الأولى بِكَ أنْ تَتَرَيَّثَ وَتَتَأنّى في السَّماحِ لَهُم بِالتَّخَلُّفِ ، حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الّذينَ صَدَقوا في اعتِذارِهِم مِنَ الّذينَ كَذَبوا فيهِ ، فَقَد كانوا كاذِبينَ في مَعاذيرِهِم ، وَكانوا مُصِرّينَ عَلى القُعودِ عَنِ الجِهادِ حَتّى لَو لَمْ تَأذَنْ لَهُم بِذلِكَ . وَهذا عِتابٌ رَقيقٌ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ . وَفي هذِهِ المُعاتَبَةِ الرَّقيقَةِ تَعليمٌ لِلمُؤْمنينَ جَميعاً أنْ يَحتَرِموا رَسولَ اللهِ ﷺ وَيُوَقِّروهُ ، لأنَّ في هذِهِ الرِّقَّةِ في العِتابِ مِنْ تَعظيمِ شَأنِ النَّبيِّ ﷺ شَيئاً كَبيراً .

ثمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الصِّفاتِ الّتي يَتَميَّزُ بِها المُؤْمِنونَ الصّادِقونَ عَن غَيرِهِم مِنَ المُنافقينَ الكاذِبينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

لَيسَ مِنْ شَأنِ المُؤْمِنينَ بِاللهِ تَعالى الصّادِقينَ أنْ يَستَأذِنوكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ كَيلا يُجاهِدوا بِأموالِهِم وَأنفُسِهِم في سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنُصْرَةِ دينِهِ ، وَإنَّما هُوَ شَأنُهُم وَعادَتُهُم ـ كما ظَهَرَ ذلِكَ مِن

واقِعِهم وتاريخِهم ـ أنْ يَنفِروا خِفاقاً وَثِقالاً ، وَيُلبّوا نِداءَ الحَقِّ مُسرِعينَ غَيرَ مُتَثاقِلينَ وَلا مُتَباطِئينَ عِندَما يَدعو داعي الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَهُم لا يَنتَظِرونَ إذْناً مِنْ أحَدٍ ، وَإنَّما فَوْرَ أنْ تَدعوهُم يُسرِعونَ في إجابَةِ الطَّلَبِ وذَلِكَ لِقُوَّةِ إيمانِهِم ، وَصَفاءِ نُفوسِهِم ، وَاشتياقِهِم إلى الشَّهادَةِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

والمُؤْمِنونَ في هذا الجانِبِ يَمْتَثِلونَ أوامِرَ رَسولِهِم ﷺ ، وَيُحقِّقونَ قَولَهُ ، الّذي مِنهُ ما أخرَجَهُ الإمامُ مُسلِمٌ في صَحيحِهِ ، عَن أبي هُرَيْرَةَ عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ : (مِنْ خَيرِ مَعاشِ النّاسِ لَهُم ، رَجُلٌ مُمسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى يَطيرُ عَلى مَتنِهِ ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طارَ عَلَيْهِ يَبتَغي القَتْلَ أو المَوتُ مَظانَّهُ)[1] .

وَكَيفَ لا يَستَجيبُ المُؤْمِنونَ لِهذا الّذي يَدعوهُم إلى الجَنَّةِ ، بَل لَقَدِ استَجابوا وَكانَتِ استِجابَتُهُم مَثَلاً رائِعاً في طاعَةِ المُؤْمِنينَ لِرَبِّهِم تَبارَكَ وتَعالى وَلِنَبِيِّهِم ﷺ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فائِدَتُها التَّنبيهُ عَلى أنّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى أسرارِ المُؤْمِنينَ ؛ إذْ هُم المُرادُ بِالمُتَّقينَ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الصِّفاتِ الّتي يُعرَفُ بِها المُنافِقونَ بَعْدَ أنْ بَيَّنَ الصِّفاتِ الّتي يَتَمَيَّزُ بِها المُؤْمِنونَ ، وهِيَ الإيمانُ بِاللهِ تَعالى ، وَالإيمانُ بِاليَومِ الآخِرِ ، وَالمُسارَعَةُ إلى فِعْلِ الخَيراتِ ، وأَمّا المُنافِقونَ فَقَد قالَ تَعالى عَنهُم :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

إنَّما يَستَأذِنُكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ في القُعودِ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أولئِكَ الّذينَ مِنْ صِفاتِهِم أنَّهم لا يُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى إيماناً صادِقاً كامِلاً ، وَلا يُؤمِنونَ بِاليَومِ الآخِرِ وَما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وَعِقابٍ عَظيمَيْنِ مِمّا جِئتَ بِهِ مِنَ الدِّينِ ، فَصاروا يَقِفونَ مِن تَعاليمِكَ وَتَوجيهاتِكَ مَوْقِفَ الفَزِعِ الهَلِعِ الخائِفِ .

هذا هُوَ مَوقِفُهُم لا يَخرُجونَ عَنهُ ، فَإنْ ظَهَرَ مِنهُم ما يُبدي خُروجَهُم عَن هذا المَوقِفِ سُرعانَ ما يَعودونَ إلَيهِ ، لأنَّه صارَ سِمَةً لازِمَةً لَهُم ، وَعَلامَةً فارِقَةً لَهُم عَن غَيرِهِم .

وَهذِهِ الآيَةُ ذَكَرتْ مِنْ صِفاتِهِم أشياءَ ثَلاثَةً ، هِيَ : عَدَمُ إيمانِهِم بِاللهِ تَعالى ، وَعَدمُ إيمانِهِم بِاليَومِ الآخِرِ ، وَتَقاعُسُهُمْ عَنِ امتِثالِ أوامِرِ اللهِ تَعالى وَأوامِرِ رَسولِهِ ﷺ المُتَمَثِّلِ في رَيْبَتِهِم مِنهُ ، لأنَّ

---

(١) أخرجَهُ الإمامُ مسلم في كتابِ الإمارة حديث رقم : ١٨٨٩ ، ومعنى من خير معاش : من خيرِ الحياةَ ، الهَيْعةُ : الصوت عندَ حضورِ العدوِّ ، مَتْنُهُ : ظَهْرُهُ .

مَن يرتابُ مِنْ شَيءٍ لا يَفعَلُهُ ، وَهكذا حَصَلَ التَّقابُلُ في هذِهِ الآيَةِ مَعَ الّتي سَبَقَتْها في صِفاتِ المُنافِقينَ مَعَ صفاتِ المُؤْمِنينَ ، لِيَميزَ اللهُ تَعالى الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَيْمانُ الكاذِبَةُ تُؤَدّي إلى الهَلاكِ وَالخُسرانِ .

٢ـ يَجبُ عَلى المُسلِمِ التَّريُّثُ في الحُكْمِ عَلى الأُمورِ ، وَعَدَمُ التَّسَرُّعِ في إصدارِ الأحكامِ ، حَتّى يَتَبَيَّنَ الدَّليلُ .

٣ـ الواجِباتُ وَالأفعالُ الحَسَنَةُ نُسارِعُ إلى فِعْلِها دونَ اسْتِئذانٍ .

٤ـ المُسارَعَةُ إلى تَنفيذِ أوامِرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ عَلامَةٌ فارِقَةٌ بَينَ المُؤْمِنينَ والمُنافِقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

أـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

عَرَضاً ، سَفَراً قاصِداً ، الشُقَّةُ ، ارتابَتْ قُلوبُهُم .

ب ـ بيَّنَتِ الآيَةُ الأولى (٤٢) أنَّهُ إذا تَحقَّقَ لِلمُنافِقينَ رَجاؤُهُم مِنَ الخُروجِ خَرجوا ، بيِّنْ ذلِكَ .

ج ـ ذكرتِ الآياتُ الكَريمةُ مُوازَنَةً بَينَ المُؤْمِنينَ والمُنافِقينَ ، بَيِّنْ صِفاتِ كُلٍّ مِنَ الطّائِفَتَيْنِ .

د ـ ماذا تَستَفيدُ مِنْ قولِهِ تعالى :

أـ يُهلِكونَ أنفُسَهُم .

ب ـ عَفا اللهُ عَنكَ .

هـ ـ في الآياتِ الكَريمَةِ أدبٌ سامٍ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَضِّحْ ذلِكَ .



نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الحديثَ الشَّريفَ الّذي يُبَيِّنُ صِفاتِ المُنافِقينَ .

الدَّرسُ الثّلاثونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّالِث عَشَر

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن
قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

انْبعاثَهُم : خُروجَهُم مَعَكَ لِلجهادِ .

ثَبَّطَهُم : أزالَ عَزيمَتَهُم عَنِ الخُروجِ وَحَبَسَهُم عَنهُ .

خَبالاً : فَساداً ، وَالمُرادُ اضْطِرابُ الجَيشِ وَاختِلالُ نِظامِهِ .

أَوْضَعوا خِلالَكُم : بَذَلوا جُهدَهُمْ لإيقاعِ التَّخاذُلِ وَالخَوْفِ بَينَ رِجالِ الجَيشِ .

التَّفسيرُ :

هُنا تُتابِعُ الآياتُ الكَريمَةُ بَيانَ بَعضِ المَسالِكِ الخَبيثَةِ الّتي كانَ يَتَّبِعُها هؤُلاءِ المُنافِقونَ لِمُحارَبَةِ الدّعوةِ الإِسلامِيَّةِ ، وَكَيفَ أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أحْبَطَ مَكْرَهُم وَأفسَدَ خُطَطَهُم ، وَذلِكَ بَعْدَ أن مَيَّزَ اللهُ تَعالى بَينَ المُؤْمِنينَ وَبَينَهُم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

وَلَو صَدَقَتْ نِيَّةُ هؤُلاءِ المُنافِقينَ في الخُروجِ مَعَ الرَّسولِ لِلجِهادِ لأخَذوا أُهبَةَ الحَربِ ، وَاستَعَدّوا لَها بِما يَلزَمُ مِنَ المالِ وَالزّادِ ، وَالرّاحِلَةِ ، وَتَهَيَّأَتْ نُفوسُهُم لِذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى كَرِهَ خُروجَهُم مَعَ المُسلِمينَ ، لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّهُم لَو خَرَجوا مَعَهُم لكانوا عَلَيْهِم لا لَهُم ، وَلِذلِكَ ثَبَّطَهُم اللهُ تَبارَكَ وتَعالى بِأَنْ خَلَقَ فيهِمُ الكَسَلَ ،وَضَعْفَ العَزيمَةِ عَلى الغَزوِ ، فَخارَتْ قِواهُم ، وَجَبُنوا ، وَتَنادَوْا فيما بَينَهُم أَنِ اقْعُدوا مَعَ القاعِدينَ ، أَصحابِ المَعاذيرِ وَالنِّساءِ وَالصِّبيانِ ، وَالمَرضى ، والمُستَضعَفينَ الّذينَ لا قُدرَةَ لَهُم عَلى المَعارِكِ وَخَوضِ الحُروبِ ، وَهكَذا هانَتْ عَلَيْهِم أَنفُسُهُم لَمّا قَعَدوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَهكَذا دائِماً أَوزارُ القُعودِ عَنِ الجِهادِ : خَوَرٌ ، وَضَعفٌ وَانحِلالٌ ، وَهَزيمَةٌ مَعنَوِيَّةٌ وَمادِّيَّةٌ ، وَاضطِرابٌ وَهَلَعٌ ، مُستَنقَعُ أَمراضٍ لا يُذهِبُهُ وَيُجفِّفُهُ إلاّ شَمسُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضاً مِنَ المَفاسِدِ الّتي تَتَرَتَّبُ عَلى خُروجِ المُنافِقينَ في جَيشِ المُؤْمِنينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

وَلَوْ خَرَجوا في صُفوفِ جَيشِكُمُ الغادي إِلى تَبوكَ ، ما زادوكُم بِخُروجِهِم قُوَّةً ، بَل كانَ غايَةُ قَصْدِهِم أَنْ يُشيعوا فيما بَينَكُمُ اضْطِراباً في الرَّأيِ ، وَفَساداً في العَمَلِ ، وَضَعْفاً في القِتالِ ، وَلأَجْهَدَ هؤُلاءِ المُنافِقونَ أَنفُسَهُم ، وَبذَلوا كُلَّ ما لَدَيْهِم مِنْ قُوَّةٍ في التَّشكيكِ وَالخَديعَةِ ، لإيقاعِ الفِتنَةِ فيما بَيْنَكُم ، كَيْما يَصُدّوكُم عَن غايَتِكُم بِإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَرُدّوكُمْ عَن مَقصِدِكُم الّذي قَصَدتُموهُ ، هُم يَفعلَونَ هذا لأنَّ هذا شَأنُ النُّفوسِ المَريضَةِ الّتي تَمكُرُ لَكُمُ الشَّرَّ ، وَتُريدُ لَكُمُ الشَّرَّ ، وَمَع هذا فإِنَّ فيكُم أَيُّها المُؤْمِنونَ مَنْ يَجهَلُ خُبْثَ نِيّاتِهِم ، وَيُمكِنُ أَنْ يُخدَعَ بِكَلامِهِم ، فَيَفتَحُ لَهُم أُذُنَيْهِ وَيَسمَعُ دَعوَتَهُم إِلى الفِتنَةِ الّتي مُؤَدّاها ضَعفُ المُسلِمينَ في دينِهِم أَو دُنياهُم . ثُمَّ هَدَّدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى المُنافِقينَ بِقَولِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الّذينَ يَظلِمونَ أَنفُسَهُم بِما أَضْمَروهُ مِنَ الفَسادِ .

و بِذلِكَ نَرى أَنَّ هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ قَدْ وَضَّحَتْ أَنَّ هُناكَ ثَلاثَ مَفاسِدَ كانَتْ سَتَتَرَتَّبُ عَلى خُروجِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مَعَ المُؤْمِنينَ إِلى تَبوكَ :

الأولى : زِيادَةُ الاضْطِرابِ وَالفَوضى في صُفوفِ المُجاهِدينَ .

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ** : لا تَقِفْ عَلى قَبْرِهِ عندَ الدَّفْنِ لِتَدْعُوَ لَهُ .
- **تَزْهَقَ أنفسُهُمْ** : تَخْرُجَ مِنْ أجسادِهِمْ بِمَشقَّةٍ .
- **أُولو الطَّوْلِ** : رؤساءُ المُنافِقينَ وأغْنياؤُهُمْ .
- **طُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ** : خُتِمَ عَلَيْها فما عادَتْ تَفْقَهُ شَيْئاً .
- **الخوالِفِ** : الّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الخُروجِ إلى تبوكَ معَ رَسولِ ﷺ .
- **لهمُ الخَيْراتُ** : هيَ كلُّ ما يُسَرُّ المُؤْمِنُ بهِ مِنَ الثَّوابِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى لِرسولِهِ ﷺ ما يَجِبُ أنْ يَفْعَلَهُ مَعَ المُنافِقينَ في حياتِهِمْ ، أَتْبَعَ ذلكَ بِبيانِ ما يجبُ أنْ يَفعلَهُ عندَ مَماتِهِم ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ المُنافقُ ، دُعِيَ الرّسولُ ﷺ للصّلاةِ عَليْهِ وحاوَلَ عمرُ بنُ الخطّابِ أنْ يحولَ بَيْنَ النَّبيِّ ﷺ وبَيْنَ هذهِ الصّلاةِ بتَعدادِ مَثالِبِ هذا المُنافِقِ ، وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ يقولُ للنَّبيِّ ﷺ : « أنا بَيْنَ خِيرَتَيْنِ ، قالَ اللهُ تَعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أو لا تَستَغفِرْ لهُمْ إنْ تَستغفِرْ لَهُمْ سَبعينَ مرّة فَلَنْ يَغفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ، ثُمَّ صلّى رسولُ اللهِ ﷺ ونَزَلَ قولُهُ تَعالى : ﴿ولاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنهُم مَّاتَ أَبداً﴾ فما صلّى رسولُ اللهِ ﷺ عَلى مُنافِقٍ بَعْدَها[1] .

لا تُصَلِّ أَيُّها الرّسولُ الكَريمُ ﷺ عَلى أحَدٍ مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ أبَداً ، ولا تَقُمْ عَلى قبرِهِ عِنْدَ الدّفْنِ أو بَعْدَهُ بِقَصْدِ الزِّيارةِ أوِ الدُّعاءِ لهُ ، لأنَّ صلاتَكَ عَلَيْهِم ، وَوُقوفَكَ عَلى قُبورِهِمْ شَفاعةٌ لَهُمْ ، ورحمةٌ بِهِمْ ، وتكريمٌ لِشَأْنِهِمْ ، وهُمْ ليسوا أهْلاً لذلكَ ، لأنَّهُمْ قَدْ عاشوا حَياتَهُمْ كافِرينَ باللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، ومُحارِبينَ لدعوةِ الحَقِّ ، وماتوا وهُمْ خارِجونَ عنْ دائرةِ الإيمانِ .

وقدْ جَمَعَ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ في هذهِ الآيةِ بَيْنَ وصْفَي (الكُفْرِ والفِسْقِ) وذلكَ زيادةً في تَقبيحِ أمْرِهِمْ ، وتحقيرِ شَأْنِهِمْ ، فهُمْ لمْ يَكْتَفوا بالكُفْرِ وَحدَهُ ، وإنّما أضافوا إليهِ الخُروجَ عنْ كُلِّ قولٍ طيّبٍ ، وخُلُقٍ حَسَنٍ ، وفِعْلٍ كريمٍ .

وبَعْدَ ذلكَ نَهى اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ وكلَّ مَنْ يَسمعُ هذا الخِطابَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، نَهاهُم عنِ الاغترارِ بما عندَ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِنْ مالٍ وَوَلَدٍ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

قدْ مضى نَظيرُ هذهِ الآيةِ مِنْ قَبْلُ ، وذَكَرْنا أنَّ اللهَ تَعالى قدْ كَشَفَ سِرّاً مِنْ أسْرارِ المُنافقينَ وماجُبلَتْ عليهِ نَفوسُهُم بأنَّ في نُفوسِهم شُحّاً وحِرْصاً عَلى المالِ ، وفِتنةً بتوفيرِهِ والإشْفاقِ مِنْ ضياعِهِ ، فَجَعَلَهُم بِسَبَبِ ذلِكَ في عناءٍ وعذابٍ مِنْ جَرّاءِ أموالِهِمْ ، منهُمْ مَنْ تَعِبَ مِنْ جَمْعِها ، وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ ، وفي أَلَمٍ مِنْ إنفاقِ ما يَضطرّونَ إلى إنْفاقِهِ مِنْ هذهِ الأموالِ ، فقدْ أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى تَعذيبَهُمْ بِسَبَبِها في الدُّنْيا ، وأَنْ يَموتوا وهُمْ كافِرونَ ، فلا يَنتفِعونَ بها كذلكَ في الآخِرَةِ ، لذلكَ نَهى اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ عَنِ النَّظَرِ إليْها والإعْجابِ بها .

وأمّا لِماذا ذُكِرَتْ هذهِ الآيةُ هُنا مَع ذِكْرِ ما يُقارِبُها في مَوْضِعٍ سابِقٍ ، فلأنَّ أشَدَّ الأشياءِ جَذْباً

---

(١) رواه البخاري ، كتابُ التفسير ، حديث رقم ٤٦٦٨ .

للقُلوبِ وجَلْباً للخواطِرِ إلى الاشْتِغالِ بالدُّنْيا ، هُوَ الاشْتِغالُ بالأموالِ والأولادِ ، وما كانَ كذلكَ ، يجبُ التَّحذيرُ مِنْهُ مرَّةً بَعْدَ مَرّةٍ ، أو لأنَّ المقصودَ هنا ألاّ يُقام وزْنٌ لأموالِهِمْ وأولادِهِمْ ، لأنَّ الإعْجابَ بها نوعٌ مِنَ التَّكريمِ الشُّعوريِّ لَهُمْ ، وهُمْ لا يَستحقّونَهُ لا في الظّاهِرِ ولا في الشُّعورِ ، إنّما هُوَ الاحْتِقارُ والإهْمالُ لَهُمْ ولِما يَمْلِكونَ .

وقيلَ إنّ الحديثَ في الآيتينِ عَنْ طائِفَتينِ مُختلِفَتَيْنِ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ مَوْقِفَ المُنافِقينَ مِنَ الجِهادِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ الصِّفاتِ الذَّميمةِ لِهؤلاءِ المُنافِقينَ ، أنَّهُمْ كُلّما نزَلَتْ سورةٌ قُرآنيَّةٌ ، تَدْعو في بَعضِ آياتِها النَّاسَ إلى الإيمانِ باللهِ تَعالى ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مَعَ رَسولِهِ ﷺ ، ما كانَ منهُمْ عندَ ذلِكَ إلاّ الجُبْنُ والاسْتِخْذاءُ في القُعودِ وعَدمِ الخُروجِ ، قائلينَ لَهُ ﷺ دونما حياءٍ ، وفي جُبْنٍ : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ .

وخُصَّ أُولو الطَّوْلِ مِنهُم بالذِّكْرِ هنا ، تَخليداً لِمَذمَّتِهِمْ واحْتِقارِهِمْ ، لأنّهُ كانَ المُتوقَّعُ مِنهُمْ أنْ يَتقدَّموا صُفوفَ المُجاهِدينَ ، لأنَّهُم يَمْلِكونَ وسائِلَ الجِهادِ والبَذْلِ ، فلا يَتخاذَلوا ويَعتذِروا ، ولكنَّهُمْ قالوا ما يَدُلُّ عَلى جُبْنِهِمْ والْتِوائِهِمْ . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى نَفْسيّاتِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

رضِيَ هؤُلاءِ المُنافِقونَ لأنْفُسِهِمْ أنْ يَبْقَوْا في المَدينةِ مَعَ النِّساءِ ، ومعَ مَنْ لا خَيْرَ فيهِ مِنَ النّاسِ ، ولا يَرْضى بذلكَ إلاّ مَنْ هانَتْ كَرامَتُهُ وسَقَطَتْ مُروءَتُهُ ، وألِفَ الذُّلَّ والصَّغارَ . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّهُ ترَتَّبَ عَلى رُسوخِهِمْ في النِّفاقِ وإصْرارِهِم عَلى الفُسوقِ والعِصْيانِ ، أنْ خَتَمَ اللهُ تَعالى عَلى قُلوبِهِم ، فَصارتْ لا تَفْقَهُ ما في الإيمانِ والجِهادِ مِنَ الخَيْرِ والسَّعادةِ ، وما في النِّفاقِ والشِّقاقِ مِنَ الشَّقاءِ والهَلاكِ .

وبعدَ ذلِكَ بَيَّنَ الحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالى مَوْقِفَ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِهِ مِنَ الجِهادِ في سبيلِ إعلاءِ كَلِمةِ الحَقِّ ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

إذا كانَ حالُ المُنافِقينَ كما وَصَفْنا مِنْ جُبْنٍ وتَخاذُلٍ وهوانٍ ، فإنَّ حالَ المُؤْمنينَ ليسَ كذلكَ ،

فإنَّهم قدْ وَقَفوا إلى جانِبِ رسولِهِم ﷺ ، فجاهَدوا مَعَهُ بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ مِنْ أجلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تَعالى ، وأطاعوهُ في السِّرِّ والعَلَنِ ، وآثَروا ما عندَ اللهِ تَعالى عَلى كلِّ شيءٍ في هذهِ الحياةِ ، وقدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ جزاءَهُمْ بأنَّ لهُمُ الخَيْراتُ الّتي تَسُرُّ النُّفوسَ وتَشْرَحُ الصُّدورَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وبَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهُمُ الفائِزونَ بسعادةِ الدّارَيْنِ .

ثُمَّ فَصَّلَ اللهُ تَعالى هذا الجَزاءَ الّذي ذَكرتْهُ الآيةُ الكَريمةُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى قد هيَّأَ لَهُمْ في الآخِرَةِ النّعيمَ المُقيمَ ، في جَنّاتٍ تَتخلَّلُها الأنْهارُ ، وهمْ خالِدونَ في تلكَ الجَنَّاتِ خُلوداً أبديّاً ، وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ والنَّجاحُ الكَبيرُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُنافِقُ جبانٌ بَخيلٌ ذَليلٌ .

٢ـ تحريمُ الصّلاةِ عَلى الكافِرِ والوُقوفِ عَلى قَبْرِهِ .

٣ـ وُجوبُ مَنْعِ كلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مظاهرِ التّكريمِ في الحياةِ وبعدَ المَماتِ عنِ الّذينَ يُحارِبونَ دَعْوَةَ الحّقِّ ، ويَقِفونَ في وَجْهِ انْتِصارِها وظُهورِها .

٤ـ يَنبغي للعاقِلِ أنْ لا يَغْتَرَّ بما عندَ المُنافِقينَ .

٥ـ الإيمانُ الصّادِقُ يدعو صاحِبَهُ إلى تَنفيذِ أمْرِ اللهِ تَعالى واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ، تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، أُولو الطَّوْلِ ، طُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ ، لَهُمُ الخَيْراتُ .

٢ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ عَنِ الصّلاةِ عَلى المُنافِقينَ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ ذلكَ ؟

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أنَّ اللهَ تَعالى ما مَنَحَ المُنافِقينَ الأمْوالَ والأولادَ إلاّ لِيُشْقِيَهُمْ بذلكَ ، وضِّحْ هذا الأمْرَ .

٤ـ وازَنتِ الآياتُ الكَريمةُ بَيْنَ مَوْقِفي المُؤْمِنينَ أمامَ الإيمانِ باللهِ تَعالى والجهادِ معَ رسولِهِ ﷺ ، فَرِّقْ بينَ المَوقِفَيْنِ من خلالِ هذهِ المُوازَنَةِ .

٥ـ ما الجزاءُ الّذي أَعَدَّهُ تَعالى للمُؤْمنينَ نَظيرَ طاعَتِهِمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفَ يُعزّي المُسْلِمُ أَهلَ المَيِّتِ مِنَ النَّصارى .

٢ـ هناكَ آيةٌ في القُرآنِ الكَريم تَنْهى رسولَ اللهِ ﷺ عَنِ النَّظَرِ إلى ما في أَيْدي النّاسِ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

❋ ❋ ❋

الدَّرْسُ الأَرْبَعونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والعِشْرونَ

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُعَذِّرونَ : المُعْتَذِرونَ بِصِدْقٍ .

الضُّعَفاءُ : مَنْ لا قُوّةَ لَهُمْ في أبْدانِهِمْ عَلى الجِهادِ .

حَرَجٌ : ذَنْبٌ أو إثْمٌ .

نَصَحوا للهِ ورسولِهِ : أخْلَصوا للهِ تَعالى ورسولِهِ في القَوْلِ والعَمَلِ .

سبيلٍ : طريقٍ يُسْلَكُ لِمُؤاخَذَتِهِمْ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أحوالَ المُنافِقينَ مِنْ سُكّانِ المَدينةِ أتبَعَ ذلكَ بالحديثِ عنِ الأعْرابِ سُكّانِ البادِيةِ ، الّذينَ منهُمْ مَنْ كانَ مُنافِقاً كأهْلِ المدينةِ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

ظاهِرُ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ يُفيدُ أنّها تَحدَّثَتْ عَنْ نَوعَيْنِ مِنَ الأعرابِ ، أحدُهُما : المُعذِّرونَ ، أيْ : أصْحابُ الأعذارِ ، وثانيهما : الّذين قَعَدوا في بُيوتِهِمْ مُكَذِّبينَ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، وأنَّ اللهَ تَعالى تَوعَّدَهُمْ بالعذابِ الأليمِ .

عندما استنفَرَ النَّبيُّ ﷺ النّاسَ إلى غَزوةِ تبوكَ ، جاءَهُ أصحابُ الأعذارِ الصَّحيحةِ . وقَعَدَ عَنِ الخُروجِ إلى تبوكَ وعَنِ المجيءِ على رسولِ اللهِ ﷺ للاعتذارِ ، أولئكَ الذينَ كذَّبوا اللهَ تَعالى ورسولَهُ ﷺ في دَعوى الإيمانِ ، وهُمُ الرّاسِخونَ في النِّفاقِ والعِصْيانِ مِنَ الأعرابِ سُكّانِ الباديةِ ، ووعيدُ اللهِ تَعالى لهؤلاءِ أنَّهُ سَيُصيبُ الّذينَ أصرّوا عَلى كُفْرِهِمْ ونِفاقِهِمْ مِنْ هؤُلاءِ الأعرابِ عذابٌ أليمٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وبَعْدَ ذلكَ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الأعذارَ الشَّرعيَّةَ المَقبولَةَ عندَهُ تَعالى وعندَ رَسولِهِ ﷺ ، والتي تَجعلُ صاحِبَها لا حَرَجَ عَلَيْهِ إذا ما قَعَدَ بِسبَبِها عنِ القِتالِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ .

ليسَ عَلى الضُّعفاءِ العاجزينَ عنِ القِتالِ لِعِلَّةٍ في أجْسادِهِمْ ، أو الَّذينَ أقْعَدَتْهُمُ الشَّيخوخةُ ، ولا عَلى المَرْضى الّذينَ حالَتْ أمراضُهُمْ بَيْنَهُم وبينَ الجهادِ ، ولا عَلى الفُقَراءِ القادرينَ عَلى الحَرْبِ ، ولكنَّهُمْ لا يَجدونَ المالَ الّذي يُنفِقونَهُ في مطالبِ الجهادِ ، ليسَ عَلى هؤلاءِ جميعاً إثْمٌ أو ذَنْبٌ بسَبَبِ عدَمِ خُروجِهِمْ معَ النَّبيِّ ﷺ إلى تَبوكَ لِقتالِ الكافِرينَ ، ولكنَّ هؤلاءِ مَطلوبٌ منهُمْ أنْ يُقيموا في البَلَدِ ، ويَحْتَرِزوا عنْ إنشاءِ الأراجيفِ ، وإثارةِ الفِتنةِ ، وعَلَيْهِم أنْ يَسْعَوْا في إيصالِ الخَيْرِ إلى أهْلِ المُجاهِدينَ الّذينَ خَرَجوا إلى الغَزْوِ ، ويَقوموا بِمَصالِحِ بُيوتِهِمْ ، ويُخْلِصوا الإيمانَ والعَمَلَ للهِ تَعالى ، ويُتابِعوا رسولَهُ ﷺ ، هذا هُوَ النُّصْحُ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ لا يَحِقُّ لأحدٍ مُؤاخَذَةُ هؤلاءِ المُحْسِنينَ بِسَبَبِ تَخلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ ، بَعْدَ أنْ نَصَحوا للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، وبعدَ أنْ حالتِ الموانِعُ الحَقيقيةُ بَيْنَهُمْ وبينَ الخُروجِ لِلجهادِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قدْ غَفَرَ لَهُمْ ، فَهُو واسِعُ المَغفِرَةِ والرَّحمةِ ، يَسْتُرُ عَلى عبادِهِ المُخْلِصينَ ما يَصْدُرُ عنهُمْ مِنْ تَقصيرٍ تَقْتَضيهِ طبيعتُهُمُ البَشَريَّةُ .

ثُمَّ أرْدَفَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِطائِفَةٍ أُخرى مَنَعَها مِنَ الخُروجِ إلى الجِهادِ لا الاعْتِذارُ ، ولكنْ عدمُ وجودِ رواحِلَ تَحْمِلُهُم ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

وهؤلاءِ طائفةٌ أُخرى مِنَ المُؤْمِنينَ غيرِ القادرينَ ماديّاً عَلى أعباءِ الخُروجِ ، ولكنَّهُمْ يَسْتطيعونَ ذلكَ جَسَديّاً ، جاءوا النَّبيَّ ﷺ يُريدونُ الخُروجَ مَعَهُ ، ولكنَّهُ ﷺ اعتذَرَ إِلَيْهِمْ بأنَّهُ لا يَجِدُ مِنَ الرَّواحِلِ ما يَحمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، ولمّا كانَ الأمْرُ كذلكَ لم يَفْرحْ هؤلاءِ بالقُعودِ ، ولكنَّهُمْ غادَروا مَجْلِسَ الرّسولِ ﷺ وهُمْ يَبْكونَ حُزْناً ، لأنَّهُمْ لا يَجِدونَ الوَسيلةَ الّتي يَخْرجونَ بِها للجِهادِ ، وهذا مِنْ أماراتِ الصِّدْقِ الواضحةِ عَلى حُبِّهِمْ للهِ تَعالى ، ولِرَسولِهِ ﷺ والجهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، هؤُلاءِ أيضاً مَشْمولونَ بأنَّهُ لا حَرَجَ عَليْهِمْ في القُعودِ ، ولا يَنْبَغي لأحَدٍ أَنْ يُعيِّرَهُمْ بهِ ، ولا سبيلَ لأحدٍ أنْ يُؤاخِذَهُمْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ .

وهذِهِ الآيةُ الكَريمَةُ تُعطي صُورَةً صادِقَةً مؤَثِّرَةً للرَّغبةِ الصّادِقَةِ في الجهادِ ، وللألَمِ الشَّديدِ للحِرْمانِ مِنْ نعمةِ المُشارَكةِ فيهِ ، وبمثلِ هذِهِ الرّوحِ ارْتَفَعتْ رايةُ الإسْلامِ وعزَّتْ كَلِمَتُهُ ، وانْتَشَرَتْ دَعوتُهُ .

وقدْ كانَ هؤُلاءِ الّذينَ تخلّفوا عَنِ الجهادِ بتلكَ الأسبابِ غيرَ مَحْرومينَ مِنَ الأَجْرِ ، بلْ أخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّهُمْ شاركوا المُجاهِدينَ في الأَجْرِ فقالَ ﷺ : « لقد خَلَّفْتُم بالمَدينةِ رِجالاً ما قَطعتُمْ وادِياً ولا سَلَكْتمْ طريقاً إلاّ شارَكوكُمْ في الأجْرِ ، حَبَسهُمُ المَرَضُ » . وفي رواياتٍ أُخْرى (حَبَسَهُمُ العُذْرُ)[1] . وهذا دليلٌ عَلى أنّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ في المَقْبولينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّكاليفُ الإسلاميَّةُ قائِمَةٌ عَلى اليُسْرِ ورَفْعِ الحَرَجِ .

٢ـ متى وُجدتِ النِّيَّةُ الصّادِقَةُ في فِعْلِ الخَيْرِ ، حَصَلَ الثّوابُ ، وإنْ لم يَكُنْ هناكَ عَمَلٌ .

٣ـ الصَّحابةُ رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قدْ ضَرَبوا أرْوَعَ الأمثلةِ في الحِرْصِ عَلى الجِهادِ والاسْتِشْهادِ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٣/ ٣٠٠ وانظر الرواية الأخرى : ٣/ ١٦٠ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

المُعذِّرونُ ، نَصَحوا للهِ ، مِنْ سبيلٍ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ الأعرابَ فريقانِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٣ـ مَنْ هُمْ أصْحابُ الأعْذارِ ؟

٤ـ بيِّنْ علامةَ الصِّدْقِ الّتي أظْهَرَها الفريقُ الثّاني : الّذينَ لم يَجِدوا ما يُحْملَونَ عَلَيْهِ .

نَشاطٌ :

ـ مَنْ تَخلَّفَ عنْ غَزوَةِ تَبوكَ فَريقانِ : فريقٌ فَرِحٌ ، وفريقٌ بَكى ، بيِّنْ ذلِكَ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي والأربعونَ

سورةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الرّابِعُ والعِشْرونَ

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا
تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَن نُؤْمِنَ لَكُمْ : لَن نُصدِّقَكُم .
انقَلَبْتُمْ إليهِمْ : رَجعتُم إِلَيْهِمْ وَوَصَلتُم إِلَيْهِمْ .
لِتُعرِضوا عَنْهُمْ : لِتَصفَحوا عَنهُم .
رِجْسٌ : قَذارَةٌ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أَحكامَ أَصحابِ الأَعذارِ المَقبولَةِ ، أَتبَعَ ذلِكَ بِبَيانِ أَحكامِ أَصحابِ الأَعذارِ الكاذِبَةِ ، وَصفاتِهِمُ القَبيحَةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

إذا كانَ الضُّعَفاءُ ، وَالمَرضى وَمَنْ في حُكْمِهِمْ ، لا إِثمَ عَلَيْهِم وَلا عُقوبَةَ بِسَبَبِ تَخَلُّفِهم عَن الجِهادِ ، فإنَّ الإثمَ والعُقوبَةَ وَاللَّومَ وَالعِتابَ عَلى هؤُلاءِ الَّذينَ يَستأذِنونَكَ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ في الجِهادِ ، وَهُم واجِدونَ المالَ وَالعَتادَ ، قادِرونَ عَلى الخُروجِ مَعَكَ ، لَكنَّهُم مَعَ قُدرَتِهِم واستِطاعَتِهِم رَضوا بِأنْ يَقعُدوا مَعَ النِّساءِ الضَّعيفاتِ ، وَالشُّيوخِ العاجِزينَ ، وَالمَرضى غَيرِ القادِرينَ ، فَقُلوبُهُمْ أُغلِقَتْ عَنِ الحَقِّ ، فَهُم لا يَعْلَمونَ العاقِبَةَ الوَخيمَةَ الَّتي تَتَرتَّبُ عَلى تَخلُّفِهِم في الدُّنيا وَفي الآخِرَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما سَيَكونُ مِن هؤُلاءِ المُنافِقينَ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجِهادِ مِنَ الاعتِذارِ لِلمُؤمنينَ عِندَ عَودَتِهِم مِن تَبوكَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

سَيَعْتَذِرُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ المُتَخَلِّفونَ عَنِ الجِهادِ إِلَيكُم أَيُّها المُؤْمِنونَ المُجاهِدونَ إذا رَجَعتُمْ مِن مَيدانِ الجِهادِ وَالتَقَيتُمْ بِهِم بِأَنْ يَقولوا لَكُم مَثَلاً : إنَّ قُعودَنا في المَدينَةِ وَعَدَمَ خُروجِنا مَعَكُم ، كانَ لَهُ مُسَوِّغاتُهُ القَوِيَّةُ فَلا تُؤاخِذونا . وَهذِهِ الجُملَةُ الكَريمَةُ مِنَ الأنباءِ الَّتي أنبأَ اللهُ تَعالى بِها رَسولَهُ ﷺ عَنْ أَحوالِ المُنافِقينَ ، وَعَمّا سَيَقولونَهُ لَهُ وَلِلمُؤْمِنينَ بَعْدَ عَودَتِهِم إِلَيْهِم . وَهذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ هذِهِ الآياتِ نَزَلَتْ في أَثناءِ العَودَةِ وَقَبلَ وُصولِ الرَّسولِ ﷺ وَأَصحابِهِ إِلى المَدينَةِ مِن تَبوكَ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أَنْ يَقولَ لَهُم عِندَما يَعتَذِرونَ إِلَيهِ : دَعوكُمْ مِنْ هذِهِ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، وَلا تَتَفَوَّهوا بِها أمامَنا ، فَإِنَّنا لَن نُصَدِّقَ أَقوالَكُم ، فإنَّ اللهَ تَعالى قَدْ كَشَفَ لَنا عَن حَقيقَتِكُم ، وَوَضَّحَ لَنا أَحوالَكُم ، وَبَيَّنَ ما أَنتُم عَلَيهِ مِنَ النِّفاقِ وَالفُسوقِ وَالعِصيانِ ، وَما دامَ الأَمرُ كَذلِكَ ، فَوَفِّروا عَلى أَنْفُسِكُم هذِهِ المَعاذيرَ الكاذِبَةَ . ثُمَّ هَدَّدَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى نِفاقِهِم وَكَذِبِهِم بِقولِهِ : ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أَيْ : دَعوا عَنكُم هذِهِ الأَعذارَ الباطِلَةَ ، فإنَّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى أحوالِكُم ، وَهوَ يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم عِلْماً يَتَرتَّبُ عَلَيْهِ الجَزاءُ العادِلُ لَكُم ، وَسَيُبَلِّغُ رَسولَهُ ﷺ بِأَخبارِكُم ، هذا في الدُّنيا ، أَمّا في الآخِرَةِ فَإِنَّكُم سَتُرَدّونَ إِلى عالِمِ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ الَّذي لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ في الأَرضِ وَلا في السَّماءِ ، فيُخبِرُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا مِنْ أَعمالٍ قَبيحَةٍ ، وَسَيُجازيكُم عَلَيْها ، بِما تَستَحِقّونَهُ مِنْ عِقابٍ .

وَلمّا كانَ النِّفاقُ صِفَتُهُ الكَذِبَ فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ يُؤَكِّدونَ اعتِذارَهُم بالإيمانِ الكاذِبَةِ ، فَقالَ تَعالى عَنهُم :

﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

سَيَحلِفونَ باللهِ تَعالى لَكُم ، حينَما تَرجعونَ إلَيهِم بِأنَّهُم صادِقونَ في مَعاذيرِهِم لِكَي يُرضوكُم ، فَتَغْفَلوا عَنْ عَمَلِهِم ، فَلا تُحقِّقوا لَهُم هذا الغَرَضَ ، بَلِ اجتَنِبوهُم وَامقُتوهُم ، لأنَّهُم في أشَدِّ دَرَجاتِ الحِنْثِ النَّفسِيِّ وَالكُفْرِ ، وَمَصيرُهُم إلى جَهَنَّمَ ، عِقاباً عَلى ما اقتَرَفوهُ مِن ذُنوبٍ وَأوزارٍ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ المُتَخلِّفينَ عَنِ الجِهادِ يَحْلِفونَ لَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّهُم ما تَخَلَّفوا إلاّ لِعُذْرٍ ، لِكَي تَصْفَحوا عَنهُم وَتَرضَوْا ، فَإنِ تَرضَوْا عَنهُم أيُّها المُؤْمِنونَ ـ وَهذا لَيسَ بِحاصِلٍ ـ فَإنَّ اللهَ تَعالى لا يَصْفَحُ وَلا يَرضى عَنِ القَومِ الَّذينَ فَسَقوا عَنْ أمرِهِ ، وَخَرَجوا عَنْ طاعَتِهِ .

وَالمُرادُ مِنْ هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ نَهْيُ المُخاطَبينَ عَنِ الرِّضا عَنهُم ، وَعَنِ الاغتِرارِ بِمَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ عَلى أبلَغِ وَجْهٍ وَآكَدِهِ ، فَإنَّ الرِّضا عَمَّنْ لا يَرضى اللهُ تَعالى عَنهُ لا يَصدُرُ عَنِ المُؤْمِنينَ .

وَبِهذا تَكونُ هذهِ الآياتُ الكَريمَةُ قَد ذَكَرَتْ جانِباً آخَرَ مِنَ الأحوالِ القَبيحَةِ لِلمُنافِقينَ ، وَرَدَّتْ عَلى مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ ، وأيمانِهِمُ الفاجِرَةِ بِما يَفضَحُهُم ويُخزيهِم ، وَتَوَعَّدَتهُم بِسوءِ العاقِبَةِ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها .

٢ـ أغنِياءُ المُنافِقينَ شَديدو الحِرْصِ عَلى الحَياةِ الدُّنيا .

٣ـ المُنافِقُ قَذِرٌ يَنْبَغي أنْ يَتَجَنَّبَهُ المُؤْمِنُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لَن نُؤمِنَ لَكُ ، انقَلَبْتُمْ إليهِمْ ، لِتُعْرِضوا عَنهُم ، رِجْسٌ .

٢ـ لِماذا يُكثِرُ المُنافِقُ مِنَ الحَلْفِ ؟

٣ـ لِماذا طَلَبَ اللهُ تَعالى مِنَ المُؤْمِنينَ الإعْراضَ عَنِ المُنافِقينَ ؟

٤ـ هاتِ ما تُرشِدُ إلَيهِ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .

٥ـ أجِب بِآيَةٍ قُرآنِيَّةٍ عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ حَلَفَ المُنافِقونَ لِلمُؤْمِنينَ كَي يُعرِضوا عَنهُم ، فَبِماذا أمرَ اللهُ المُؤْمِنينَ ؟

ب ـ طَلَبَ المُنافِقونَ مِنَ المُؤْمِنينَ قَبولَ عُذْرِهِم ، فَبِماذا أمرَ اللهُ المُؤْمِنينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ هُناكَ فِئَةٌ تَخَلَّفَتْ عَنِ الرَّسولِ ﷺ يومَ الحُدَيْبِيَةِ ، اكتُبْ في دَفْتَرِكَ ماذا كانَ عِقابُهُم .

* * *

الدَّرْسُ الثّاني والأَرْبَعونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرونَ

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا
يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ
رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **الأَعْرابُ** : سُكّانُ البادِيَةِ .
- **أَجْدَرُ** : أَحَقُّ .
- **مَغْرَماً** : غَرامةً وَخَسارةً .
- **يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ** : يَنتَظِرُ بِكُمْ مَصائِبَ الدَّهرِ .
- **صَلَواتِ الرَّسولِ** : دَعَواتِ الرَّسولِ .

التَّفْسيرُ :

بَعْدَ هذا الحَديثِ الطَّويلِ عَنِ النِّفاقِ وَالمُنافِقينَ أَخَذَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في الحَديثِ عَنْ طَوائِفَ أُخرى مِنها الصّالِحُ وَمِنها غَيرُ الصّالِحِ ، وَقَد بَدَأَتْ بِالحَديثِ عَنِ الأَعْرابِ سُكّانِ البادِيَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

بَدَأَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِذِكْرِ المُنافِقينَ مِنَ الأعرابِ ، قَبلَ المُؤْمِنينَ مِنهُم ، إلْحاقاً لَهُم بِمُنافِقي المَدينَةِ الَّذينَ تَحَدَّثَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ عَنهُم قَبلَ ذلِكَ مُباشَرَةً حَديثاً مُستَفيضاً . وَبِهذا التَّرتيبِ الحَكيمِ تَكونُ السّورَةُ الكَريمَةُ قَدْ واصَلَتِ الحَديثَ عَنْ مُنافِقي الحَضَرِ وَالبَدْوِ ، وَالمَعنى : الأعْرابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً مِنْ أهلِ الحَضَرِ الكُفّارِ وَالمُنافِقينَ ، وَهُم أحَقُّ مِنْ أهلِ الحَضَرِ بِأَنْ لا يَعْلَموا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ تَعالى عَلى رَسولِهِ ﷺ ، بِسَبَبِ ابتِعادِهِم عَنْ مَجالِسِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَعَدَمِ مُشاهَدَتِهِم لِما يَنزِلُ عَلَيْهِ ﷺ مِن شَرائِعَ وَأحكامٍ وآدابٍ . وَقَولُهُ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : عَليمٌ بِأحوالِ عِبادِهِ الظّاهِرَةِ وَالباطِنَةِ لا يَخفي عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ صِفاتِهِم وَطِباعِهِم ، حَكيمٌ في صُنعِهِ بِهِم ، وَفي حُكمِهِ عَلَيْهِمْ ، وَفيما يَشرَعُهُ لَهُم مِن أحكامٍ ، وَفيما يُجازيهِمْ عَلَيْهِ مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ أحوالَ فَريقٍ آخَرَ مِنَ الأعرابِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

وَمِنَ الأعْرابِ قَومٌ آخَرونَ ، يَعُدّونَ ما يُنفِقونَ في سَبيلِ اللهِ غَرامَةً وَخَسارَةً عَلَيْهِم ، لأنَّهُم لا يُنفِقونَ طَمَعاً في ثَوابٍ أو خَوفاً مِن عِقابٍ ، وإنَّما يُنفِقونَهُ تُقْيَةً وَرياءً ومُداراةً لِلمُسْلِمينَ ، لا مُساعَدَةً لِلغُزاةِ وَالمُجاهِدينَ ، وَلا حُبّاً في انْتِصارِ المُؤْمِنينَ ، وَهُم بِجانِبِ هذا يَنتَظِرونَ ما يَحِلُّ بِكُم مِن صُروفِ الدَّهرِ وَنَوائِبِهِ ، الّتي تُبَدِّلُ حالَكُم مِنَ الخَيرِ إلى الشَّرِّ ، وَمِنَ الصِّحَّةِ إلى المَرَضِ وَالأسقامِ ، وَمِنَ الأمانِ وَالاطْمِئنانِ إلى القَلَقِ وَالاضطِرابِ ، وَلكِنْ عَلَيْهِم يَدورُ العَذابُ .

فَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سَميعٌ لِكُلِّ ما يَتَفَوَّهونَ بِهِ مِن أقوالٍ ،عَليمٌ بِكُلِّ ما يُظهِرونَهُ وَيُبطِنونَهُ مِنْ أحوالٍ ، وَسَيُحاسِبُهُم عَلى ما صَدَرَ مِنهُم حِساباً عَسيراً يَومَ القِيامَةِ ، وَيُنزِلُ بِهِمُ العِقابَ الّذي يُناسِبُ جَرائِمَهُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَت الآيَةُ الكَريمَةُ حالَ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ مِنَ الأعْرابِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

لَيسَ كُلُّ الأعْرابِ مُنافِقينَ ، فَمِنهُم مُؤمِنونَ بِاللهِ تَعالى مُصَدِّقونَ بِيومِ القِيامَةِ ، يَتَّخِذونَ الإنْفاقَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَسيلَةً يَتَقَرَّبونَ بِها إلى اللهِ تَعالى ، وَسَبَباً لِدُعاءِ الرَّسولِ ﷺ لَهُمْ ، إذْ كانَ يَدعو لِلمُتَصَدِّقينَ بِالخَيرِ وَالبَرَكَةِ ، ثُمَّ شَهِدَ اللهُ تَعالى لِصَدَقاتِ هؤُلاءِ بِأنَّها مَقبولَةٌ عِندَهُ قَبولاً مُؤَكَّداً ،

وَسَيُجازِيهِمْ عَلَيْها بِما يَستَحِقّونَ مِنْ أَجْرٍ جَزيلٍ ، ثُمَّ وَعَدَهُم اللهُ تَعالى بِإحاطَةِ رَحمَتِهِ تَعالى بِهِمْ ، وَأَنَّهُم سَتَغمُرُهُم بِحَيثُ لا يُظَنُّ بِهِمْ شَقاءٌ مَعها أَبَداً ، لأَنَّهُ تَعالى قَدْ غَفَرَ لَهُم مَغفِرَةً أَدخَلَتهُمْ في كُلِّ المَسَرّاتِ .

وَبِهذا نَرى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ قَد ذَمَّتْ مَنْ يَستَحِقُّ الذَّمَّ مِنَ الأَعْرابِ ، وَمَدَحَتْ مَنْ يَستَحِقُّ المَدحَ مِنهُم ، وَبَيَّنَتْ مَصيرَ كُلِّ فَريقٍ لِيَكونَ عِبرَةً لِلمُعتَبِرينَ ، وَذِكرى لِلمُتَذَكِّرينَ .

وَبَعدَ هذا التَّقسيمِ لِلأَعْرابِ انتُقَلَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ لِلحديثِ عَنِ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، الَّذينَ وَقَفوا إلى جانِبِ الرَّسولِ ﷺ ، وَأَطاعوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

هذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ مَدَحَتْ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنَ المُسلِمينَ المُعاصِرينَ لِلعَهْدِ النَّبَويِّ الشَّريفِ ، الطّائِفَةُ الأولى : السّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ ، وَهُمُ الَّذينَ تَرَكوا دِيارَهُم وَأَموالَهُم بِمَكَّةَ ، وَهاجَروا إلى الحَبَشَةِ ثُمَّ إلى المَدينَةِ مِن أَجلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَاستَمَرّوا في المَدينَةِ مَع رَسولِ ﷺ إلى أَنْ تَمَّ الفَتحُ ، وَدَخَلَ النّاسُ في دينِ اللهِ تَعالى أَفواجاً .

والطّائِفَةُ الثّانِيَةُ : السّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ الأَنصارِ ، وَهُمُ الَّذينَ بايَعوا النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أَنْ يُهاجِرَ إلى المَدينَةِ بَيعَةَ العَقَبَةِ الأولى وَالثّانِيَةَ ، وَآوَوْهُ وَنَصَروهُ عِندَ هِجرَتِهِ إلَيْهِم .

والطّائِفَةُ الثّالِثَةُ : الَّذينَ اتَّبَعوهُم بِإحسانٍ ؛ أَيْ : الَّذينَ اتَّبَعوا السّابِقينَ في الإسلامِ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنصارِ اتِّباعاً حَسَناً في أَقوالِهِم وَأَعمالِهِم وَجِهادِهِم وَنُصرَتِهِم لِدَعوَةِ الحَقِّ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ هذِهِ القِسمَةِ ، أَنَّهُ رَضِيَ عَنهُم في إيمانِهِم وإخلاصِهِم ، فَتَقَبَّلَ أَعمالَهُم ، وَرَفَعَ دَرَجاتِهِم ، وَتَجاوَزَ عَن زَلّاتِهِم ، وَأَنَّهُم كَذلِكَ رَضوا عَن رَبِّهِم تَبارَكَ وتَعالى بِما أَسْبَغَهُ عَلَيْهِم مِن نِعَمٍ جَليلَةٍ ، وَبِما نالوهُ مِن كَرَمِهِ سُبْحانَهُ مِن هِدايَةٍ وَثَوابٍ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ بِبَيانِ أَنَّهُ تَعالى بِجانِبِ رِضاهُ عَنهُم وَرِضاهُم عَنهُ في الدُّنْيا ، فَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ جَناتٍ تَجري تَحتَها الأَنهارُ ، وَأَنَّهُم خالِدونَ فيها خُلوداً أَبَدِيّاً ، وَذلِكَ الرِّضا والخُلودُ في الجَنّاتِ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ الَّذي لا يُقارِبُهُ فَوزٌ وَلا تُدانيهِ سَعادَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ البُعْدُ عَنْ مَجالِسِ العِلْمِ وَالدِّينِ يُسَبِّبُ الجَفاءَ والغِلْظَةَ .

٢ـ المُنافِقُ يَظُنُّ الأَعْرابَ سَواءً في العِلْمِ وَالدِّينِ .

٣ـ لَيْسَ كُلُّ الأَعْرابِ سَواءً في العِلمِ وَالدِّين .

٤ـ مَنزِلَةُ مَن سَبَقَ إلى الإيمانِ عِندَ اللهِ تَعالى عالِيَةٌ .

٥ـ المُقتَدي بالصّالِحينَ يَنالُهُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى بِبَرَكَتِهِم وَرِضوانِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم .

٦ـ الوُصولُ إلى رِضوانِ اللهِ تَعالى يَحتاجُ إلى مُجاهَدَةٍ عالِيَةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلَةِ التاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

الأَعْرابُ ، أَجْدَرُ ، مَغْرَماً ، يَتَرَبَّصُ بِكُم الدَّوائِرَ ، صَلَواتِ الرَّسولِ .

٢ـ ذَكَرَتِ الآيَةُ الأُولى (٩٧) صِنْفَيْنِ مِنَ الأعْرابِ وَمَيَّزَتْ بَيْنَهُما ، اذْكُرْ هذَيْنِ الصِّنفَيْنِ وَمَيِّزْ بَيْنَهُما .

٣ـ بَيِّنْ لِماذا ذُكِرَ الفَريقُ الكافِرُ مِنَ الأعْرابِ أوّلاً .

٤ـ بَيِّنْ لِماذا كانَ الأَعْرابُ أَجْدَرَ أَنْ لا يَعْلَموا حُدودَ ما أَنزَلَ اللهُ تَعالى .

٥ـ بَيِّنْ أَقسامَ المُؤْمنينَ الَّذينَ ذُكِروا في الآياتِ الكَريمَةِ .

٦ـ مَنِ المَقصودُ في كُلٍّ مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أـ ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ .

ب ـ ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رَحْمَتِهِ﴾ .

ج ـ ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضوا عَنْهُ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ بَيَّنَ الرَّسولُ ﷺ أَنَّ بَعضَ النّاسِ يَتَّخِذُ الغَنيمَةَ مَغْنَماً وَالزَّكاةَ مَغْرَماً ، اكْتُبِ الحَديثَ الدّالَّ عَلى ذلِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المِعيارَ الّذي يَكونُ عَلَيهِ مَدحُ النّاسِ وَذَمُّهُم شَرعاً .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الأَخيرَةَ مِن سورَةِ النَّبَأِ ، وَبَيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بَيْنَها وَبَيْنَ الآيَةِ (١٠٠) .

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والأرْبَعونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ السّادِسُ والعِشْرونَ

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟
عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟
فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَرَدوا عَلى النِّفاقِ : تَجَرَّدوا لِلنِّفاقِ وَصارَ لَهُم سَجِيَّةً وَطَبْعاً .

تُزَكِّيهِمْ : تُبارِكُ لَهُم في حَسَناتِهِم .

صَلِّ عَلَيْهِم : ادْعُ لَهُم .

مُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ : مُؤَخَّرونَ حَتّى يَظهَرَ فيهِم حُكمُ اللهِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ السّابِقَةُ عَن طائِفَةِ المُؤْمِنينَ وَمَدَحَتهُم بِما هُم أهلٌ لَهُ لِقُوَّةِ إيْمانِهِم ، وَصَفاءِ نُفوسِهِم ، وَإيثارِهِم ما عِندَ اللهِ تَعالى عَلى هذه الدُّنيا وما فيها ، تَحَدَّثَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ بَعْدَ ذلِكَ عَن أصنافٍ أُخرى مِنَ النّاسِ حَوْلَ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ عَلى ساكِنِها أفضَلُ الصَّلاةِ وَأتَمُّ التَّسليمِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

وَمِمَّنْ يُجاوِرُ المَدينَةَ مِن أهلِ الباديَةِ مَنْ يُضمِرُ الكُفْرَ وَيُظهِرُ الإيمانَ ، وَكَذلكَ مِنْ سُكّانِ المَدينَةِ وَأهْلِها قَومٌ ألِفوا النِّفاقَ ، حَتّى بَرَعوا فيهِ وَسَتَروهُ عَنِ النَّاسِ ، حَتّى لَقَدْ خَفِيَ أمرُهُم عَلَيْكَ أيُّها الرَّسولُ ، وَلكنّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي يَعلَمُ حَقيقَتَهُم ، وَسَيُعَذِّبُهُم اللهُ تَعالى في الدُّنيا مَرَّتَينِ : مَرَّةً عَن طَريقِ فَضيحَتِهِم وَهَتْكِ أستارِهِم ، وَجَعْلِهِم يَعيشونَ في قَلَقٍ ، وَالمَرَّةُ الثّانيَةُ إمّا بَنَصْرِكُم على أعدائِكُم ، وَفي هذا غيظٌ لِلمُنافقينَ ، وَعَذابٌ نَفسيٌّ مُؤْلِمٌ لَهُم ، وَإمّا عِندَما تَتَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ وَيَضرِبونَ وُجوهَهُم وَأدبارَهُم ، وَما يَتبَعُ ذلِكَ مِنْ عَذابِهِم في قُبورِهِم إلى أنْ تَقومَ السّاعَةُ ، فَيَجِدونُ العَذابَ الأكْبَرَ الّذي تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ في قَولِهِ : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلِكَ في نارِ جَهَنَمَ ، نَعوذُ بِاللهِ مِن عَذابِ اللهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى طائِفَةً أُخرى مِمَّنْ أُشيرَ إلَيْهِم أوّلاً ، وَهُمُ الَّذينَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم ، وَخَلَطوا ما بَيْنَ صالِحِ العَمَلِ وَسَيِّئِهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

وَيوجَدُ مَعَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ قَومٌ آخَرونَ مِن صِفاتِهِمْ أنَّهُمُ اعْتَرَفوا بِذُنوبِهِمْ ، وَأقَرّوا بها وَلَمْ يُنْكِروها ، وَأنَّهُم خَلَطوا جِهادَهُم في سَبيلِ اللهِ تَعالى قَبلَ غَزوَةِ تَبوكَ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ ، وَهُوَ تَخَلُّفُهُم عَنِ الخُروجِ لِهذِهِ الغَزوَةِ ، أو أنَّهُم آذَوْا المُسلِمينَ بِأنواعٍ مِنَ الأذى ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ اعْتَرَفوا بِما أذنَبوا ، وَسَلَكوا طَريقَ الحَقِّ ، وَأنَّهُمْ لِهذا يُرجى لَهُمْ أنْ تُقبَلَ تَوبَتُهُمْ ، ذلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى رَحيمٌ بِعبادِهِ ، يَقبَلُ تَوبَتَهُم ، وَيَغفِرُ لَهُم ما بَدَرَ مِنهُم بَعدَما أخلَصوا التَّوبَةَ لَهُ سُبْحانَهُ .

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَأخُذَ مِنْ هؤُلاءِ التّائِبينَ المُقِرّينَ بِذنوبِهِم شَيئاً مِنْ أموالِهِم كَي يُطَهِّرَ بِهِ نُفوسَهُم وَيُزَكّيها ، حَتّى لا تَعودَ تَتَذَكَّرُ آلامَ المَعصيَةِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

خُذ أيُّها الرَّسولُ ﷺ مِنْ هؤُلاءِ الَّذينَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم وَخَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، وَمِن غَيرِهِم مِنْ أصحابِكَ المُؤْمِنينَ ، صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم مِن دَنَسِ البُخْلِ ، وَشُحِّ النَّفْسِ ، وَلُؤْمِ الخُلُقِ ، وَقَسْوَةِ الطَّبْعِ ، وَتُزَكّيهِم بِها حَتّى تَنموَ نُفوسُهُم عَلى حُبِّ الخَيرِ ، وَتَزرَعَ في قُلوبِهِمُ العَطْفَ عَلى الفَقيرِ وَالضَّعيفِ وَالمُحتاجِ ، فَبِهذا تَنمو النَّفسُ وَتَرتَفِعُ .

وَصَلِّ عَلَيْهِم ، فَالصَّلاةُ مِنكَ دُعاءٌ لَهُم بِالخَيرِ ، وَسَكَنٌ لِنُفوسِهِم مِنَ الاضطِرابِ عَقبَ الذَّنبِ الّذي وَقَعَ بِالمُخالَفَةِ ، ادعُ لَهُم أَيُّها الرَّسولُ بِالخَيرِ وَالبَرَكاتِ ، وَاستَغفِرْ لَهُم ، فَدُعاؤُكَ وَاستِغفارُكَ سَكَنٌ لَهُم واطمئنانٌ لِقُلوبِهِم ، وَارتياحٌ إلى قَبولِ تَوبَتِهِم ، وَاللهُ تَعالى سَميعٌ لِكُلِّ قَولٍ وَمُجازٍ عَلَيْهِ ، فَالصَّدَقَةُ إِذَنْ مَطْهَرَةٌ لِلنَّفسِ ، مَرضاةٌ لِلرَّبِّ ، ومُحَصِّنَةٌ لِلمالِ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى حَثَّ عِبادَهُ عَلى التَّوبَةِ النَّصوحِ وَبَذْلِ الصَّدَقاتِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

أَلَم يَعلَمْ هؤُلاءِ التّائِبونَ مِن ذُنوبِهِم ، وَغَيرِهِم مِنَ المُؤْمِنينَ ، أَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ وَحْدَهُ الّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ الصّادِقَةَ مِنْ عِبادِهِ المُخلِصينَ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ الّذي يَتَقَبَّلُ الصَّدقاتِ مِنْ أَصحابِها قَبولَ مَنْ يَأخُذُ شَيئاً لِيُؤَدِّيَ بَدَلَهُ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُو واسِعُ الفَضلِ في قَبولِ التَّوبَةِ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ العَظيمُ رَحيمٌ بِعبادِهِ .

وفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ حَثٌّ شَديدٌ عَلى الصَّدَقَةِ مِنَ المالِ الحَلالِ ، وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ مِمّا يُؤَيِّدُ هذا المَعنى ما رَواهُ البُخاريُّ : أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَن تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمرَةٍ ـ أي بِقيمَتِها ـ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ ـ ولا يَقبَلُ اللهُ إلاّ الطَّيِّبَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمينِهِ ، ثُمَّ يُرْبيها لِصاحِبِها كَما يُرْبي أَحَدُكُم فِلْوَهُ ـ أي مُهْرَهُ ـ حَتّى تَكونَ مِثلَ الجَبلِ »[1] .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى أَمَرَ بِالتَّزَوُّدِ مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ ، وَحَذَّرَ مِنَ الوُقوعِ في العَمَلِ السَّيِّىء فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

قُل يا أَيُّها الرَّسولُ ﷺ اعْمَلوا وَلا تُقَصِّروا في عَمَلِ الخَيرِ وَأَداءِ الواجِبِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى يَعلَمُ كُلَّ أَعمالِكُم ، وَسَيَراها الرَّسولُ ﷺ وَالمُؤْمِنونَ ، فَيَزِنونَها بِميزانِ الإيمانِ ، وَيَشهَدونَ بِمُقتَضاها ، ثُمَّ تُرَدّونَ مِن بَعدِ المَوتِ إلى مَن يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم ، فَيُجازيكُم عَلى أَعمالِكُم بَعْدَ أَنْ يُنَبِّئَكُم بِها صَغيرِها وَكَبيرِها .

وبَعْدَ ذلِكَ خَتَم اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ بِبَيانِ حالِ قِسْمٍ مِنَ الّذينَ تَخَلَّفوا عَن غَزوَةِ تَبوكَ ، وَهُم آخِرُ الأَقسامِ المُتَحَدَّثِ عَنهُم في هذا الشَّأنِ ، فَقالَ تَعالى :

---

(١) رواه البخاريُّ في كتابِ الزكاةِ ، حديث رقم ١٤١٠ .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

وَآخرونَ مِنَ المُتَخَلِّفينَ عَن غزوَةِ تبوكَ مُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ تَعالى ، وَمُؤَخَّرونَ لِحُكمِهِ ، فَحالُهُمْ غامِضَةٌ عندَ النّاس ، لا يدرونَ ما يَنزِلُ في شَأْنِهِمْ هَل يُخلِصونَ في التَّوبَةِ فيتوبَ اللهُ ويَقبَلَ مِنهُم توبَتَهُم أم لا ؟ فَيُعَذِّبَهُمْ ويَحكُمَ عَليْهِمْ كَما حَكمَ عَلى المُنافِقينَ . وهؤلاءِ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ تَعالى ، في تَعْذيبِهِمْ أوِ التَّوْبَةِ عَليهِمْ ، ولَعَلَّ الحِكْمَةَ في ذلكَ يَعني إبهامَ أَمْرِهِمْ لِما في ذلِكَ مِنَ التَّربيةِ لَهُمْ ، والتَّهذيبِ لنُفوسِهِمْ ولِما في ذلِكَ مِن بَيانٍ لِجُرْمِ التَّخَلُّفِ عَن رسولِ اللهِ ﷺ وإيثارِ الرَّاحةِ والدَّعةِ عَلى الجِهادِ ، ونَصْرِ الرَّسولِ ﷺ . وَبِهذا يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ الآياتِ الكَريمَةَ السَّابقةَ قَدْ ذَكَرتْ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنَ المُتَخَلِّفينِ عَنْ غَزوةِ تبوكَ ، هم :

الطَّائِفةُ الأولى : الّتي مَرَدَتْ عَلى النِّفاقِ ، وقَد تَعلَّلوا بالأعذارِ الكاذِبَةِ .

الطَّائِفَةُ الثّانِيَةُ : الّتي سارَعَتْ إلى الاعتِذارِ والاعْتِرافِ بِالذَّنْبِ ، فَقَبِلَ اللهُ تَعالى مِنهُم .

الطَّائِفَةُ الثّالِثَةُ : الّتي لَم تَجدْ عُذراً تَعتَذِرُ بِهِ ، فَأَوقَفَ اللهُ تَعالى أمرَهُم إلى أنْ حَكَمَ بِقبولِ تَوبَتِهِم بَعدَ خَمسينَ ليلةً . وسيأتي بيانُ هذهِ الطّائِفَةِ آخرَ السّورةِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ الحَذَرِ مِنَ المُنافِقينَ وأعداءِ الدِّينِ ، فَالمُسْلِمُ اليَقِظُ حَذِرٌ .

٢ـ الاعتِرافُ بِالذَّنْبِ يَمحو آثارَهُ .

٣ـ يَنبَغي لِلمُسلِمِ أَنْ لا تَحولَ الذُّنوبُ بَينَهُ وَبَيْنَ التَّوبَةِ .

٤ـ ضَرورَةُ التَّصَدُّقِ مِنَ المالِ الحَلالِ تَزكِيَةً لِلنَّفسِ وَتَطهيراً لِلمالِ .

٥ـ الحَثُّ الدَّؤوبُ عَلى عَمَلِ الخَيرِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنَ النّاسِ ، مَيِّزْ بَيْنَ هذهِ الطَّوائِفِ .

٢ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى ما يَلي :

أ ـ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ .

ب ـ اللهُ تَعالى لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

ج ـ الصَّدَقَةُ تُطَهِّرُ النَّفْسَ وَالمالَ .

٣ـ لِماذا أَخْفى اللهُ تعالى حالَ الطّائِفَةِ الثّالِثَةِ عَنِ النّاسِ ؟

٤ـ ما الجَزاءُ الذي استَحَقَّهُ كُلٌّ مِنَ الفِئاتِ التّالِيَةِ ، كَما جاءَ في آياتِ الدَّرسِ :

أ ـ الأَعْرابُ المُنافِقونَ وَمُنافِقو المَدينَةِ .

ب ـ مُؤمِنونَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم خَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً .

ج ـ مُؤمِنونَ آخَرونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابعُ والأربعونَ

سورةُ التَّوبَةِ ـ القِسْمُ السّابعُ والعِشْرونَ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن
يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ
خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ضِراراً : إضْراراً بالغَيْرِ .

إرْصاداً : تَرَقُّباً وَانْتِظاراً .

شَفا جُرُفٍ : حافَّةِ وَادٍ .

هارٍ : مُتَصَدِّعٍ آيلٍ لِلسُّقوطِ .

ريبَةً : اضْطِراباً وَحَيْرَةً .

التَّفسيرُ :

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى طوائِفَ النّاسِ ومَوقِفَهُم في تبوكَ ، خَتَمَ اللهُ تَعالى الحَديثَ عَنِ المَنافقِينَ بِذِكْرِ شَيءٍ مِنْ فاسِدِ أعمالِهِمُ ، الّتي أرادوا بِها التَّشويشَ عَلى المُسلِمينَ في المَدينَةِ ، وذلكَ بإقامةِ مَسْجِدٍ لم يُقْصَدْ مِن بِنائِهِ وجْهُ اللهِ تَعالى ، وإنَّما المَقْصَدُ خِلافُ ذلِكَ ، فَفَضَحَ اللهُ تَعالى هذا العملَ

الفاسدَ وأهلَهُ ، وهتَكَ أستارَهُم ، وزَلزَلَ بُنيانَهُم ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى مُحَذِّراً المُؤمنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

بيَّنتِ الآيةُ الكَريمَةُ الغايَةَ مِنْ بناءِ ذلِكَ المَسجِدِ ، ولَقَدْ كانَتِ الغايَةُ موزَّعَةً عَلى النَّحوِ الآتي :

أوَّلاً . ضِراراً : بِمعنى إلْحاقاً للأذى بِالمؤمِنينَ ، وصَرفِهِم عَن مَسجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَغيرِهِ مِن مساجِدِ المُسْلِمينَ الّتي بُنِيَتْ للهِ تَعالى ، وَبِخاصّةٍ مسجدُ قُباءٍ .

ثانياً : كُفراً : نُصرَةً لأهلِ الكُفرِ ، ولا يَفْعَلُ هذا الفِعلَ إلاَّ مَنْ خَرَجَ مِنْ مِلَّةِ الإسلامِ .

ثالثاً : تَفريقاً بينَ المؤمِنينَ : ذلِكَ لأنهُ يُمَزِّقُ وحدَةَ المسلِمينَ ويُشَتِّتُهُم إلى نواحٍ متعدِّدةٍ ، فَتَضْعُفُ جماعَتُهُم ، وَتَلينُ قَناتُهُم ، فَيَسهلُ اقْتِناصُهُمْ .

رابعاً . إرصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ ، ذلِكَ أنَّ مِن غاياتِ هذا البناءِ الّذي سَمَّوْهُ مَسجِداً ، أنْ يَكونَ مُجتَمَعاً لِمَن يُحارِبُ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ ، يُخَطِّطونَ فيهِ ، وَيُدَبِّرونَ المَكائِدَ وَالمَصائِبَ لِلمُسْلِمينَ .

مِنَ المُنافِقينَ جَماعَةٌ بَنَوْا مَسجِداً لا يَبتَغونَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعالى ، وَإنَّما بَنَوْهُ لأغراضٍ فاسِدَةٍ ، وَمقاصِدَ خَبيثَةٍ ، وَمَع ذلِكَ فَهُم يُقسِمونَ أغلظَ الأيْمانِ بأنَّهُم ما أرادوا بِبِنائِهِ إلاّ الخَيْرَ وَالعَمَلَ الأحسَنَ . ثُمَّ أخبرَ سُبْحانَهُ بِأنَّهُ يَشهَدُ بِأنَّهُمْ كاذِبونَ في تلكَ الأيْمانِ وَفيما يَقولونَ ، وَلَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى رَسولَهُ وَالمُؤْمِنينَ عَنِ الصَّلاةِ في هذا المَسجِدِ وَالقيامِ فيهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

لا تُصَلِّ أَيُّها الرَّسولُ ﷺ في هذا المَسجِدِ أَبَداً ، وَإنَّ مَسْجِداً أُقيمَ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ تَعالى وَطَلَباً لِمَرضاتِهِ مِن أوَّلِ أمرِهِ ، كَمَسجِدِ قُباءٍ وَالمَسجِدِ النَّبَوِيِّ لَجَديرٌ بِأنْ تُؤَدّى فيهِ شَعائِرُ اللهِ تَعالى ، وَفي هذا المَسجِدِ رِجالٌ يُحِبّونَ أنْ يُطَهِّروا أجسادَهُم وَقُلوبَهُم بِأداءِ العِبادَةِ الصَّحيحَةِ فيهِ ، واللهُ تَعالى يُحِبُّ وَيُثيبُ الَّذينَ يَتَقَرَّبونَ إليهِ بالطَّهارَةِ الجِسْمِيَّةِ وَالمَعنَوِيَّةِ .

وَقَد خَيَّبَ اللهُ تَعالى مَسعى هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، وَأبطَلَ كَيْدَهُم ، بِأنْ أمَرَ رَسولَهُ بِهَدْمِ هذا المَسجِدِ وَإزالَتِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الفَرْقَ بَيْنَ مَن أَسَّسَ بُنيانَهُ عَلى الحَقِّ وَمَنْ أَسَّسَ بُنيانَهُ عَلى الباطِلِ بِحَيثُ لا يَستَوِيانِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

لا يَسْتَوي في عَقيدَتِهِ وَلا في عَمَلِهِ مَنْ بُنيانُهُ عَلى الإخلاصِ في تَقوى اللهِ تَعالى ، وَابتِغاءِ رِضائِهِ ، ومَنْ أقامَ بُنيانَهُ عَلى النِّفاقِ وَالكُفْرِ ، فإنَّ عَمَلَ المُتَّقي مُستَقيمٌ ثابِتٌ عَلى أصلٍ مَتينٍ ، وَعَمَلُ المُنافِقِ كَالبِناءِ عَلى حافَّةٍ هاوِيَةٍ فَهُوَ واهٍ ساقِطٌ ، يَقَعُ بَصاحِبِهِ في نارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ تَعالى لا يَهدي إلى طَريقِ الرَّشادِ مَنْ أصَرَّ عَلى ظُلمِ نَفسِهِ بِالكُفْرِ .

وَهاتانِ صورَتانِ مُتَقابِلَتانِ لِلثَّباتِ وَالتَّصَدُّعِ وَالانهيارِ واضِحَتانِ لا تَخفَيانِ عَلى ذي عَيْنَيْنِ ، وَعَلى العاقِلِ أنْ يُفاضِلَ بَيْنَ طَريقٍ يُنْجيهِ وَطَريقٍ يُهلِكُهُ أو يَقضي عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَختارُ الطَّريقَ الَّذي يُنْجيهِ .

وَالمُرادُ بِالمَثَلِ هُنا بَيانُ ثَباتِ الحَقِّ الَّذي هُوَ دينُ الإسلامِ ، وَقُوَّتُهُ ، وَدوامُهُ وَسَعادَةُ أهلِهِ بِهِ ، وَذِكْرُهُ بِأثَرِهِ وَثَمَرَتِهِ في عَمَلِ أهلِهِ ، وَجِماعُها التَّقوى وَبَيانُ ضَعْفِ الباطِلِ ، وَاضمِحلالِهِ ، وَقُرْبُ زَوالِهِ ، وَخَيبَةُ صاحِبِهِ ، وسُرعَةُ انقطاعِ آمالِهِ . ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ الآثارَ الَّتي تَرَتَّبَتْ عَلى هَدمِ مَسجِدِ الضِّرارِ في نُفوسِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الأشرارِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

لا يَزالُ ما بَناهُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ مَوْضِعَ ريبَةٍ وَقَلَقٍ في نُفوسِهِم في كُلِّ وَقتٍ وَفي كُلِّ حالٍ ، إلاّ في وقتٍ واحِدٍ هُوَ وَقتُ أنْ تَتَمَزَّقَ قُلوبُهُم بِالمَوتِ وَالهَلاكِ ؛ أي أنَّهُم لا يَزالونَ في قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَاضطِرابٍ ما داموا أحياءَ ، أمّا بَعْدَ مَوتِهِم فَستَتَكَشَّفُ لَهُمُ الحَقائِقُ ، وَيَجِدونَ مَصيرَهُمُ الأليمَ .

وَالسَّبَبُ في أنَّ هذا البِناءَ كانَ مَثارَ ريبَتِهِم وَقَلَقِهِم ، حَتّى بَعْدَ هَدْمِهِ ، لأنَّهُم بَنَوْهُ بِنِيَّةٍ سَيِّئَةٍ ، وَلِمَقاصِدَ خَبيثَةٍ ، فَكانوا يَخشَوْنَ أنْ يُطلِعَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ عَلى مَقاصِدِهِم الذَّميمَةِ ، فَهذِهِ الخَشيَةُ أورثَتْهُمُ القَلَقَ وَالرِّيبَةَ . فَلَمّا أَطلَعَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ عَلى أغراضِهِم ، وَتَمَّ هَدْمُ مَسجِدِ الضِّرارِ وَانهارَ الجُرُفُ المُتَداعي المُتَساقِطُ ، استَمَرَّ قَلَقُهُم وَرَيْبُهُم ، لأنَّهُم لا يَدرونَ بَعْدَ ذلِكَ ماذا سَيَفعَلُ المُؤْمِنونَ بِهِم .

وَهكذا شَأنُ الماكِرينَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، إنَّهُم يَعيشونَ طوالَ حَياتِهِم في فَزَعٍ وَقَلَقٍ وَخَوفٍ مِنْ أنْ يَنكَشِفَ مَكرُهُم وَيَظْهَرَ خِداعُهُم .

وبَعْدَ ذلِكَ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ في هذا الكَونِ ، وَبِكُلِّ ما يَفعَلُهُ وَيَقولُهُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ سِرّاً وَجَهْراً ، حَكيمٌ في كُلِّ تَصَرُّفاتِهِ وَأفعالِهِ وَفي صُنعِهِ بِهِم ، وَسَيُجازيهِمْ يَومَ القِيامَةِ بِما يَسْتَحِقّونَهُ مِن عِقابٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وجوبُ الحَذَرِ مِنَ الأعمالِ الَّتي لم يُرَدْ بها وجهُ اللهِ تَعالى ، وإنْ كانَ ظاهِرُها السّلامةُ .

٢ـ وُجوبُ الحَذَرِ مِن تَجَمُّعاتِ أعداءِ اللهِ تَعالى وأعداءِ رَسولِهِ ﷺ .

٣ـ يَنبَغي لِلمُؤمِنِ أن يَبتَعِدَ عَن مَواطِنِ الشُّبُهاتِ .

٤ـ وَجوبُ بناءِ المَساجِدِ عَلى تَقوىً مِنَ اللهِ تَعالى وَرضوانٍ .

٥ـ المُحافَظَةُ عَلى الطَّهارَةِ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي يُحِبُّها اللهُ تَعالى .

٦ـ اسْتِحبْابُ الصَّلاةِ مَعَ الجَماعَةِ الصّالِحَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

ضِراراً ، إرصاداً لِمَن حارَبَ اللهَ وَرَسولَهُ ، شَفا جُرُفٍ هارٍ ، ريبَةً .

٢ـ ما الغايَةُ مِن بناءِ مَسجِدِ الضِّرارِ ؟ وَمَنِ الَّذينَ بَنَوْهُ ؟

٣ـ بِمَ أمرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بِشَأْنِ هذا المَسْجِدِ ؟

٤ـ وَضِّحِ الصّورَةَ الّتي عَرَضَتْها الآياتُ الكَريمَةُ لِمَسْجِدِ التَّقوى وَمَسْجِدِ الضِّرارِ .

٥ـ لِماذا كانَ بِناءُ مَسْجِدِ الضِّرارِ ريبَةً في قُلوبِ الَّذينَ بَنَوْهُ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَاكتُبْ مَوْضوعاً في حُدودِ صَفحَتَيْنِ عَنْ مَسجِدِ الضِّرارِ ، وَعَلِّقْهُ عَلى مَجلَّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

* * *

الدَّرسُ الخامسُ والأربعونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ
ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اشترَى مِنَ المُؤْمنينَ : هذِهِ استِعارَةٌ لِلوَعْدِ بِالجَزاءِ عَنِ الجِهادِ .

اسْتَبْشِروا : اشْعُروا بِفَرَحِ البُشْرى شُعوراً تَنبَسِطُ لَهُ أساريرُ الوُجوهِ .

السّائِحونَ : السّائِرونَ في الأرضِ لِكُلِّ مَقصِدٍ شَريفٍ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أصنافَ المُتَخَلِّفينَ عَنِ غَزوَةِ تَبوكَ ، أَتبَعَ ذلِكَ بِالتَّرغيبِ في الجِهادِ وَبَيانِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، الَّذينَ عَقَدوا مَعَ اللهِ تَعالى صَفقَةً رابِحَةً ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى في هذا الشَّأنِ :

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ .

يُؤكِّدُ اللهُ تَعالى وَعْدَهُ لِلمُؤْمنينَ الّذينَ يَبذُلونَ أنفُسَهُم وَأموالَهُم في سَبيلِهِ ، بِأنَّهُ اشتَرى مِنهُم تِلكَ الأنفُسَ وَالأموالَ بِالجَنّةِ ، ثَمَناً لِما بَذَلوا ، فإنَّهُم يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَيَقتُلونَ أعداءَ اللهِ تَعالى أو يُستَشهَدونَ في سَبيلِهِ . وَقَد أثبَتَ اللهُ تَعالى هذا الوَعدَ الحَقَّ في التَّوراةِ والإنجيلِ كَما أثبَتَهُ اللهُ تَعالى في القرآنِ الكَريم ، وَلَيسَ أحَدٌ أبَرَّ ولا أوفى بِعَهدِهِ مِنَ اللهِ تَعالى ، فافرَحوا أيُّها المُؤْمِنونَ المُجاهِدونَ بِهذِه المُبايَعَةِ الّتي بَذَلتُم فيها أنفُسَكُم وَأموالَكُمُ الفانِيَةَ ، وَعُوِّضتُم عَنها بِالجَنّةِ الباقِيَةِ ، وَهذا الشِّراءُ وَالبَيعُ هُوَ الظَّفَرُ الكَبيرُ لَكُم .

إنَّ هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ تَكشِفُ عَن حَقيقةِ العَلاقَةِ الّتي تَربِطُ المُؤْمنينَ بالله تَعالى ، وَعَنْ حَقيقَةِ البَيعَةِ الّتي أعطَوها ـ بإسلامِهِم ـ طوالَ الحَياةِ ، فَمَنْ بايَعَ هذِهِ البَيعَةَ وَوَفّى بها فَهُوَ المُؤمِنُ الحَقُّ ، الّذي يَنطَبِقُ عَلَيْهِ وَصْفُ (المُؤْمِنِ) وَتَتَمَثَّلُ فيهِ حَقيقَةُ الإيمانِ ، وَإلاّ فَهِيَ دَعوى تَحتاجُ إلى التَّصديقِ والتَّحقيقِ .

وَحَقيقةُ هذِهِ البَيعَةِ ، أو المُبايَعَةِ كما سَمّاها اللهُ تَعالى كَرَماً مِنهُ وَفَضلاً وَسَماحَةً ، أنَّهُ سُبْحانَهُ قَدِ استَخلَصَ لِنَفسِهِ أنفُسَ المُؤْمِنينَ وَأموالَهُم ، فَلَم يَعُدْ لَهُم أنْ يَستَبْقوا مِنها بَقِيَّةً لا يُنفِقونَها في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، لَم يَعُدْ خَيارٌ أنْ يَبذُلوا أو يُمسِكوا ، إنَّها صَفْقَةٌ مُشتَراةٌ ، لِشاريها أنْ يَتَصَرَّفَ بِها كَما يَشاءُ ، وفِقَ ما يَفْرِضُ وَوِفقَ ما يُحَدِّدُ ، وَلَيسَ لِلبائِع فيها مِن شَيءٍ سِوى أنْ يَمضِيَ في الطَّريقِ المَرسوم ، لا يَلتَفِتُ وَلا يَتَخَيَّرُ ، وَلا يُناقِشُ وَلا يُجادِلُ وَلا يَقولُ إلاّ الطّاعَةَ وَالعَمَلَ وَالاستِسْلامَ . وَالثَّمَنُ هُوَ الجَنَّةُ ، وَالطَّريقُ هُوَ الجِهادُ وَالقَتلُ وَالقِتالُ ، وَالنِّهايَةُ هِيَ النَّصْرُ أو الاستِشهادُ .

إنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بَيْعَةٌ مَعقودَةٌ في عُنُقِ كُلِّ مُؤمِنٍ ، مُنذُ كانَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمُنذُ كانَ دينُ اللهِ تَعالى ، إنَّها السُّنَّةُ الجارِيَةُ الّتي لا تَستَقيمُ الحَياةُ مِنْ دونِها ، وَلا تَصلُحُ الحَياةُ بِتَرْكِها ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وَالمُجاهِدونَ يَتَّصفونَ بأفضَلِ الصِّفاتِ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ، وَلَم يَتْرُكْنا اللهُ تَعالى لِتَحْديدِ هذِهِ الصِّفاتِ بِأَنْفُسِنا ولا لِتَبَيُّنِ هذِهِ المَعالِمِ كَما نَشاءُ ، وَإنَّما حَدَّدَها هُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَبَيَّنَها في قَولِهِ تَعالى :

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

وفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنّ المُجاهِدينَ المُخلِصينَ هُم مَنْ تَتوافَرُ فيهِم هذِهِ الصِّفاتُ السَّبعُ ، وَهِيَ :

الصِّفَةُ الأولى : التّائِبـونَ : أي مِمّا أسْلَفوا ، العائِدونَ إلى اللهِ تَعالى مُستَغفِرينَ . وَالتَّوبَةُ شُعورٌ بالنَّدَمِ عَلى ما مَضى ، وَتَوَجُّهٌ إلى اللهِ تَعالى فيما بَقِيَ ، وَكَفٌّ عَنِ الذَّنبِ ، وَعَمَلٌ صالِحٌ يُحَقِّقُ التَّوْبَةَ بِالفِعْلِ ، كَما يُحَقِّقُها بِالتَّرْكِ فَهِيَ طَهارَةٌ وَزَكاةٌ وَتَوَجُّهٌ وإصلاحٌ .

الصِّفَةُ الثّانيَةُ : العابِدونَ : أي المُتَوَجِّهونَ إلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ بِالعِبادَةِ ، وَالعُبودِيَّةُ صِفَةٌ ثابِتَةٌ في نُفوسِهِم تُتَرجِمُها الشَّعائِرُ ، كَما يُتَرجِمُها التَّوَجُّهُ إلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ بِكُلِّ عَمَلٍ ، وَبِكُلِّ قَولٍ ، وَبِكُلِّ طاعَةٍ ، وَبِكُلِّ اتِّباعٍ .

الصِّفَةُ الثّالِثَةُ : الحامِدونُ : الّذينَ تَنطَوي قُلوبُهُم لِلمُنعِمِ بِالنِّعمَةِ ، وَتَلهَجُ ألسِنَتُهُم بِحَمدِ اللهِ تَعالى في السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ ، وَلَيسَ الحَمْدُ هُوَ الحَمْدُ في السَّرّاءِ وَحْدَها ، وَلكِنَّهُ الحَمدُ في السَّراءِ والضَّرّاءِ ، حَيثُ يُدرِكُ القَلبُ المُؤْمِنُ أنَّ اللهَ تَعالى الرَّحيمَ العادِلَ ما كانَ لِيَبتَليَ المُؤْمِنَ إلاّ لِخَيرٍ يَعلَمُهُ ، مَهما خَفِيَ عَلى العِبادِ إدراكُهُ .

الصِّفَةُ الرّابِعَةُ : السّائِحونَ : السّائِرونَ في الأرضِ لِمَقصِدٍ شَريفٍ ، وَغَرَضٍ كَريمٍ لِتَحصيلِ العِلمِ ، وَالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَالتَّدَبُّرِ في مَلَكوتِهِ سُبْحانَهُ ، وَالتَّفَكُّرِ في سُنَّتِهِ في كَونِهِ ، والاعتِبارِ بِما عَمِلَهُ في هذا الكَونِ العَجيبِ .

الصِّفَةُ الخامِسَةُ : الرّاكِعونَ السّاجِدونُ : أي الّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَيَقومونَ بِالصَّلاةِ ، وَكَأنَّها صِفَةٌ ثابِتَةٌ مِن صِفاتِهِم ، وَكَأنَّ الرُّكوعَ وَالسُّجودَ طابَعٌ مُمَيِّزٌ لَهُم مِن بَيْنِ النّاسِ .

الصِّفَةُ السّادِسَةُ : الآمِرونَ بِالمَعروفِ ، وَالنّاهونَ عَنِ المُنكَرِ . والأمرُ بِالمَعروفِ الّذي يَرضاهُ الشَّرْعُ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ الّذي يَأباهُ الشَّرْعُ مِن مَيِّزاتِ المُجتَمَعِ المُسلِمِ ، وَهُوَ دَليلُ الحَيَوِيَّةِ في ذلِكَ المُجتَمَعِ ، وَدَليلُ الحَياةِ الحَقيقيّةِ الّتي لا تَرى الخَطأَ إلاّ وَتُسارِعُ في إزالَتِهِ حَتّى لا يَصيرَ داءً تَفسُدُ مَعَه أخلاقُ المُجتَمَعِ المُسلِمِ ، وَهذِهِ الصِّفَةُ هِيَ دَليلُ التّآزُرِ وَالتَّواصُلِ بَيْنَ أفرادِ المَجتَمَعِ ، وَشَفَقَةُ بَعضِهِم عَلى بَعضٍ ، وَنِعْمَ هذا المُجْتَمَعُ الّذي يَتَعاوَنُ فيهِ أفرادُهُ إلى حَدِّ الشَّفَقَةِ .

الصِّفَةُ السّابِعَةُ : الحافِظونَ لِحُدودِ اللهِ ، يَعني : القائِمونَ عَلى حُدودِ اللهِ تَعالى لِتَنفيذِها في النَّفسِ وَفي النّاسِ ، وَمُقاوَمَةِ مَنْ يُضَيِّعُها أو يَعتَدي عَلَيْها ، لا فَرْقَ في هذا بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقيرٍ ، وكَبيرٍ

وَصَغيرٍ ، فالنّاسُ كُلُّهُم أمامَ شَريعَةِ اللهِ تَعالى مُتَساوونَ ، وَهذا هُوَ العَدلُ ، وَنِعْمَ هُوَ .

هذهِ هِيَ الجَماعَةُ المُؤْمِنَةُ الّتي بايَعَها اللهُ تَعالى عَلى الجَنَّةِ ، وَاشترى مِنها الأنفُسَ وَالأموالَ ، لِتَمضيَ مَعَ سُنَّةِ اللهِ تَعالى الجارِيَةِ مُنذُ كانَ دينُ اللهِ تَعالى ، وَرُسُلُهُ صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِم جَميعاً وَرِسالاتُهُ ، قِتالٌ في سَبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَقَتلٌ لأعداءِ اللهِ تَعالى الّذينَ يُحادّونَ اللهَ تَعالى ، أو استِشهادٌ في المَعرَكَةِ الّتي لا تَفتُرُ بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ ، وَبَيْنَ الإسلامِ والجاهِلِيَّةِ ، وَبَينَ الشَّريعَةِ والطّاغوتِ ، وَبينَ الهُدى وَالضَّلالِ .

وَلَيْسَتِ الحَياةُ لَهْواً وَلَعِباً ، وَلَيْسَتْ أكلاً كَما تأكُلُ الأنعامُ ، وَلَيْسَتْ سَلامةً ذَليلَةً ، وراحةً بَليدَةً ، وَرضىً بِالسِّلْمِ الرَّخيصِ ، إنَّما الحَياةُ : كِفاحٌ في سَبيلِ الحَقِّ ، وَجهادٌ في سَبيلِ الخَيْرِ ، وانتِصارٌ لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، أو استِشهادٌ كذلِكَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، ثُمَّ الجَنَّةُ والرِّضوانُ ، هذِهِ هِيَ الحَياةُ الّتي يُدعى إلَيها المُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ كَرامَةُ المُؤمِنِ عِندَ اللهِ تَعالى كَبيرَةٌ .

٢ـ مِنْ رضا اللهِ تَعالى بَذْلُ الأنفُسِ وَالأموالِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى . وَتَحقيقُ رضوانِ اللهِ أعظَمُ فَوزٍ في الحَياةِ .

٣ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مِن أَوْثَقِ عُرى الإيمانِ .

٤ـ المُجتَمَعُ المُسْلِمُ حَيَوِيٌّ مُتَرابِطٌ مُتَّحِدٌ مَتَآلِفٌ ، مَتَآزِرٌ .

٥ـ الجَماعَةُ المُؤمِنَةُ أُمَّةٌ مُمَيَّزَةٌ بِأوصافٍ يَرْضى اللهُ تَعالى عَنْها وَرَسولُهُ ﷺ .

٦ـ الجِهادُ ماضٍ إلى يَومِ القِيامَةِ .

٧ـ ضَرورَةُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لِنَشرِ دينِهِ ، وَلِرَفْعِ دَرَجاتِ المُؤْمِنينَ عِندَ رَبِّهِمْ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

اشتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ ، اسْتَبشِروا ، السّائِحونَ .

٢ـ بيِّنِ الصَّفْقَةَ الّتي تَمَّتْ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَعبادِهِ المُؤْمِنينَ .

٣ـ بيِّنْ أثَرَ كُلٍّ مِمّا يَلي عَلى المُجتَمَعِ المُسلِمِ أفراداً وَجَماعاتٍ :

أ ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

ب ـ الأَمْرُ بِالمَعروفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ .

ج ـ حِفْظُ حُدودِ اللهِ تَعالى .

٤ـ عَدِّدْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ باعوا أنفُسَهُم للهِ تَعالى .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ غَرَضَيْنِ آخَرَيْنِ مِن أغراضِ السَّفَرِ وَالسِّياحَةِ المُباحَةِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والعِشْرونَ

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن
مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَوّاهٌ : كَثيرُ التَّأَوُّهِ وَالتَّوَجُّعِ مِن خَشيَةِ اللهِ تَعالى .

حَليمٌ : صَبورٌ عَلى ما يَنالُهُ مِنَ الأَذى .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى فَضلَ الجِهادِ وَالمُجاهِدينَ ، وَأَنَّ ذلِكَ يُمَثِّلُ أعلى صُوَرِ الوَلاءِ للهِ تَعالى ، بَيَّنَ بَعْدَهُ أَنَّ مِنْ ضَروراتِ هذا الوَلاءِ قَطْعُ الرَّوابِطِ مَعَ الأَقرَبينَ إذا كانوا في صُفوفِ المُعادينَ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

ما كانَ مِنْ شَأنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلا مِنْ شَأنِ أصحابِهِ المُؤْمِنينَ ، أَنْ يَسْأَلوا اللهَ تَعالى أَنْ يَغفِرَ

لِلمُشرِكينَ في حالٍ مِنَ الأحوالِ ، حَتّى وَلَو كانَ هؤُلاءِ المُشرِكونَ مِن أقرَبِ أقربائِهم ، وذلِكَ بَعْدَ أنْ تَبيَّنَ لِلرَّسولِ ﷺ وَلأصحابِهِ أنَّ هؤُلاءِ المُشرِكينَ مِن أصحابِ الجَحيمِ ، بِسَبَبِ مَوتِهم عَلى الكُفرِ ، وإصْرارِهِم عَلَيْهِ ، وَعَدَمِ اعتِرافِهِم بِدينِ الإسلامِ .

وَهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تَشريعٌ مُبتَدأٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلَيسَتْ وارِدَةً عَلى سَبَبِ نُزولٍ ، لأنَّها مِن آخِرِ القُرآنِ نُزولاً ، وَغايَتُها قَطْعُ العَلائِقِ مَعَ مَنْ قَطَعَ عَلاقَتَهُ مَعَ اللهِ تَعالى ، ذلِكَ أنَّ العَقيدَةَ هِيَ العُروَةُ الكُبرى الّتي تَلتَقي فيها الأواصِرُ البَشَرِيَّةُ ، وَالعلاقاتُ الإنسانِيَّةُ ، فإذا انقَطَعَتْ وَشيجَةُ العَقيدةِ ، انقَطَعَتِ الأواصِرُ الأُخْرى مِن جُذورِها ، فَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في نَسَبٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في صِهْرٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في قَومٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في أرضٍ ، إمّا إيمانٌ بِاللهِ تَعالى فَالوَشيجَةُ الكُبرى موصولَةٌ وَالوَشائِجُ (الصِّلاتُ) الأخرى كُلُّها تَنبُعُ مِنها وتَلتَقي بِها ، أو لا إيمانَ فَلا صِلَةَ إذَنْ يُمكِنُ أنْ تَقومَ بَيْنَ إنسانٍ وَإنسانٍ ، وَأمّا المَصالِحُ المُرتَبِطَةُ بَيْنَ النّاسِ فَذلِكَ شَأنٌ دُنيَوِيٌّ لا تَتَحدَّثُ الآيَةُ الكَريمَةُ عنهُ .

وَلَمّا كانَتْ بَعضُ النُّفوسِ رُبَّما تَتَعلَّقُ بِما فَعَلَهُ نَبِيُّ اللهِ تَعالى إبراهيمُ عَلَيْهِ السّلامُ ، مُحتَجَّةً بِأنَّهُ دَعا لأبيهِ لَعَلَّ اللهَ يَغفِرُ لَهُ ، وذلِكَ في قَولِهِ تَعالى : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٧] .

نَقولُ لِهؤُلاءِ لَمّا لَم يَحصُلْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِثلُ هذا الوَعدِ لَم يَجُزْ أنْ يُقتَدى بِوَعدِ إبراهيمَ ﷺ هُنا ، قالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

لا أُسوَةَ بِإبراهيمَ ﷺ في استِغفارِهِ لأبيهِ ، فَإنَّما كانَ ذلِكَ مِنهُ وَعْداً رَجاءَ أنْ يَهديَ اللهُ تَعالى أباهُ إلى دينِ الإسلامِ الّذي بُعِثَ بِهِ ، وَلكِنْ لَمّا أنْ ماتَ أبوهُ عَلى الشِّرْكِ ، وَتَبيَّنَ إبراهيمُ ﷺ أنَّ أباهُ عدُوٌّ للهِ تَعالى لا رَجاءَ في هُداهُ ، تَبَرَّأَ مِنهُ وَقَطَعَ صِلَتَهُ بِهِ .

هذا نَبِيُّ اللهِ إبراهيمُ ﷺ كَثيرُ الخُشوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِرَبِّهِ كَثيرُ الصَّفحِ عَمَّنْ آذاهُ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَصفَحْ عَنْ أبيهِ عِندما استَيقَنَ مَوتَهُ كافِراً ، فأعلَنَ بَراءَتَهُ مِنهُ ، وانقِطاعَ صِلَتِهِ بِهِ ، وهكَذا شَأنُ المُؤْمِنِ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، يَجِبُ أنْ يَصِلَ مَن وَصَلَ دينَ اللهِ تَعالى ، وَيقطَعَ مَنْ قَطَعَ دينَ اللهِ تَعالى ، فَهذا هُوَ شَأنُ الإيمانِ ، وَهكذا هُوَ أثرُهُ في النُّفوسِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلكَ سُنَّةً عامَّةً مِن سُنَنِهِ الّتي لا تَتَخَلَّفُ دَلالَةً عَلى سَعَةِ رَحمَتِهِ وَوافِرِ عَدلِهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى لا يُحاسِبُ النّاسَ إلاّ عَلى ما بيَّنَ لَهُم أن يَتَّقوهُ وَيحْذَروهُ ولا يأتوهُ ، وَلَيسَ مِن عَدلِ اللهِ تَعالى أنْ يَذهَبَ بِهُدى قَومٍ بَعْدَ إذ هَداهُم ، وَيَكِلَهُمْ إلى الضَّلالِ لِمُجَرَّدِ الفِعْلِ ، ما لَمْ يَكُنْ هذا الفِعلُ مِمّا نَهاهُم عَنهُ ، ذلِكَ أنَّ الإنسانَ قاصِرٌ ، وَاللهُ تَعالى هُوَ العَليمُ بِكُلِّ شَيءٍ ، وَمِنهُ البَيانُ وَالتَّعليمُ ، وَلَقَدَ جَعَلَ اللهُ تَعالى هذا الدِّينَ يَسراً لا عَسراً ، فَبَيَّنَ ما نَهى عَنهُ بَياناً واضِحاً ، كَما بَيَّنَ ما أمَرَ بِهِ بَياناً واضِحاً ، وَسَكَتَ عَنْ أشياءَ لَم يُبَيِّنْ فيها بَياناً - لا عَن نِسيانٍ وَلكن عَن حِكمَةٍ وَتَيسيرٍ - وَنَهى عَنِ السُّؤالِ عَمّا سَكتَ عَنهُ لِئَلا يَنتَهِيَ السُّؤالُ بِالسّائِلِ إلى التّشديدِ ، وَمِن هُنا فَلَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُحَرِّمَ شَيئاً مِنَ المَسكوتِ عنهُ ، وَلا أنْ يَنهى عَنِ الأشياءَ الّتي لم يُبَيِّنها اللهُ تَعالى تَحْقيقاً لِرَحمَةِ اللهِ تَعالى بِعبادِهِ .

وَفي نِهايَةِ هذِهِ الآياتِ وَفي جَوِّ الدَّعوَةِ إلى التَّجَرُّدِ مِنْ صِلاتِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ ، بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنَ الأنفُسِ وَالأموالِ ، يُقَرِّرُ اللهُ تَعالى أنَّ الوَلِيَّ النَّاصِرَ هُوَ اللهُ تَعالى وَحْدَهُ ، وَأنَّهُ مالِكُ السَّمواتِ وَالأرضِ ، وَمالِكُ الموتِ وَالحَياةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

إنَّ الأموالَ وَالأنفُسَ ، وَالسَّمواتِ وَالأرضَ ، وَالحياةَ وَالموتَ ، وَالولايَةَ وَالنُّصْرَةَ ، كُلُّها بِيَدِ اللهِ تَعالى دون سِواهُ ، وَفي الصِّلَةِ بِاللهِ تَعالى وَحدَهُ كِفايَةٌ وَغَناءٌ . وَخِتاماً : إنَّ هذِهِ التَّوكيداتِ المُتَوالِيَةَ وَهذا الحَسْمَ القاطِعَ في عَلاقاتِ القَرابَةِ تَدُلُّ عَلى ما كان يَدورُ في بَعضِ النُّفوسِ مِنَ اضْطِرابٍ وَأرْجَحَةٍ بَيْنَ الرَّوابِطِ السائِدَةِ في تِلكَ البيئَةِ وَرَوابِطِ العَقيدَةِ الجَديدَةِ ، مِمّا اقتَضى هذا الحَسْمَ الأخيرَ في السّورَةِ الّتي تَتَولّى الحَسْمَ في كُلِّ عَلاقاتِ المَجتَمَعِ المُسلِمِ بِما حولَهُ ، حتّى الاستِغفارُ لِمَن ماتَ عَلى الشِّرْكِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ مِنْها :

١- لا يَجوزُ لِمُسلِمٍ أنْ يَستغفِرَ لِمُشرِكٍ بَعْدَ مَوتِهِ عَلى الشِّرْكِ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِ لَهُ .

٢- رابِطَةُ العَقيدةِ هِيَ أوثَقُ الرَّوابِطِ وَأعْلاها .

٣- شَرْعُ مَنْ قَبلَنا لَيسَ شَرْعاً لَنا إلاّ إذا أقَرَّهُ شَرْعُنا .

٤ـ اللهُ تَعالى يُحافِظُ عَلى عِبادِهِ المُهتَدينَ .

٥ـ لا وِلايَةَ وَلا نُصْرَةَ إلاّ للهِ تَعالى الّذي بيَدِهِ مقاليدُ كلِّ شَيْءٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ الدَّليلَ عَلى ما يَأْتي مِن آياتِ هذا الدَّرسِ :

أ ـ لا يَستَغفِرُ المُؤْمِنُ لِلمُشْرِكِ .

ب ـ لا وَليَّ وَلا نَصيرَ إلاّ اللهُ تَعالى .

٢ـ لِماذا استَغفَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ لأبيهِ ؟

٣ـ بيِّنِ السُّنَّةَ العامَّةَ الّتي ذَكَرَتْها هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .

٤ـ كَيفَ دَلَّتْ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ عَلى أنَّ رابِطَةَ العَقيدَةِ لا تَعلوها رَابِطَةٌ ؟

نَشاطٌ :

١ـ وَرَد في السّورَةِ آيَةٌ تَنهى الرَّسولَ ﷺ عَنِ الصَّلاةِ عَلى الكافِرينَ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ المُمْتَحِنَةِ الّتي تَدْعوهُ إلى التّأسّي بِإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والأربعونَ

سورةُ التَّوبَةِ ـ القِسْمُ الثَّلاثونَ

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ
بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ
وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ساعةِ العُسْرَةِ	: وَقْتِ غَزوةِ تَبوكَ ، وقدْ كانَ وقتَ شِدَّةٍ وضيقٍ .
كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ مِنْهُمْ	: أشْرَفَ فريقٌ مِنْهُمْ على المَيْلِ إلى التَخلُّفِ عنِ الغزوةِ .
ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ	: شَعَروا بأنَّ الأرْضَ الفَسيحَةَ صارتْ ضَيِّقَةً .
لا مَلجأ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ	: لا مَهْرَبَ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ .

التَّفْسيرُ :

لمّا كانَ الّذي مَضَى مِنَ الآياتِ مُبيِّناً طَبيعَةَ البَيْعَةِ مَعَ اللهِ تَعالى ، كان التَّخلُّفُ عَنِ الجِهادِ لِلْقادِرينَ ـ أيّاً كانتِ الأسْبابُ ـ أمْراً مُستَنْكَراً عَظيماً ، وكانَ ما بَدا في تلكَ الغَزْوَةِ مِنَ التَّردُّدِ والتَّخلُّفِ ، ظاهرةٌ تَستَحِقُّ التَّتبُّعَ والتَّركيزَ عَلَيْها . وفي هذهِ الآياتِ التّالِيَةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى عَظيمَ فَضْلِهِ ورَحمَتِهِ بالمُؤْمنينَ ، إذْ يَتجاوزُ عمّا بَدا مِنَ المُؤْمنينَ المُخْلصينَ ، ويَتوبُ عَلَيْهِم فيما وَقَعَ منهُم مِنْ أخطاءٍ صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ ، كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ مَصيرَ الثّلاثةِ الَّذينَ خُلِّفوا بغيرِ حُكْمٍ في أمْرِهِمْ ـ وهُمُ المُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ تَعالى الَّذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ ـ حتّى نزلَ هذا الحُكْمُ بعدَ فترةٍ مِنَ الزّمانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

وتوبةُ اللهِ تَعالى عَلى نبيِّهِ ﷺ ، الظاهرُ أنّها مُتعلِّقةٌ بما سَبَقَ أنْ قالَ اللهُ عنهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ في هذهِ السّورةِ ، وهُوَ قولُهُ تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وذلكَ حينَ استأذَنهُ جماعةٌ مِنْ أُولي الطَّوْلِ بأعْذارٍ مُنتحلَةٍ فأذِنَ لهُمْ ، وقدْ عَفا اللهُ تَعالى عنهُ في اجْتِهادِهِ هذا ﷺ مَعَ تَنبيهِهِ إلى أنَّ الأوْلى كانَ هو التّريُّثَ ، حتى يَتبيّنَ الصّادِقينَ في أعذارِهِمْ مِن الكاذبينَ المُنتحِلينَ .

وتوبةُ اللهِ تَعالى عَلى المُهاجرينَ والأنْصارِ تَظهَرُ مِنْ قولِهِ تَعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ وقدْ كانَ بعضُهُم تَثاقَلَ في الخُروجِ ثُمَّ لَحِقَ بالرَّكْبِ - وهُمْ مِنْ خُلَّصِ المُؤْمنينَ - وبعضُهُمُ اسْتَمَعَ للمُنافِقينَ المُرْجِفينَ بِهَوْلِ لِقاءِ الرّومِ ، ثُمَّ ثَبَّتَ اللهُ تَعالى قَلْبَهُ ، ومَضى بَعْدَ تَردُّدٍ .

لقدْ تقبَّلَ اللهُ تَعالى تَوبةَ النَّبيِّ ﷺ ، كما تَقبَّلَ توبةَ أصْحابِهِ المُهاجرينَ والأنْصارِ ، الَّذينَ اتّبعوهُ عنْ طَواعيةٍ وإخْلاصٍ واخْتبارٍ في ساعةِ العُسْرَةِ ، أي في وقتِ الشّدّةِ والضِّيقِ ، وقدْ كانتْ غزوةُ تبوكَ تُسمّى غزوةَ العُسْرَةِ ، لأنَّ المُؤْمنينَ خَرَجوا إليها في سَنَةٍ مُجْدِبَةٍ ، وحرٍّ شديدٍ ، وقِلَّةٍ في الزّادِ والماءِ والرّاحلةِ ، وقد قيلَ في كُتبِ السّيرةِ إنّ الرَّجلَيْنِ مِنَ المُؤْمنينَ كانا يَشقّانِ التّمْرَةَ بَيْنَهُما ، وكانَ العَشَرةُ منهُمْ يتَعاقبونَ بَعيراً واحِداً ، يركبُ الرّجلُ منهُم ساعةً ثُمَّ يَنْزِلُ فيركَبُ صاحِبُهُ كذلكَ .

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ بَعْضَ المُؤْمنينَ قدْ حَصَلَ في نفسِهِ الاضْطرابُ بحيثُ أوْشَكَ أنْ لا يَذهبَ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى أدْرَكَهُ برحْمَتِهِ . وتعبيرُ القرآنِ الكَريم دِقيقٌ جدّاً ، فقدْ أشارَ إلى حُصولِ التّردُّدِ مِنَ البَعْضِ ، وهذا يَعني أنَّ مُعظَمَ المُهاجرينَ والأنْصارِ رضيَ اللهُ عنهم مَضوْا معَ النّبي ﷺ دونَ أنْ تُؤثِّرَ هذهِ الشّدائدُ في قوّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِ يَقينِهِمْ ، ومَضاءِ عَزيمَتِهِمْ ، وشِدَّةِ إخْلاصِهِمْ ، وهكذا هُو شَأْنُ المُؤْمنينَ .

ثُمَّ أكَّدَ اللهُ تعالى تَوْبَتَهُ عليْهِمْ بَعْدَ أنْ كابَدوا ، ما كابَدوهُ مِنَ العُسْرَةِ والمَشَقَّةِ ومُجاهَدةِ النّفْسِ ، وهذا مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ ورَأْفتِهِ بالمُؤْمنينَ .

وفي نَظْمِ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ ما يُلهِبُ المُؤْمنينَ للثِّقَةِ بربِّهِمْ ، ذلكَ أنّه سُبْحانَهُ ذَكَرَ التَّوْبَةَ أوّلاً قَبْلَ ذِكْرِ الذّنْبِ ، تفضُّلاً منهُ تَعالى وتَطْييباً لِقلوبِ هَؤُلاءِ المُؤْمنينَ ، ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تعالى الذَّنْبَ بَعْدَ ذلكَ ، وأتْبَعَهُ بذِكْرِ التّوْبَةِ مرّةً أُخْرى تعظيماً لِشأْنِهِمْ ، ولِيَعْلَموا أنَّهُ تَعالى قَدْ قَبِلَ تَوبَتَهُمْ ، وعَفا عنْهُمْ ، ثُمَّ أتْبَعَهُ بقولِهِ سُبْحانَه : ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تأكيداً لذلكَ ، والرأفةُ هِيَ السّعْيُ في إزالةِ الضَّرَرِ ، والرَّحمةُ هيَ السّعيُ في إيصالِ النّفْعِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ كَما تَقَبَّلَ تَوْبَةَ المُهاجِرينَ والأنصارِ الَّذينَ اتَّبَعوا رَسولَهُم ﷺ ساعةَ العُسْرَةِ ، فقدْ تَقَبَّلَ توبةَ الثّلاثةِ الَّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الاشْتِراكِ في غزوةِ تبوكَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾ .

وهذهِ الآيةُ الكَريمَةُ تحكي مُلَخَّصا لِقصّةِ المُتَخلِّفينَ الثلاثةِ مِنَ الأنْصارِ الَّذينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ في الّذي فَعلوهُ وهُم : كعبُ بنُ مالكٍ ، وهلالُ بنُ أميّةَ ، ومُرارةُ بنُ الرّبيعِ ، وحاصِلُ قِصَّتِهِمْ : أنّهم تَخلّفوا عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ من دونِ عُذْرٍ ، ولمّا رجَعَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ غزوةِ تبوكَ سألَهُمْ عنْ تَخلُّفِهِم فلمْ يَكذِبوهُ بالعُذْرِ كما فَعَلَ المُنافِقونَ ، وإنّما اعْتَرفوا بذَنْبِهِمْ وحَزِنوا لذلكَ حُزْناً شَديداً ، رغبةً منهُم في التّوبةِ إلى اللهِ تَعالى ، ثُمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهى النَّاسَ جَميعاً عَنْ كلامِهِمْ ، فلمْ يُكَلِّمْهُمْ أحدٌ ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَعْتَزِلوا نِساءَهُمْ فَفعلوا ، ثُمَّ عَفا عَنْهُم ﷺ بَعْدَ خمسينَ ليلةً ، وذلك بَعْدَ أنْ تابَ اللهُ عَلَيْهِم ، فأنزَلَ في تَوبتِهِمْ قرآناً .

لقدْ تقَبّلَ اللهُ تَعالى بفضلِهِ وإحْسانِهِ توبةَ النّبيِّ ﷺ والمُهاجرينَ والأنْصارِ ، وتقبّلَ كذلكَ توبةَ الثّلاثةِ الَّذينَ تَخلّفوا عنْ هذهِ الغَزْوَةِ كَسَلاً وحُبّاً للرّاحةِ . ولقدْ أخْبَرَنا اللهُ تَعالى بشدَّةِ تَحيُّرِهِمْ وكثرةِ حُزْنِهِمْ واسْتِسْلامِهِمْ لِحُكْمِ اللهِ تَعالى فيهِمْ ، أيْ حتّى إذا ضاقتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ على سَعَتِها بِسَبَبِ إعْراضِ النّاسِ عَنْهُمْ ، ومُقاطِعتِهِمْ لَهُمْ ، وضاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ بسببِ الهَمِّ والغَمِّ الّذي ملأها ، واعْتَقدوا أنَّهم لا مَلجأَ ولا مَهْرَبَ لَهُم مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعالى ، حَيْثُ قَبلَ تَوْبَتَهُمْ ، وغفَرَ خَطأَهُمْ وعَفا عَنْهُم ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لنا أنَّهُ بَعْدَ هذا التّأديبِ الشّديدِ لَهُمْ تَقَبَّلَ تَوْبَتَهُمْ لِيَتوبوا إليهِ تَوبةً صادِقَةً نَصوحاً ، لا تَكاسُلَ معَها بَعْدَ ذلِكَ عنْ طاعةِ اللهِ تَعالى وطاعةِ رسولِهِ ﷺ ، إنَّ اللهَ تَعالى هو دائِمُ القَبولِ لتوبةِ التّائبينَ ، عظيمُ الرَّحمةِ بعبادِهِ .

وأمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِتَقواهُ وبأنْ يَكونوا في زُمْرَةِ الصّادِقينَ مِثْلَ أولئكَ الَّذينَ تَضمنَّتْهُم القِصَّةُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ .

يا مَنْ آمَنتُمْ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، اتّقوا اللهَ تَعالى حقَّ تُقاتِهِ بأنْ تَفْعَلوا ما كَلَّفَكُمْ بِهِ ، وتَتْرُكوا ما نَهاكُمْ عنهُ ، وكُونوا مَعَ الصّادِقينَ في دينِ اللهِ تَعالى ، قَوْلاً ، وعَمَلاً ، وإخلاصاً ، فإنَّ الصِّدْقَ ما وُجِدَ في شيءٍ إلاّ زانَهُ ، وما وُجِدَ الكَذِبُ في شيءٍ إلاّ شانَهُ ، ومِنْ حقِّ مَنْ فَهِمَ عنِ اللهِ تَعالى وعَقَلَ عنهُ أنْ يُلازِمَ الصِّدْقَ في الأقوالِ ، والإخْلاصَ في الأعمالِ ، والصَّفاءَ في الأحوالِ ، فمَنْ كانَ كذلكَ لَحِقَ بالأبْرارِ ، ووَصَلَ إلى ربِّنا الغفّارِ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهدي إلى

البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجَنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتّى يكونَ صِدّيقاً ، وإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كذّاباً »[1] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بيانُ فضلِ اللهِ تَعالى العَظيمِ عَلى عِبادِهِ .

٢ـ التَّوْبَةُ الصّادِقةُ تَجُبُّ ما قَبْلَها .

٣ـ الصِّدْقُ مَنجاةٌ ، والكَذِبُ مَهْلَكَةٌ .

٤ـ المُؤْمِنونَ سَريعو الامْتِثالِ لأمْرِ اللهِ تَعالى ورسولهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ساعةِ العُسْرةِ ، كادَ يَزيغُ قُلوبُ فريقٍ مِنهُمْ ، ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ ، لا مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ .

٢ـ ما مَعنى تَوبةِ اللهِ تَعالى عَلى نبيِّهِ ﷺ ؟

٣ـ ما الذّنبُ الّذي وقعَ فيهِ بعضُ المُؤْمنينَ حتّى ذُكِرَتْ توبةُ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم ؟

٤ـ كيفَ تَسْتَدِلُّ مِنْ قِصّةِ الثّلاثةِ المُخَلَّفينَ عَنْ غزوةِ تَبوكَ عَلى أنَّ الصِّدْقَ مَنجاةٌ ؟

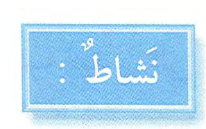
٥ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ أثَرَ الذّنْبِ عَلى النّفْسِ المُؤْمِنَةِ ، وَضِّحْ ذلكَ .

٦ـ مَنِ الثّلاثةُ المَذكورونَ في هذهِ الآياتِ ؟

٧ـ بيّنْ مَنزلةَ الصِّدْقِ عَلى الصّادِقِ والمُجتَمعِ الّذي هو فيهِ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدبِ حديث رقم : ٦٠٩٤ .



نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسمَ صَحابيٍّ تخلّفَ عنِ الرّسولِ ﷺ ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى تَبوكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى صحيحِ البُخاريِّ في كتابِ المَغازي ، واقرأْ قصّةَ الثّلاثةِ الّذينَ تَخلّفوا في حديثِ رقم : ٤٤١٨ ، وتأمَّلْ ما فيهِ مِنْ عِبَرٍ وعِظاتٍ .

* * *

الدَّرسُ الثَّامنُ والأربعونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الحادي والثَّلاثونَ

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا
كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **لا يَرغَبوا بِأنفُسِهِم عَن نَفسِهِ** : لا يُؤثِرونَ نُفوسَهُم بِالرَّاحَةِ والطُّمَأْنينَةِ دونَ نَفْسِ النَّبي ﷺ .
- **ظَمأٌ** : عَطَشٌ .
- **نَصَبٌ** : تَعَبٌ ومَشقَّةٌ .
- **مَخمَصَةٌ** : جوعٌ .
- **يَنفِروا** : يَخرُجوا .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أن بيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ عَلى عِبادِهِ والَّتي مِنها أن يَقْبلَ تَوبَتَهُم ، ويَتوبَ عَلَيْهِم ، أوجَبَ عَلَيْهِمُ الغزوَ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، ووَعَدَهُم عَلَيْهِ بِجزيلِ الثَّوابِ ، ذلِكَ إنَّ مِن مَظاهِرِ التَّوبَةِ

الصّادِقَةِ ، الصِّدقُ والإقدامُ في مُتابَعَةِ نَبيِّ الإسلامِ ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

لَيسَ لأهلِ المَدينَةِ ، أو لِغَيرِهِم مِنَ الأعرابِ سُكّانِ الباديَةِ الَّذينَ يَسكُنونَ ضَواحي المَدينَةِ ، لَيسَ لِهؤُلاءِ جَمعياً أنْ يَتَخَلَّفوا عَن رَسولِ اللهِ ﷺ إذا ما خَرَجَ لِلجِهادِ ، كَما فَعَلَ بَعضُهُم في غَزوَةِ تَبوكَ ، لأنَّ هذا التَّخلُّفَ يَتَنافى مَعَ الإيمانِ باللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، وَلَيسَ لَهُمْ كَذلِكَ أنْ يُؤثِروا أنْفُسَهُم بِالرّاحَةِ عَلى نَفسِهِ بِأنْ يَترُكوهُ يَتَعَرَّضُ لِلآلامِ وَالأخطارِ دونَ أنْ يُشارِكوهُ في ذلِكَ ، بَلْ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِمْ أن يَكونوا مِنْ حَوْلِهِ في البَأساءِ وَالضَّرّاءِ ، وَالعُسْرِ وَاليُسْرِ ، وَالمَنشَطِ وَالمَكرَهِ .

إذْ قَدْ أُمِروا أنْ يَنصُروهُ في البَأساءِ وَالضَّرّاءِ ، وَأنْ يُكابِدوا مَعَهُ الأهوالَ بِرَغبَةٍ وَنَشاطٍ وَاغتِباطٍ ، وَأنْ يُلاقوا مِنَ الشَّدائِدِ ما تَلقاهُ نَفسُهُ ﷺ عِلْماً بِأنَّها أعَزُّ نَفسٍ عَلى اللهِ تَعالى وَأكرَمُها ، فإذا تَعَرَّضَتْ مَع عِزَّتِها وَكَرامَتِها لِلخَوضِ في شِدَّةٍ وَهَولٍ ، وَجَبَ عَلى سائِرِ الأنفُسِ أنْ تَتَساقَطَ فيما تَعَرَّضَتْ لَهُ ، ولا يَكتَرِثَ لَها أصحابُها ، وَلا يُقيمونَ لَها وَزناً ، وَتكونَ أخَفَّ شَيءٍ عَلَيْهِمْ وَأهوَنَهُ فَضْلاً عَنْ أنْ يَربَأوا بِأنفُسِهِمْ عَنْ مُتابَعَتِها وَمُصاحَبَتِها ، وَيَضِنّوا بِها عَلى ما سَمَحَ بِنَفسِهِ عَلَيْهِ . وَهذا نَهيٌ بَليغٌ ، مَع تَقبيحٍ لأمرِهِم ، وَتَوبيخٍ لَهُمْ عَلَيْهِ وَتَهييجٌ لِمُتابَعَتِهِ بِأنَفَةٍ وَحَمِيَّةٍ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ لِلنّاسِ سَبَبَ ما كُلِّفوا بِهِ مِن مُصاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ بِأنَّهُم لا يُصيبُهُم عَطَشٌ ، وَلا تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ ، وَلا مَجاعَةٌ شَديدَةٌ تَجعَلُ البُطونَ ضامِرَةً ، كُلُّ ذلِكَ ما دامَ في جِهادِ أعداءِ اللهِ تَعالى ، وَإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، وَكذلِكَ لا يَدوسونَ مَكاناً مِن أمْكِنَةِ الكافِرينَ بِأرجُلِهِمْ أو بِحَوافِرِ خُيولِهِمْ مِن أجلِ إغاظَتِهِمْ وَإزعاجِهِمْ ، وَكذلِكَ لا يُصيبونَ مِن عَدُوٍّ مِنْ أعدائِهِم إصابَةَ قَتْلٍ أو غَنيمَةً ، كُلُّ ذلِكَ لا يَفعلونَ شَيئاً مِنهُ إلاّ كَتَبَ اللهُ تَعالى بِكُلِّ واحِدٍ مِن هذهِ الأعمالِ عَمَلاً صالِحاً يَنالونَ بِسَبَبِهِ الثَّوابَ الجَزيلَ مِنَ اللهِ تعالى ، لأنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُضيعُ أَجْرَ المُحسنينَ ، وَإنَّما يُكافِئُهُم عَلى إحْسانِهِم بِالأجْرِ العَظيمِ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

وَكذلِكَ لا يَتَصَدَّقونَ بِصَدَقَةٍ صَغيرَةٍ كَالتَّمرَةِ وَنَحوِها ، وَلا كَبيرَةٍ كَما فَعَلَ عُثمانُ بنُ عَفّانٍ

رَضِيَ اللهُ عنهُ في هذِهِ الغَزوةِ فقدَ تَصدَّقَ بالكَثيرِ ، وَكذلكَ لا يَقْطَعونَ وادياً مِنَ الوِديانِ في مَسيرِهِم إلى عَدُوِّهِم أو في رُجوعِهِم ؛ لا يَفعَلونَ شَيئاً مِن ذلِكَ إلاّ أعطاهُمُ اللهُ أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ . فاللهُ تَعالى أمرَهُم بِمُصاحَبَةِ نَبِيِّهِم ﷺ في كُلِّ غَزَواتِهِ ، وَكَلَّفَهُم بِتَحَمُّلِ مَشاقِّ الجِهادِ وَمَتاعِبِهِ لِيَجزيَهُمْ عَلى ذلِكَ أحسَنَ الجَزاءِ وأَعظَمَهُ .

وَمِنَ هُنا نَرى أنَّ اللهَ تَعالى قَد حَرَّضَ المُؤْمِنينَ عَلى الجِهادِ في هاتَينِ الآيَتَيْنِ ، وبَيَّنَ لَهُمْ أنَّ كُلَّ ما يُلاقونَهُ في جِهادِهِم مِن مَتاعِبَ لَهُ ثَوابُهُ العظيمُ ، وَما دامَ الأمرُ كذلِكَ فَعَلَيهِم أنْ يُصاحِبوا رَسولَهُم ﷺ في جَميعِ غَزَواتِهِ ، لأنَّ التَّخَلُّفَ عَنهُ لا يَليقُ بالمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، فَضْلاً عَنْ أنّ التّخَلُّفَ مِنْ دونِ عُذرٍ شَرعِيٍّ سَيُؤدِّي إلى الخُسرانِ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

وَلَمّا كانَ الّذي نَزَلَ مِنَ القُرآنِ في هذِهِ السّورَةِ نَزَلَ بِالنَّكيرِ عَلى المُتَخَلِّفينَ وَالتَّنديدِ بالتَّخَلُّفِ ، وَبِخاصَّةٍ مِنْ أهلِ المَدينَةِ وَمَنْ حولَهُم مِنَ الأعْراب ، فَإنَّهُ قَد جَعَلَ النّاسَ يَتَزاحَمونَ في المَدينَةِ ، لِيَكونوا رَهْنَ إشارَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَبِخاصّةٍ مِنَ القَبائِلِ المُحيطَةِ بالمَدينَةِ ، مِمّا اقتَضى بَيانَ حُدودِ النَّفيرِ العامِّ ، فَقَدِ اتَّسَعَتْ رِقعَةُ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ حتّى كادَتِ الجَزيرَةُ كُلُّها تَدينُ لِلإسلام ، وَكَثُرَ عَدَدُ الرِّجالِ المُستَعدّينَ لِلجِهادِ ، وَقَد آنَ أوانُ أنْ تَتَوزَّعَ الجُهودُ في الجِهادِ ، وَفي عِمارَةِ الأرضِ ، وَفي التِّجارَةِ ، وَفي غَيرِها مِن شُؤونِ الحَياةِ الّتي تَقومُ بِها أُمَّةٌ ناشِئَةٌ مَطالِبُها تَخْتَلِفُ عَن مَطالِبِ القَبيلَةِ السّاذَجَةِ ، وَعَن حاجاتِ المُجتَمَعِ القَبَلِيِّ الأوّلِيَّةِ ، عَلى إثرِ ذلِكَ نَزَلَت الآيَةُ الكَريمَةُ تُبَيِّنُ هذا الأمْرَ وَتُوَضِّحُهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

إنّ المُؤْمِنينَ لا يَنفِرونَ جَميعاً ، وَلكِنْ تَنفِرُ هذِهِ الطّائِفَةُ في نُصْرَةِ الدِّينِ بِالنَّفيرِ وَالخُروجِ إلى الجِهادِ وَالحَرَكَةِ بِهذِهِ العَقيدَةِ ، وَتُنذِرُ الباقينَ مِن قَوْمِها إذا رَجَعتْ إلَيهِم ، بِما رأتهُ وما فَقِهَتهُ ، بِما يَتَكَشّفُ لَهُمْ مِنْ أسرارِهِ وَمَعانيهِ ، وَبِما يَتَجَلّى لَهُمْ مِن آياتِهِ وَتَطبيقاتِهِ العَمَلِيّةِ في أثناءِ الحَرَكَةِ بِهِ .

أمّا الَّذينَ يَقعُدونَ فَهُمُ الَّذينَ يَحتاجونَ إلى أنْ يَتَلَقَّوْا مِمَّنْ تَحَرَّكوا ، لأَنَّهُم لَم يُشاهِدوا ما شاهَدَ الَّذينَ خَرَجوا ، وَلا فَقِهوا فِقهَهُم ، ولا وَصَلوا مِنْ أسرارِ هذا الدّينِ إلى ما وَصَلَ إليهِ المُتَحَرِّكونَ بِهِ ، وَبِخاصَّةٍ إذا كانَ الخُروجُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَالخُروجُ بِصفَةٍ عامَّةٍ أقرَبُ إلى الفَهْمِ وَالتَّفَقُّهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أنْفُسُ المُؤْمنينَ لَيْسَتْ بِأعَزَّ مِن نَفسِ رَسولِ ﷺ .

٢ـ مَن جاهَدَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى نالَ أجْراً عَظيماً .

٣ـ وُجوبُ مُصاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّخَلُّفِ عَنهُ .

٤ـ وُجوبُ طَلَبِ العِلْمِ وَالتّفقُّهِ في دينِ اللهِ تَعالى .

٥ـ عَلى العالِمِ أن يُعَلِّمَ مَنْ لَمْ يَعلَمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لا يرغَبوا بِأنفُسِهِمْ عَن نَفسِهِ ، ظَمَأٌ ، نَصَبٌ ، مَخمَصَةٌ .

٢ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يَلي :

أ ـ إنَّ اللهَ تَعالى لا يُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مَهما كانَ صغيراً .

ب ـ نَشْرُ العِلْمِ واجبٌ .

ج ـ نَفْسُ النَّبيِّ ﷺ أعظَمُ مِنَ نُفوسِ النّاسِ جَميعاً .

٣ـ بَعْضُ الفِقْهُ في الدِّينِ إنّما يَكونُ بِالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَضِّح ذلِكَ .

٤ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أصْنافاً مِنَ المَشاقِّ الّتي تَحَمَّلَها المُسلِمونَ في طَريقِ تَبوكَ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآيَةِ .

نَشاطٌ :

اكْتُبْ ما قالَهُ بَنو إسرائيلَ لِسَيِّدنا موسى عَلَيْهِ السَّلامُ عِندما رَأَوْا عُدُوَّهُم ، وَقارِنْ بَيْنَ مَوقِفِهِم وَمَواقِفِ المُؤْمنينَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ .

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والأربعونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والثّلاثونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ
رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ
عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ
بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا
يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **يَلونَكُمْ** : يُجاوِرونَكُمْ .
- **غِلْظَةً** : خُشونَةً وشِدَّةً .
- **رِجْساً** : كُفْراً ونِفاقاً .
- **يُفتَنونَ** : يُبْتَلَوْنَ ويُخْتَبرونَ .
- **انْصَرفوا** : تَوَلَّوْا وأعْرَضوا مُتَسلِّلينَ .

التَّفسيرُ :

كانتِ السّورَةُ الكَريمَةُ قدْ بدأتْ بإعلانِ القَطيعةِ بَيْنَ المُؤْمنينَ والمُشْرِكينَ ، ثُمَّ تَوسَّعتْ في الحديثِ عنِ المنافِقينَ وأوْزارِهِمْ ، وها هِيَ تَخْتِمُ بالحَديثِ عَنْ هاتَيْنِ الطّائِفَتَيْنِ لِتُعْلِنَ كذلكَ في

وُضوحِ مَوْقِفَ المُؤْمنينَ مِنَ الكافِرينَ ، ومَوقِفَ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمنينَ ، ليتذكَّرَ مَنْ يَتذكَّرُ ، ولِيعتَبرَ مَنْ يَعتبرُ ، حتّى لا يَبقى أحدٌ يُقدِّمُ رِجْلاً ويُؤخِّرُ أُخْرى في شأنِ هاتيْنِ الطّائِفَتينِ اللّتينِ ابْتُلي بِهما المُؤْمِنونَ منذُ فجرِ الرّسالةِ ، فَبَدأَ اللهُ تَعالى بالكافِرينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ أنْ يُقاتِلوا الكُفّارَ أوّلاً فأوّلاً ، الأقربَ فالأقْربَ إلى حَوْزَةِ الإسْلام ، ولِهذا بَدأَ الرّسولُ ﷺ بِقتالِ المُشْركينَ في جَزيرَةِ العَرَبِ ، فلمّا فَرَغَ منهُمْ وَفَتَحَ اللهُ تَعالى عليهِ مَكَّةَ والمَدينةَ واليَمَنَ وغيرَ ذلِكَ مِنَ الأقاليمِ العربيّةِ ، ودخلَ النّاسُ مِنْ سائِرِ أحياءِ العَرَبِ في دينِ اللهِ أفواجاً ، شَرَعَ ﷺ في قتالِ أهلِ الكِتابِ ، فَتجهّزَ لغزوِ الرّومِ الّذينَ هُمْ أقربُ النّاسِ إلى جزيرةِ العَرَبِ ، وأوْلى النّاسِ بالدّعوةِ إلى الإسلامِ ، لأنّهُم أهلُ كتابٍ ، فبلغَ تبوكَ ثُمَّ رَجَعَ لأجلِ جُهْدِ النّاسِ ، وَجَدْبِ البلادِ ، وضيقِ الحالِ ، وذلكَ سنةَ تسعٍ مِنَ الهِجرَةِ ، ثُمَّ اشتغلَ في السّنةِ العاشِرَةِ بِحَجَّةِ الوَداعِ ، ثُمَّ عاجَلَتْهُ المَنيّةُ ﷺ بعدَ حَجّةِ الوداعِ بواحدٍ وثمانينَ يوماً ، وسارَ خُلفاؤُهُ الرّاشِدونَ مِنْ بعدِهِ على نَهْجِهِ .

ثُمَّ بيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أمْرَينِ مُهمَّينِ ، الأولَ : أنّ المُؤْمِنَ ذَليلٌ رَحيمٌ معَ إخوانِهِ ، قويُّ الشّكيمةِ مَعَ أعدائِهِ فلا تَلينُ لـه قناةٌ ، ولا تأخُذُهُ في دينِ اللهِ تَعالى لَوْمَةُ لائِمٍ . والأمْرَ الثّاني : أنّ معيّةَ اللهِ تَعالى لا يَستحقُّها إلاّ المُتَّقونَ .

وإنّما أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤمنينَ أنْ يَبدأوا قِتالَهُمْ مَعَ الأقْربِ فالأقْربِ مِنْ ديارِهِم ، لأنَّ القِتالَ شُرِعَ لتأمينِ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ ، فكانَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يَبدأوا قِتالَهُمْ مَعَ المُجاوِرينَ لَهُمْ حتّى يأمَنوا شَرَّهُم ، ولأنّهُ مِنَ المَعلومِ أنّهُ لَيْسَ في طاقةِ المُسلِمينَ قتالُ جميعِ الكُفّارِ ، وغزوُ جميعِ البلادِ في زمانٍ واحدٍ ، فكانَ مَنْ قَرُبَ أوْلى مِمّنْ بَعُدَ .

وبعدَ ذلِكَ تحدثَّتِ السّورةُ الكَريمَةُ حديثاً خِتاميّاً عنِ المُنافِقينَ ، وَبيّنَتْ مَوْقِفَهُمْ مِنْ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ مِنْ سُوَرِ القُرآنِ ، وسَمِعَها المُنافِقونَ سَخِروا واسْتَهْزَءوا ، وقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ : أيُّكُمْ زادَتْهُ هذهِ السّورَةُ إيماناً ؟

ولقدْ رَدّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ردّاً حاسِماً أخْرَسَ ألسنتَهُمْ ، وبيَّنَ لهُمْ أنّ هُناكَ فَرْقاً بينَ المُنافِقينَ

والمُؤْمنينَ في مُواجَهَةِ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فأمّا المُؤْمنونَ الّذينَ أبْصَروا النّورَ وعَرَفوا الحَقَّ ، فقدْ زادَتْهُمْ آياتُ اللهِ تَعالى إيماناً ، وهُمْ عندَ نُزولِها يَفْرَحونَ ويَسْتَبْشِرونَ . هذا هُوَ شأنُ المُؤْمنينَ بالنّسبةِ لنزولِ السّورِ الكَريمةِ ، وأمّا المُنافِقونَ فَقدْ صوّرَ القُرآنُ الكَريمُ حالَهُمْ ، بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

وأمّا المُنافِقونَ الّذينَ مَرِضَتْ قُلوبُهُمْ ، وعَمِيَتْ بَصائِرُهُمْ عنِ الحَقِّ ، فقدْ زادَتْهُمْ هذهِ السُّوَرُ النّازِلَةُ عَلى النّبيِّ كُفْراً إلى كُفْرِهِمْ ، وماتوا عَلى هذِهِ الحالةِ السّيئةِ مِنَ الكُفْرِ الّذي يَدلُّ عَلى فسادِ أعمالِهِمْ في الدّنْيا وعلى سُوءِ نِيّاتِهِمْ .

ثُمَّ بَيّنَ اللهُ تَعالى ناعِياً عليْهِمْ أنّهُمْ مَعَ وُضوحِ هذهِ الآياتِ والدّلائلِ الّتي فيها إلاّ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ لَمْ يَعتبروا ولم يَتّعِظوا ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

وهذا تَوبيخٌ لهَمْ عَلى قَسوةِ قُلوبِهِمْ ، وانْطِماسِ بَصيرَتِهِمْ ، وغَفلَتِهِمْ عمّا يَدعو إلى الاعتبارِ والاتِّعاظِ . أبلغَ الجَهْلُ والسَّفَهُ وعمى البصيرةِ بهؤلاءِ ، أنّهم صاروا لا يَعتَبرونَ ولا يَتّعِظونَ بما حاقَ بِهِمْ مِنْ فِتَنٍ واختباراتٍ وابتلاءاتٍ تَنْزِلُ بِهِمْ في كلِّ عامٍ مرّةً أو مَرّتَيْنِ ؟

ومِنْ هذهِ الفِتَنِ والامْتِحاناتِ : كَشْفُ مَكْرِهِمْ عَنْ طريقِ إطْلاعِ الرّسولِ ﷺ عَلى ما يُضْمِرونَهُ مِنْ سوءٍ ، وما يَقولونَهُ مِنْ مُنْكَرٍ ، وما يَفعلونَهُ مِنْ أفعالٍ خَبيثةٍ ، وحُلولِ الأمْراضِ والمَصائِبِ بِهِمْ ، ومُشاهَدتِهِمْ لانْتِصارِ المُؤْمنينَ ، وخِذلانِ الكافِرينَ .

ثُمَّ بَعدَ كلِّ هذهِ الفِتَنِ النّازِلَةِ بِهِمْ ، لا يَتوبونَ مِنْ نِفاقِهِمْ ولا هُمْ يَذَّكَّرونَ ويَتّعِظونَ ، بلْ يُصرّونَ عَلى مَسالِكِهِمُ الخَبيثَةِ وأعمالِهِمُ القَبيحةِ ، مَعَ أنَّ مِنَ الفِتَنِ والمَصائبِ والمِحَنِ ، ما يَحْمِلُ عَلى الاعتبارِ والاتِّعاظِ ، والرُّجوعِ عَنْ طريقِ الشَّرِ إلى طريقِ الخَيْرِ .

ثُمَّ تَخْتِمُ السّورَةُ الحديثَ عنِ المُنافِقينَ بمشهدٍ تَصْويريٍّ مُعجزٍ يُبيِّنُ حالةَ المُنافِقينَ عندما تَنْزِلُ السّورَةُ القرآنيةُ عَلى الرّسولِ الكَريم ﷺ ، وهُمْ حاضِرونَ في مَجْلِسِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ ، أو آياتٌ منها عَلى الرّسولِ ﷺ وهُمْ مَوْجودونَ في مجلسِهِ ﷺ نَظَرَ بَعْضُهُمْ

إلى بَعْضٍ في ريبةٍ وَمكرٍ ، وتَغامَزوا بِعُيونِهم وجَوارِحِهِمْ في لُؤْمٍ وخِسَّةٍ ، ثُمَّ تَساءلوا : هلْ يَراكُمْ مِنْ أحدٍ مِنَ المُسلِمينَ إذا ما قُمْتُمْ مِنْ هذا المَجْلِس قبلَ أنْ يتلوَ الرّسولُ ﷺ هذهِ السّورةَ أو الآياتِ الّتي قَدْ تَفضحُكُمْ ، وتَكشِفُ عمّا أسْرَرْتُموهُ فيما بَيْنَكُم ؟ ثُمَّ انْصَرفوا مِنْ مَجْلِسِ الرّسولِ ﷺ مُتَسلّلينَ في حَذَرٍ حتّى لا يَراهُم أحدٌ مِنَ المُسلِمينَ . ثُمَّ ذمّهَمُ اللهُ تَعالى لإيثارِهِمُ الغِيَّ عَلى الرُّشْدِ ، والضّلالةَ عَلى الهِدايةِ .

صَرَفَ اللهُ تَعالى قلوبَهُمْ عنِ الهدايةِ والرَّشادِ بِسَبَبِ أنَّهُم قومٌ لا يَفْقَهونَ ما فيهِ خَيْرُهُمْ ونَفْعُهُمْ ، وإنّما يَفْقَهونَ ما فيهِ شَقاؤُهُمْ وتَعاسَتُهُمْ .

والناظِرُ في هذهِ الآياتِ الكَريمةِ بِتَدبُّرٍ وإمعانٍ يراها قدْ صوّرتْ أحوالَ المُنافِقينَ وأخْلاقَهُمْ وحركاتِهِم تَصويراً دقيقاً مُعْجزاً ، حتّى أنّهُ لَيُخَيَّلُ إلى القارِىءِ لهذهِ الآياتِ الكَريمَةِ أو السّامِعِ لها ، أنّهُ يشاهدُ المُنافِقينَ مُشاهدةً حِسيَّةً ، وهُمْ عَلى تلكَ الحالةِ مِنَ التّحرّكِ المُريبِ والنَّظراتِ الخَبيثةِ ، والخُروجِ مِنْ مَجلسِ النَّبيِّ ﷺ في حَذَرٍ وريبةٍ ، وهذا كُلُّهُ مِمّا يَشْهَدُ بأنَّ هذا القُرْآنَ إنّما هُوَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى العليمِ بِخفايا الصُّدورِ ، وبطوايا النُّفوسِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ قتالِ الكافِرينَ والغِلْظَةِ عَلَيْهِم .

٢ـ مَعيَّةُ اللهِ تَعالى لا تَكونُ إلاّ للمُتَّقينَ .

٣ـ المُنافِقونَ لِخباثَتِهِمْ لا يَزدادونَ مَعَ الآياتِ إلاّ كُفْراً وعِناداً .

٤ـ لا يَتَّعِظُ المُنافِقونَ مِمّا يَحيقُ بِهِمْ مِنَ الأحداثِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَلونَكُمْ ، غِلْظَةً ، رِجْساً ، يُفْتَنونَ ، انْصَرَفوا .

٢ـ صَوّرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَشْهَدَ المُنافِقينَ حينَ يَنْصَرِفونَ عنْ مَجْلِسِ الرّسولِ ﷺ ، بيّنْ هذِهِ الصّورةَ .

٣ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَوْقفَ المُؤْمِنينَ ومَوْقفَ المُنافِقينَ مِنْ نُزولِ السُّوَرِ الكَريمَةِ ، مَيِّزْ بَيْنَ المَوْقِفَيْنِ .

٤ـ ما السَّبَبُ في عَدمِ اتِّعاظِ المُنافِقينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَتى يكونُ قِتالُ المُشرِكينَ .

❊ ❊ ❊

الدَّرسُ الخَمسونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الثّالِثُ والثّلاثون

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عزيزٌ عَلَيْهِ : ثَقيلٌ عَلَيْهِ .

ما عَنِتُّمْ : ما تَعِبْتُمْ

رَؤوفٌ رحيمٌ : شديدُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ بِكُمْ .

التَّفسيرُ :

كانتْ هذهِ السّورَةُ الكَريمَةُ سورةُ شِدّةٍ وغِلْظَةٍ عَلى المُشْرِكينَ وأهلِ الكِتابِ والمُنافِقينَ مِنْ أهلِ المَدينةِ ومِنَ الأعرابِ ، وخُتِمَتْ بآيتيْنِ تُذَكِّرُ بالمِنَّةِ الإلهيَةِ ببعثةِ النَّبيِّ والتَّنويهِ بَصفاتِهِ الجامِعَةِ لِصفاتِ الكَمالِ البَشَريِّ ، وهكذا انْفَتحَ بهاتَيْنِ الآيتينِ بابُ حظيرةِ الإيمانِ والتَّوْبَةِ لِيَدْخُلَها مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعالى ، قالَ تَعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

الخِطابُ في هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ للعَرَبِ ، والمَعْنى : لَقَدْ جاءَكُم يا مَعْشَرَ العَرَبِ رسولٌ كَريمٌ مِنْ جِنْسِكُمْ ومِنْ نَسَبِكُمْ ، فهوَ عربيٌّ مِثْلُكُم ، فمِنَ الواجبِ عليْكُمْ أنْ تُطيعوهُ وتُؤْمِنوا بِهِ ، فالمَقْصودُ

مِنْ هذهِ الجُمْلَةِ الكَريمَةِ تَرغيبُ العَربِ في الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ وفي طاعَتِهِ وتأييدِهِ ، فإنَّ شَرَفَهُمْ قدْ تَمَّ بِشَرَفِهِ ، وعِزَّهُمْ بعِزِّهِ ، وفَخْرَهُمْ بفَخْرِهِ ، وهُمْ في الوَقْتِ نفسِه قدْ شَهِدوا لهُ في صِباهُ بالصِّدقِ والأمانةِ والعَفافِ ، وطهارةِ النَّسَبِ والأخْلاقِ الحميدةِ .

وقدْ ذَكَرَ اللهُ تَعالى في هذهِ الآيةِ بَعْضاً مِنْ خِصالِ النَّبيِّ ﷺ الحَميدةِ بعدَ أنْ ذَكَرَ تَعالى كَوْنَهُ مِنَ العَرَبِ أنْفُسِهِمْ ، ومِنْ هذهِ الخِصالِ :

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أيْ شديدٌ وشاقٌّ عليهِ عَنَتُكُمْ ومَشقَّتُكُمْ ، لِكونِهِ بعضاً مِنكُمْ فَهُوَ يَخافُ عَلَيكُم سوءَ العاقِبَةِ ، وَالوُقوعَ في العَذابِ . وَلَقَدَ حدَّثنا القُرآنُ الكريمُ عمّا كانَ يُلاقيهِ ﷺ من إعراضِ قَومِهِ عَنهُ وإجهادِهِ نَفسَهُ أنْ يُؤمِنوا ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤-٣٥]

والصِّفَةُ الأخرى : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، أي : أنَّهُ ﷺ يَسْعى بِشِدَّةٍ في إيصالِ الخَيْرِ وَالنَّفعِ لِلمُؤمنينَ ، وَفي إزالَةِ كُلِّ مَكروهٍ عَنهُمْ .

وَلَم يَجمَعِ اللهُ تَعالى لأحَدٍ مِنَ الأنبياءِ عَلَيهِمُ السَّلامُ اسميْنِ مِن أسمائِهِ إلاّ للنَّبيِّ ﷺ فإنَّهُ قالَ فيهِ : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَقالَ عَن ذاتِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وَأيُّ تَكريمٍ أعظَمُ مِن هذا التَّكريمِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ هذِهِ الصِّفاتِ مُجتَمِعَةً في هذا النَّبِيِّ العَظيمِ ﷺ ما أخرَجَهُ البُخاريُّ أنَّهُ لَمّا كذَّبَهُ قَومُهُ أتاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ فَقالَ لَهُ : (إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ ، وَما رَدّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ أمَرَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأمُرَهُ بما شِئتَ فيهِم ، فَناداهُ مَلَكُ الجِبالِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَقالَ : مُرني بما شِئتَ ، وَإنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عَلَيْهِمُ الأخشَبَيْنِ) : جَبلُ أبي قُبيسٍ وَالذي يُقابِلُهُ ، « فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « بل ، أرْجو أنْ يَخْرُجَ مِنْ أصلابِهِم مَنْ يَعبُدُ اللهَ وَحدَهُ وَلا يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً »[1] .

وهذا مَوقِفُ رَحمَةٍ مِن نَبِيِّ الرَّحمَةِ ﷺ إذْ كانَ حرصُهُ وَشَفقَتُهُ وَرَحمَتُهُ وَرَأفَتُهُ مانِعَةً مِن تَأجُّجِ صِفَةِ الانتِقامِ في نَفسِهِ الشَّريفَةِ ، فَسُبحانَ اللهِ تَعالى الّذي أكرَمَنا بِهذا النَّبيِّ العظيمِ .

ثُمَّ انتقلَ الخِطابُ في الآياتِ مِنْ خِطابِ المُؤْمِنينَ إلى خطابِ النَّبيِّ ﷺ ، فقالَ تَعالى :

---

(١) أخرجَهُ البخاري في كتاب الأدب حديث رقم : ٦٠٩٤ .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

فإنْ أعْرَضوا عنِ الإيمانِ بكَ ، أيُّها الرّسولُ ﷺ فلا تَحْزَنْ لإعْراضِهِمْ ، واعْتَزَّ بربِّكَ ، وقلْ يَكفيني اللهُ تَعالى وحْدَهُ ، الّذي لا إلهَ غَيرُهُ ، عَليْهِ وحْدَهُ توكَّلْتُ ، وهو مالِكُ المُلْكِ ، وربُّ الكَوْنِ وصاحبُ السُّلطانِ العَظيمِ ، وصاحبُ العَرْشِ الّذي لا يَعْلَمُ مِقدارَ عَظَمَتِهِ إلاّ هو سُبْحانَهُ :

وبعدُ ، فهذِهِ سورةُ التّوبةِ :

ـ السّورةُ الّتي احتوتْ عَلى بيانِ الأحكامِ النّهائيّةِ في العَلاقاتِ الدّائمةِ بينَ المُجتمعِ الإسْلامِيِّ والمُجْتَمَعاتِ الأُخْرَى .

ـ السّورةُ الّتي أَوْجَبَتْ عَلى المُؤْمنينَ أنْ تكونَ مَحَبَّتُهُمْ للهِ تَعالى ولرسولهِ ﷺ ، ولإعلاءِ كَلمةِ الحقِّ ، فَوْقَ محبةِ الآباءِ والأبناءِ والإخْوانِ والأزْواجِ والعَشيرةِ والأمْوالِ .

ـ السّورةُ الّتي ذَكّرتِ المُؤْمنينَ بنصرِ اللهِ تَعالى لَهُمْ في مَواطِنَ كثيرةٍ ، وحَذَّرتْهُمْ مِنَ الغُرورِ بأنْفُسِهِمْ ، والعُجْبِ بِقُوَّتِهِمْ ، وأمَرَتْهُمْ بنصرِ رسولِهِ ﷺ في السَّراءِ والضَّراءِ ، والعُسْرِ واليُسْرِ ، والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ .

ـ السّورةُ الّتي أَمَرَتِ المُؤْمنينَ بأن يُخْلِصوا في دِفاعِهِمْ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى وعَنْ حُرُماتِهِ ومُقدَّساتِهِ ، وَبشّرَتْهُمْ بأنّهم إذا فَعَلوا ذلك فسوفَ يُغْنِيهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ .

ـ السّورةُ الّتي فَضَحَتِ المُنافقينَ وكَشَفَتْ عنْ أساليبهِمُ الخَبيثةِ ومَسالِكِهِمُ القَبيحةِ ، وأقوالِهِمُ المُنْكَرَةِ الذَّميمةِ ، وسَجَّلَتْ عليْهِمُ الخِزْيَ والعارَ ، وحذَّرَتِ المُؤْمنينَ مِن شُرورِهِمْ .

ـ السّورةُ الّتي رَسَمَتْ أُسسَ التّكافُلِ الاجتماعيِّ بينَ أفرادِ الأمّةِ الإسلاميةِ عَنْ طريقِ مَشروعيّةِ الزّكاةِ وَوُجوبِ أدائِها لِمُسْتَحِقِّيها .

ـ السّورةُ الّتي ساقَتْ ألواناً مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُؤْمنينَ حيثُ تَقبَّلَ تَوبَتَهُمْ ، وغَسلَ حَوْبَتَهُمْ وتَجاوزَ عن خَطئِهِمْ .

ـ السّورةُ الّتي صَنَّفَتِ المُجْتَمعَ المُسلمَ في أواخِرِ العَهْدِ النّبويِّ تَصنيفاً دَقيقاً ، فَهُناكَ السّابِقونَ الأوّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنْصارِ والّذينَ اتَّبعوهُمْ بإحسانٍ ، وهناكَ الّذينَ خَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سيِّئاً ، وهناكَ المُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ تَعالى ، وهناكَ الأعْرابُ المُنافِقونَ ، وهناكَ الّذينَ مَرَدوا عَلى النِّفاقِ مِنْ أهلِ المَدينةِ . وقدْ بيَّنَتِ السّورةُ كلَّ ما يَستحقُّهُ هؤلاءِ جميعاً بأقسامِهِمُ المُختلِفَةِ .

ـ السّورةُ الّتي أوْجَبَتْ عَلى المُؤْمِنينَ أنْ يُقيموا علاقاتِهِمْ عَلى أساسِ العَقيدةِ الدّينيّةِ ، لا عَلى أساسِ القَرابةِ الجَسَديةِ ، فَمَنَعَتْهُمْ أنْ يَسْتَغفِروا لِلْمُشْرِكينَ ولوْ كانوا أُولي قُرْبى .

ـ السّورةُ الّتي بَيَّنَتْ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَلى العَرَبِ وعلى غَيْرِهِمْ بِبعثةِ هذا النَّبيِّ الكَريمِ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إكْرامُ اللهِ تَعالى للعَرَبِ بَبعثهِ مُحَمَّداً نَبيّاً مِنْ أنْفُسِهِمْ .

٢ـ النَّبيُّ الكَريمُ يَحْمِلُ أجْمَلَ وأكْمَلَ الصِّفاتِ الخُلقيَّةِ والخَلْقيّةِ .

٣ـ عَلى الدّاعِيَةِ أنْ يُبلِّغَ رِسالَةَ ربِّهِ ، وليسَ عَلَيْهِ أنْ يَنتظِرَ النَّتائجَ .

٤ـ لا يَكِلُ المَرْءُ المُسلمُ أمْرَهُ إلاّ إلى اللهِ تَعالى فَهُوَ حَسْبُهُ وكافيهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّمْ ، حَريصٌ عليْكُمْ ، بالمُؤْمِنينَ رؤوفٌ رَحيمٌ .

٢ـ بِماذا أكْرَمَ اللهُ تَعالى العَرَبَ ؟

٣ـ ما صِفاتُ الرّسولِ ﷺ كما بَيَّنَتْها هذهِ الآياتُ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي تَدلُّ عَلى أَنَّ اللهَ تَعالى أرْسَلَ رَسولَهُ رحمةً لِلعالَمينَ .

* * *

الثّانيـةُ : الإسراعُ بَينَهُم بِالوِشاياتِ وَالنَّمائِمِ وَالإشاعاتِ الكاذِبَةِ .

الثّالِثَـةُ : الحِرْصُ عَلى تَفريقِ كَلِمَةِ المُؤْمِنينَ وَتَشكيكِهِم في عَقيدَتِهِم .

وَهذِهِ المَفاسِدُ الثّلاثُ ما وُجِدَتْ في جَيشٍ إلاّ أدَّتْ إلى انْهِزامِهِ ، وَمِنْ هُنا أيضاً كانَتِ الكَثْرَةُ العَدَدِيَّةُ في الجُيوشِ لا تُؤتي ثِمارَها المَرجُوَّةَ مِنها ، إلاّ إذا كانَتْ مُتَّحِدَةً في عقيدتِها وأهدافِها ، وَاتِّجاهاتِها ، أمّا إذا كانَت هذِهِ الكَثْرَةُ مُشتَمِلَةً عَلى عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْ ضِعافِ الإيمانِ ، فَإنَّ ضَرَرَها يَكونُ أكبَرَ مِنْ نَفْعِها .

ثُمَّ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ بِطَرَفٍ مِنَ الماضي المُظلِمِ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

إنّ ما صَدَر مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِنْ مَسالِكَ خَبيثَةٍ وَشُرورٍ خِلالَ غَزوَةِ تَبوكَ ، لَيسَ هُوَ الأوَّلُ مِن نَوْعِهِ ، بَل لَهُم في هذا المِضمارِ تاريخٌ مُظلِمٌ بَدَأَ مُنذُ أوائِلِ عَهدِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ بِالمَدينَةِ .

ومِنْ مَظاهِرِ هذهِ الحالةِ عِنْدَهُمْ : أَنَّهُمْ ساءَهُمُ انْتِصارُ المُسْلِمينَ في غزوةِ بَدْرٍ ، وأَنَّهُمُ امْتَنعوا عَنْ مُناصَرَةِ المُسْلِمينَ في غَزْوةِ أُحُدٍ ، وانْخَذَلَ زَعيمُهُمْ عبدُاللهِ بنُ أُبيٍّ بنِ سَلولٍ بِثُلُثِ الجيشِ . ولولا لُطْفُ اللهِ تَعالى لَحَدَثَ لِلْمُسْلمينَ ما لا تُحْمَدُ عُقْباهُ . ومِنْ ذلكَ أيْضاً أَنَّ بَعْضَهُمْ وقَفَ عَلى ثَنْيَةِ الوَداعِ ليلةَ العقبةِ لِيَفْتِكوا بالنَّبيِّ ﷺ .

هذا شأنُ المُنافِقينَ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ إنَّهُمْ أعْمَلوا المكائِدَ والحِيَلَ للإضْرارِ بالنَّبيِّ ﷺ بعدَ تلكَ الأُمورِ ، وكذا بحثوا وتجسَّسوا للاطِّلاعِ عَلى شَأْنِ المُسْلِمينَ وإخْبارِ العدوِّ بهِ . ولقدِ اسْتَمرَّ هؤلاءِ عَلى هذهِ المفاسِدِ يُحاربونَ الدَّعوةَ الإسْلاميَّةَ حتَّى جاءَ النَّصْرُ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ الموحِّدينَ ، وظَهَرَ دينُ اللهِ تَعالى وشَرْعُهُ . والمنافِقونَ وأشْباهُهُمْ كارِهونَ ذلكَ ، لأَنَّهُ يَغيظُهُمُ انتصارُ الإسلامِ وأهْلِهِ ، ويُحبّونَ هَزيمةَ المُسْلِمينَ وخِذْلانَهُمْ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى خَيَّبَ آمالَهُمْ ، وأحْبَطَ كَيْدَهُمْ ومَكْرَهُمْ .

ثُمَّ حكى لنا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى طَرَفاً مِنْ مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ وأقوالِهِمُ الخَبيثَةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ هؤلاءِ المُنافِقينَ مَنْ كانَ يَقولُ للرَّسولِ ﷺ ائْذَنْ لي في القُعودِ عنِ الجهادِ ، ولا توقِعْني في شِدَّةٍ وضيقٍ ، يَعْني بِذلِكَ أَنَّهُمُ اعْتَقَدوا أَنَّ الجهادَ فِتْنَةٌ وشِدَّةٌ لأنَّهُ يُؤدِّي إلى الموتِ الّذي هوَ مِنْ أشدِّ الأهْوالِ عَلى المُنافِقينَ ، وما عَلِمَ هؤلاءُ أَنَّ قُعودَهُمْ عَنِ الجهادِ هُوَ الفِتْنَةُ ، وهو الشَّرُّ وهُوَ

الضّيقُ . إنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ومَعَ رَسولِهِ ﷺ مِنْ أعظمِ المَعاصي ، وأيُّ فِتْنَةٍ أعظمُ مِنْ هذهِ ؟ ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّ تَخلُّفَ هؤلاءِ عنِ الجِهادِ إنَّما هُوَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأنَّ اللهَ تَعالى مُحيطٌ بِهِمْ ، فَلَنْ يَفْلِتوا مِنْ عِقابِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ في القُعودِ عنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى هَزيمةٌ ومَذَلَّةٌ .

٢ـ عَلى الإمامِ أنْ يَحْمِيَ الصَّفَّ المُسْلِمَ مِمَّنْ يُريدُ بِهِ فَساداً .

٣ـ إعْدادُ العُدَّةِ للجِهادِ واجِبٌ .

٤ـ تَنقيةُ الصَّفِّ المُسْلِمِ مِنْ أقوى عُدَدِ النَّصْرِ .

٥ـ التَّحذيرُ مِنْ مكائِدِ المُنافِقينَ .

٦ـ لنْ يَتوانى المُنافِقونَ عنْ إيقاعِ الأذى بالمُسْلِمينَ في أيِّ مُناسَبَةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

كَرِهَ اللهُ انْبعاثَهُمْ ، ثَبَّطَهُمْ ، ما زادوكُمْ إلاّ خَبالاً ، أَوْضَعوا خِلالَكُم .

٢ـ ماذا نَستفيدُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ لَوْ أرادوا الخُروجَ لأعَدّوا لهُ عُدَّةً .

ب ـ وفيكُمْ سمَّاعونَ لَهُمْ .

ج ـ واللهُ عليمٌ بالظّالِمينَ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ في خُروجِ المُنافِقينَ في جيشِ المُسْلِمينَ مَفاسِدَ عِدَّةً ، اذْكُرْ هذهِ المَفاسِدَ .

٤ـ بيِّنْ أثَرَ نَقاءِ الصَّفِّ المُسْلِمِ المُجاهِدِ عَلى المعركةِ .

٥ـ ما الّذي يُمْكِنُ أنْ تُفيدَهُ مِنْ عَرْضِ الآياتِ الكَريمةِ لبعضِ صِفاتِ المُنافِقينَ ؟

الدَّرسُ الحادي والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عَشَرَ

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ
وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا
يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِن قَبْلُ : استَعدَدْنا لِما يُحتَمَلُ .

تَرَبَّصونَ بِنا : تَنتَظِرونَ حُصولَ شَيءٍ بِنا .

إِحْدى الحُسنيَيْنِ : النَّصْرُ أو الشَّهادَةُ .

التَّفسيرُ :

ما تَزالُ الآياتُ الكَريمَةُ تَتَتابَعُ في بَيانِ قَبائِحِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فَضْحاً لَهُم وَتَحذيراً لِلمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْ يَسلُكوا مَسالِكَهُمْ ، وَهُنا نَوعٌ آخَرُ مِن خُبثِ نَواياهُم وَسوءِ بَواطِنِهِم ، يَقولُ تعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

إِنْ تُصِبْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ حَسَنَةٌ مِنْ نَصْرٍ أو نِعمَةٍ أو غَنيمةٍ ـ كَما حَدَثَ يَومَ بَدْرٍ مَثَلاً ـ تَسؤْهُم تِلكَ

الحَسَنَةُ ، وَتُورِّثُهم حُزناً وَغماً بِسَبَبِ شِدَّةِ عَداوتِهم لَكَ وَلإصحابِكَ .

وَإن تُصِبْكَ مُصيبَةٌ مِن هَزيمَةٍ أو شِدَّةٍ ـ كَما حَدَثَ يَومَ أُحُدٍ مَثَلاً ـ يَقولوا باخْتيالٍ وَفَرَحٍ وَعُجْبٍ وشَماتَةٍ قدْ أخَذْنا أمْرَنا مِن قَبل ، أيْ : قَد تَلافَينا ما يُهِمُّنا مِنَ الأمْرِ بِالحَزْمِ وَالتَّيَقُّظِ وَالاستِعدادِ التامِّ مِن قَبْلِ وُقوعِ الهَزيمَةِ الّتي حَلَّتْ بِالمُسلِمينَ ، وَلَمْ نُلْقِ بِأيْدينا إلى التَّهلُكَةِ كَما فَعلَ هؤُلاءِ المُسلِمونَ .

ثُمَّ صَوَّرَ القُرآنُ الكَريمُ حالَتَهُمُ النَّفسيَّةَ الّتي هُم عَلَيْها مِنَ الفَرَحِ وَالسُّرورِ بِما أَلَمَّ بِالمُسلِمينَ فَقالَ : ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أيْ عِندَما يَقَعُ ما يُؤلِمُ المُسلِمينَ ، يَرجِعُ هؤُلاءِ إلى أَهْليهِم وَشيعَتِهِم وَالفَرَحُ يَملأُ جَوانِحَهُم ، يُبَشِّرونَ بِما حَلَّ بِالمُسلِمينَ مِن مَكروهٍ .

وَالحاصِلُ أنَّ في هذِهِ الآيَةِ بَياناً واضِحاً وَشافِياً بِأَنَّ المُنافِقينَ لا يُريدونَ بِالمُؤْمِنينَ إلاّ المَكْروهَ ، وَيَتَأَلَّمونَ إذا فَرِحَ المُسلِمونَ .

ثُمَّ أرشَدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ إلى ما يَرُدّونَ بِهِ عَلَيهِم ، فَقالَ تَعالى :

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

قُل يا مُحَمَّدُ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ الَّذينَ يَسُرُّهُم ما يُصيبُكَ مِن شَرٍّ ، ويُحزِنُهُم ما يُصيبُكَ مِن خَيرٍ ، وَالَّذينَ خَلَتْ قُلوبُهُم مِنَ الإيمانِ بِقضاءِ اللهِ تَعالى وَقَدَرِهِ ، قُلْ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّقريعِ وَالتَّبكيتِ : لَنْ يُصيبَنا إلاّ ما كَتَبَ اللهُ تَعالى لَنا وَقَدَّرَهُ عَلَينا ، ﴿هُوَ مَوْلانا﴾ الّذي يَتَولاّنا في كُلِّ أمورِنا ، وَنَلجأُ إلَيهِ في كُلِّ أحوالِنا ، وَإلَيهِ وَحدَهُ سُبْحانَهُ نَكِلُ أمورَنا وَلَيسَ إلى أحَدٍ سِواهُ ، فإذا ما أصابَنا خَيرٌ رَضينا بِهِ ، وَاطمأنَنّا إليهِ ، وَلا نَجزَعُ إنْ أصابَنا شَرٌّ أو مَكروهٌ .

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

قُل لَهُمْ أيُّها الرَّسولُ أيضاً : لَيسَ لَكُم أنْ تَتَوَقَّعوا شَيئاً لَنا إلاّ إحدى العاقِبَتَيْنِ الحَميدَتَيْنِ : إمّا النَّصرُ وَالغَنيمَةُ في الدُّنيا ، وَإمّا الاستِشهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَالجَنَّةُ في الآخِرَةِ ، وَنَحنُ نَنتَظِرُ لَكُم أنْ يُوقِعَكُمُ اللهُ تَعالى في عَذابٍ مِنْ عِندِهِ يُهلِكُكُمْ بِهِ ، أو يُعذِّبُكُم بِالذِّلَةِ عَلى أَيْدينا ، فانتَظِروا أمْرَ اللهِ تَعالى ، وَنَحنُ مَعَكمْ مُنتظِرونَ أمرَهُ .

وبَعْدَ بَيانِ رَذائِلِ المُنافِقينَ وَمسالِكِهمُ الخَبيثَةِ ، وَكَيْدِهِم لِلإسلامِ وَالمُسلِمينَ ، ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما يَكبِتُهُم ، وَيَفضَحُهُم عَلى رُؤوسِ الأشهادِ . بَعْدَ هذا بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ نَفَقاتُهُم غَيرُ مَقبولَةٍ ، لأنَّ قُلوبَهُم خالِيَةٌ مِنَ الإيمانِ ، ولأنَّ عِباداتِهِم لَيسَتْ خالِصَةً

لِوجه اللهِ تَعالى ، وَأَنَّ ما يُنفِقونَهُ سيَكونُ عَليهِم حَسرَةً ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

قُل يا أَيُّها الرَّسولُ لِلمُنافِقينَ ، الَّذينَ يُريدونَ أَنْ يَستُروا عَوْراتِ نِفاقِهِم بإنفاقِ المالِ في الجِهادِ وَغَيرِهِ ، أَنْفِقوا ما شِئتُمْ طائِعينَ أو مُكْرَهينَ ، فَلَن يَتَقَبَّلَ اللهُ تَعالى عَمَلَكُم ، فَقدْ أحبَطَهُ نِفاقُكُم ، وأَنَّكُم دائِماً مُتَمَرِّدونَ عَلى دينِ اللهِ تَعالى ، خارِجونَ عَنْ أَمْرِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَسْبابَ الّتي أدَّتْ إلى عَدَمِ قَبولِ نَفَقاتِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

أَمّا السَّبَبُ الأَوَّلُ : فَهُوَ كُفْرُهُمْ بِاللهِ تَعالى وَبِرَسولِهِ ﷺ .

وأمّا السَّبَبُ الثّاني : فَهُوَ كَونُهُم لا يَأتونَ الصَّلاةَ إلاّ وَهُم كُسالى ، أيْ : أَنَّهُمُ لا يَأتونَ الصَّلاةَ الّتي كَتَبَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِم في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلاّ في حال كَوْنِهِم مُتَثاقِلينَ عَنها دونَ أَنْ تَنشَطَ لها أَبدانُهُم ، أو تَنشَرِحَ مَعَها صُدورُهُم ، ذلِكَ لأَنَّهُم قَومٌ خَلَتْ قُلوبُهُم مِنَ الإيمانِ ، فَصاروا لا يَرجونَ مِن وَراءِ أَدائِها ثَواباً ، وَلا يَخشَوْنَ مِنْ وَراءِ تَرْكِها عِقاباً ، وَإِنَّما يُؤَدّونَها رِياءً أو تُقْيَةً لِلمُسلِمينَ ، وَقَد قالَ اللهُ تَعالى عَنهُم في مَوضِعٍ آخَرَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وأَمّا السَّبَبُ الثّالِثُ . فَهُو كَونُهُمْ لا يُنفِقونَ إلاّ وَهُم كارِهونَ . فَهُمْ إذا أَنْفَقوا نَفَقَةً في سَبيلِ اللهِ تَعالى كانوا كارِهينَ لِهذا الأمرِ غَيرَ راضينَ ، لأَنَّهُم يَعُدّونَ الإنفاقَ مَغْرَماً ، وَتَرْكَهُ مَغنَما ، وما حَمَلَهُمْ عَلى الإنفاقِ إلاّ الرِّياءُ أوِ المُخادَعةُ أوِ الخَوفُ مِنَ انكِشافِ أمرِهِمْ وَافتِضاحِ حالِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أعداءُ اللهِ تَعالى وَأعداءُ رَسولِهِ ﷺ لا يُحبّونَ الخَيرَ لِلمُؤْمنينَ أَبَداً .

٢ـ لا يَتْرُكُ أعداءُ اللهِ تَعالى وَأعداءُ رَسولِهِ ﷺ فُرصَةً لِلشَّماتَةِ بِالمُسلِمينَ إلاّ اهتَبَلوها .

٣ـ القَدَرُ خَيرُهُ وَشَرُّهُ مِنَ اللهِ تَعالى .

٤ـ حالُ المُؤْمِنِ في مُقابَلَةِ الأعداءِ كُلُّهُ خَيرٌ ، فَإمّا الشَّهادَةُ في سَبيل تَعالى وَإمّا نَصرٌ وَتأييدٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

٥ـ مَنْ أنفقَ مالَهُ لِغَيرِ وَجهِ اللهِ تَعالى ، كَأنْ يَكونَ رِياءً وَسُمعَةً ، لا يَقبلُ اللهُ مِنهُ ، لأنَّ اللهَ تَعالى لا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاّ ما كانَ خالِصاً لِوَجهِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

قَد أخَذنا أمْرَنا مِن قَبلُ ، تَرَبَّصونَ بِنا ، إحدى الحُسْنَيَيْنِ .

٢ـ بَيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَوقِفَ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمنينَ ، بَيِّنْ هذا المَوقِفَ .

٣ـ بَيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ الأسبابَ الّتي أدَّتْ إلى عَدَمِ قَبولِ نَفَقَةِ المُنافِقينَ ، بَيِّن هذِهِ الأسبابَ .

٤ـ هاتِ دَليلاً عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ لا يَتَربَّصُ المُنافِقونَ بِالمُؤْمِنينَ خَيراً .

ب ـ أمرُ المُؤمِنِ كُلُّهُ خَيرٌ .

ج ـ الكافِرُ لا تَنْفَعُهُ أعمالُ البِرِّ في الدُّنيا .

دـ المُنافِقونَ دائِمو الشَّماتَةِ بِالمُسلِمينَ .

نَشاطٌ :

أمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ إذا عَزَمَ عَلى أمرٍ أنْ يَتَوَكَّلَ عَلى اللهِ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدّالّةَ عَلى ذلِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ
وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ
يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾
وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ
يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا
ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ
فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَزْهَقَ أَنْفُسُهُم : تَخرجَ مِنْ أجسادِهِمْ بِشِدَّةٍ وضيقٍ .

يَفْرَقونَ : يَفْزَعونَ ويَخافونَ .

مَلْجأً : مَكاناً يَلْجأونَ إليهِ ، ويَحْتَمونَ فيهِ .

مَغاراتٍ : أمْكنةً مُنْخَفِضةً في الأرضِ ، كالكُهوفِ تُخْفيهِمْ عَنْ أعينِ النّاسِ .

مُدَّخلاً : اسمٌ لِلْمَوْضِعِ الّذي يَدخلونَ فيهِ بِصُعوبَةٍ ومَشقَّةٍ ، مثلَ النَّفَقِ .

يَجْمَحونَ : يُسرِعونَ أشدَّ الإسْراعِ .

يَلمِزُكَ : يَعيبُكَ ويَطعَنُ عَلَيْكَ .

العامِلينَ عَلَيْها : الّذينَ يُكَلَّفونَ بجمعِ الزَّكاةِ وتَحصيلِها .

المؤلَّفةِ قُلوبُهُمْ : مَنْ يُعطى مِنَ الزَّكاةِ استمالةً لِنفسِهِ للإسْلامِ أو لِكفِّ شَرِّهِ أو رجاءَ نَفْعِهِ .

الغارمينَ : مَنْ لَزِمَتْهُمُ الدُّيونُ في غيرِ معصيةِ اللهِ ، ولا يَستَطيعونَ سَدادَها .

ابنِ السَّبيلِ : المسافرِ المُنْقَطِعِ عَنْ أهلِهِ وبَلَدِهِ ولا مالَ مَعَهُ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ بَيانِ بعضِ قَبائِحِ المُنافِقينَ في الآياتِ المُتقدِّمَةِ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ في شَخصِ نَبيِّهِمْ ﷺ عنِ التَّطلُّعِ إلى ما في أيْدي هؤلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيةِ يَكشِفُ اللهُ تَعالى سِرّاً مِنْ أسرارِ المُنافِقينَ وما جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُمْ ، ففي نفوسِهِمْ شُحٌّ وحِرْصٌ عَلى المالِ ، وفتنةٌ بِتَوْفيرِهِ ، والإشفاقُ مِنْ ضياعِهِ ، فَجَعَلَهُمْ بسببِ ذلكَ في عناءٍ وعذابٍ مِنْ جرَّاءِ أموالِهِمْ ، فَهُمْ في تَعَبٍ مِنْ جَمْعِها ، وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ ، وفي أَلَمٍ مِنْ إنْفاقِ ما يَضْطرّونَ إلى إنفاقِهِ مِنْ هذهِ الأموالِ ، فَقَدْ أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى تَعذيبَهُم في الدُّنْيا بما يَحُلُّ بِهِمْ مِنْ شقاءٍ وتعبٍ وَمشقَّةٍ عندَ جَمْعِها ، وقدْ تمَّ مُرادُهُ سُبْحانَهُ ، وهذا مِنْ أشدِّ العُقوباتِ الدُّنيويَّةِ ، وهذا هو شأنُ البُخَلاءِ ، وأهلِ الشُّحِّ عُموماً ، فهُمْ يُجْهِدونَ أنفُسَهُمْ لِجَمْعِ المالِ ، ثُمَّ يَحْرِمونَ أنفُسَهُمْ منهُ . ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أرادَ استِمرارَ حالِهِمْ هكذا حتّى يُدرِكَهُمُ المَوْتُ وهم بهذهِ الحالةِ ، فلا تَسألْ كيفَ تكونُ وفاتُهمُ وهُمْ كافرونَ .

وبَعدَ أنْ بيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّ هؤلاءِ المُنافِقينَ قَدْ خَسِروا الدُّنْيا والآخِرَةِ ، بَيَّنَ مِنْ رذائِلِهِمُ الجُبْنَ والكَذِبَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

إنَّ هؤُلاءِ المنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ تَعالى لكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّهُمْ لَمِنْكُمْ في الدِّينِ والمِلَّةِ ، والحقيقةُ أنَّهمْ ليسوا مِنكُمْ ، ولكنَّهُمْ يُظهِرونَ الإسلامَ ، ويُخفونَ الكُفْرَ لِشدَّةِ خَوْفِهِمْ وهَلَعِهِمْ ، ولا يَستطيعونَ مُصارَحتَكُمْ بالعَداوةِ ، ولا يَجرؤونَ عَلى مُجابَهَتِكُمْ بما تُخفيهِ قُلوبُهُمْ لكُمْ مِنَ البَغْضاءِ .

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

هؤُلاءِ المنافِقونَ يَضيقونَ بِكُمْ ويَكْرَهونَ مُعاشَرَتَكُم ، ولو أنَّهُمْ يَجِدونَ حِصْناً يَلتجِئونَ إليهِ أو

مَغاراتٍ يَسْتَخْفونَ فيها ، أو سِرْداباً في الأرضِ يَجْحرونَ فيهِ ، لأقْبَلوا نَحْوَهُ مُسرِعينَ أشدَّ الإسْراعِ مِنْ دونِ أنْ يَرُدَّهُم شيءٌ ، كالفَرسِ الجَموحِ الّذي عَجزَ صاحِبُهُ عنْ مَنْعِهِ مِنَ النُّفورِ والعَدْوِ .

فهذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تَصويرٌ رائعٌ لِما كانَ عَلَيْهِ المنُافِقونَ مِنْ خوفٍ شديدٍ مِنَ المُؤْمِنينَ ، ومِنْ بُغْضٍ دفينٍ لَهُمْ ، حتّى أنَّهُمْ لو وَجَدوا شيئاً مِنْ هذهِ الأمْكِنَةِ ـ الّتي هي مَنفورٌ عنها ـ لأسْرَعوا نَحْوَها إسْراعاً شديداً .

ثُمَّ تمضي السّورَةُ الكَريمَةُ بَعْدَ هذا في الكَشْفِ عَنِ الأَقوالِ المُنكَرةِ والأفْعالِ القبَيحَةِ الّتي كانتْ تَصْدُرُ عنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

وبعضُ هؤلاءِ المُنافِقينَ يَعيبُكَ أيُّها الرَّسولُ ويَطعَنُ في قِسْمَةِ الصَّدقاتِ ، إذْ لا هَمَّ لَهُمْ إلاّ حُطامُ الدّنْيا ، فإنْ أَعْطَيتَهُم مِنْ تلكَ الصَّدَقاتِ رَضوا عنكَ ، وحَكَموا عَلى هذا العَطاءِ بأنَّهُ عَدْلٌ ، وإنْ لَمْ تُعْطِهِمْ مِنها سَخِطوا عليكَ ، واتَّهموكَ بأنَّكَ غيرُ عادلٍ ، حتّى لو كان عَدَمُ عطائِهِمْ هو الحقَّ بِعيْنِهِ ، فهمْ لا يَقولونَ ما يَقولونَهُ فيكَ غَضَباً لِلْعَدْلِ ، ولا حماسةً لِلحقِّ ، ولا غَيْرَةً عَلى الدّينِ ، وإنّما يقولونَ ما يقولونَ مِنْ أجلِ مَطامِعِهِمُ الشّخصيَّةِ ، ومنافِعِهِمُ الذّاتيةِ . وبعدَ ذلكَ وضَّحَ سُبْحانَهُ وتَعالى المنْهَجَ الّذي يَليقُ بأصحابِ العَقيدةِ السَّليمةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

ولو أنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذينَ عابوكَ في قِسْمَةِ الصَّدَقاتِ ، رَضوا بما قَسَمَ اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وهو ما أعْطاهُمْ رسولُهُ ﷺ ، وطابتْ نفوسُهُم بهِ ـ وإنْ كانَ قليلاً ـ وقالوا : كَفانا حُكْمُ اللهِ تَعالى ، وسَيَرْزُقُنا اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ ، وسَيُعْطينا رسولُهُ ﷺ أكثرَ مِمّا أعْطانا في هذهِ المَرّةِ ، وإنّا إلى طاعةِ اللهِ تَعالى وأفْضالِهِ وإحْسانِهِ لَراغِبونَ ، لو أنّهم فَعَلوا ذلكَ لكانَ خَيراً لَهُمْ . وبعدَ أنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى المنَهْجَ اللّائِقَ بأصْحابِ العَقيدةِ السّليمةِ في طَلَبِ الدُّنْيا ، والّذي خُلاصَتُهُ الرِّضا بما قَسَمَ اللهُ تَعالى ، وأعطى رسولُهُ ﷺ ، بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَقِبَ ذلِكَ المُسْتَحقّينَ للصَّدقاتِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

لا تُصْرَفُ الزَّكاةُ المَفْروضَةُ إلاّ للَّذينَ لا يَجِدونَ ما يَكْفيهِمْ ، والمَرْضى الّذينَ لا يَسْتَطيعونَ

كَسْباً ولا مالَ لَهُمْ ، والّذينَ يَجْمَعونَها ويَعْمَلونَ فيها .

والّذينَ تُؤَلَّفُ قُلوبُهُمْ لأَنَّهُم يُرْجى مِنهُمُ الإسلامُ ، والانتفاعُ بِهِمْ في خِدمَتِهِ ونُصْرَتِهِ ، والّذينَ يَدْعونَ إلى الإسلامِ وَيُبشِّرونَ بِهِ ، وفي عِتْقِ رِقابِ الأَرِقّاءِ ، والأَسْرَى مِنْ رِبْقَةِ العُبوديَّةِ وذُلِّ الأَسْرِ ، وفي قَضاءِ الدُّيونِ عَنِ المَدينينَ العاجِزينَ عَنِ الأداءِ ، إذا لَمْ تَكُنْ تِلكَ الدّيونُ ناشِئَةً عَنْ إثْمٍ أو ظُلْمٍ أو سَفَهٍ ، وفي إمدادِ الغُزاةِ بما يُعينُهُمْ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وما يَتَّصِلُ بِذلِكَ مِنْ طُرُقِ الخَيْرِ ووجوهِ البِرِّ ، وفي عَوْنِ المُسافِرينَ إذا انْقَطَعَتْ أَسبابُ اتِّصالِهِمْ بأموالِهِمْ وأَهْليهِمْ . شَرَعَ اللهُ تَعالى ذلِكَ فَريضَةً مِنهُ لِمَصْلَحَةِ عِبادِهِ ، واللهُ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِمَصالِحِ خَلْقِهِ ، حَكيمٌ فيما يُشَرِّعُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نَهْيُ المُؤْمِنينَ عَنْ أنْ يَتَطَّلعوا إلى ما في أيدي الكافِرينَ إعْجاباً .

٢ـ حياةُ الكُفّارِ بُؤْسٌ وَشَقاءٌ وإنْ كانتْ تَبدو عَلى غَيْرِ ذلِكَ .

٣ـ المُنافِقونَ دائِمو الخَوْفِ والتَّوَجُّسِ مِنَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ المُنافِقَ يَكْذِبُ ولا يَصْدُقُ .

٥ـ فَريضَةُ الزَّكاةِ تُطَهِّرُ النَّفْسَ مِنَ الشُّحِّ وَهِيَ شِرْعَةُ تَراحُمٍ وتَضامنٍ بَيْنَ أفرادِ الأُمَّةِ المُسلِمةِ .

٦ـ لا يَرْضى المُنافِقُ بِما قَسَمَ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ .

٧ـ مِنْ عَلاماتِ الإيمانِ الرِّضا بِما قَسَمَ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ .

٨ـ مصارِفُ الزَّكاةِ بيِّنَةٌ واضِحةٌ ، وَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ تَعالى بِبَيانِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، يَفْرَقونَ ، مَلْجأً أو مَغاراتٍ أوْ مُدَّخَلاً ، يَجْمَحونَ ، يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ ، الغارِمينَ ، ابنِ السَّبيلِ .

٢ـ بيِّنْ ماذا أرادَ اللهُ تعالى بالمُنافِقينَ وأموالِهِمْ .

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ صُورةً قَبيحةً للمُنافِقينَ ، وضِّحْ هذِهِ الصّورَةَ مُستَدِلاً عَليْها بآياتِ الدَّرْسِ .

٤ـ لِماذا لا يُعْجَبُ المُنافِقُ بِقِسْمةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

٥ـ بماذا يَتميَّزُ المُؤْمِنُ الصَّادِقُ ؟

٦ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَصارِفَ الزَّكاةِ ، اذْكُرْها وهاتِ الدَّليلَ عَلى ما تَقولُ .

٧ـ بيِّن مَوْقِفَكَ مِنَ المُنافِقينَ بَعدَما رَسمتْ صورتَهُمْ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .

نَشاطٌ :

ـ بيَّنَتِ الآياتُ أنَّ المُنافِقينَ يُكْثِرونَ مِنَ الحَلْفِ ، اكْتُبْ سَبَبَ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

اقرأْ وتدبَّرْ :

شكا عامِلُ الصَّدَقاتِ عَلى إفريقيةَ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أنَّهُ لا يَجِدُ فَقيراً يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، فقالَ لَهُ : سَدِّدِ الدَّيْنَ عَنِ المَدينينَ ، فسَدَّدَ ، ثُمَّ شكا ثانيةً فقالَ لَهُ : اشْتَرِ عَبيداً وأَعْتِقْهُمْ ، وذلكَ مَصْرِفٌ مِن مَصارِفِهِمْ .

والحقيقةُ أنَّ الزَّكاةَ لَوْ جُمِعَتْ مِنْ وُجوهِها وَصُرِفتْ في مَصارِفِها ، لَتَبيَّنَ مِنْ تَطبيقِها أنَّها أعظَمُ نِظامٍ للتَّكافُلِ الاجْتِماعيِّ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ السَّادِسَ عَشَرَ

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هو أُذُنٌ : أيْ كالأُذُنِ في تَلَقّي المَسْموعاتِ ، لا يَرُدُّ مِنْها شَيْئاً .

يُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنينَ : يُصَدِّقُ المُؤْمِنينَ .

يُحادِّ اللهَ ورَسولَهُ : يُعادي اللهَ ورَسولَهُ .

التَّفْسيرُ :

بَعْدَ الحَديثِ عَنْ الصَّدقاتِ الّتي كانَ المُنافِقونَ يَلْمِزونَ فيها رَسولَ اللهِ ﷺ ، وبَعْدَ بَيانِ مَصارِفِها بَياناً شافياً يَقْطَعُ رَجاءَ كلِّ نَفْسٍ تَتَطَلَّعُ إلى ما لا تَسْتَحِقُّ ، أَخَذَتِ السورَةُ الكَريمَةُ في مُواصَلَةِ حَديثِها عَنْ قَبائِحِ المُنافِقينَ ورذائِلِهِمْ ، وعَنْ سوءِ أَدَبِهِمْ مَعَ اللهِ تَعالى ، وَمَعَ رَسولِهِ ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ .

مِنَ المُنافِقينَ قَومٌ يُؤذونَ النَّبيَّ ﷺ ، ويَتَناولونَهُ بِما يَكْرَهُ ، فَيَتَّهِمونَهُ بأنَّهُ مُصَدِّقٌ لِسَماعِ كُلِّ ما يُقالُ لَهُ مِنْ صِدْقٍ وكَذِبٍ ، وأنَّهُ يُخْدَعُ بِما يَسْمَعُ ، فأمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُمْ عَلى سَبيلِ التَّوْبيخِ والتَّبكيتِ : إنَّ مَنْ تَتَناوَلونَهُ في غَيْبَتِهِ بِهذِهِ التُّهْمَةِ ، لَيسَ كَما زَعَمْتُم ، بلْ هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ ، لا يَسْمَعُ إلاّ الصِّدْقَ ، ولا يُخْدَعُ بِالباطِلِ ، يُصَدِّقُ باللهِ تَعالى وَوَحْيِهِ ، ويُصَدِّقُ المُؤْمِنينَ ، لأنَّ إيمانَهُمْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الكَذِبِ .

وهُوَ ﷺ رَحْمَةٌ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْكُمْ ، وأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ أعدَّ لِمَنْ يُؤْذي رَسولَهُ ﷺ عَذاباً موجِعاً ، دائِماً شَديداً ، لا يَنْقَطِعُ ولا يَجِدونَ مِنْهُ خَلاصاً . ثُمَّ حَكى القُرآنُ الكَريمُ بَعْدَ ذلِكَ لَوْناً مِنْ جُبْنِهِمْ وعَجْزِهِمْ عَنْ مُصارَحَةِ المُؤْمِنينَ بالحَقائِقِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

إنَّ مِن عادَةِ المُنافِقينَ والكاذِبينَ وَمَنْ يَرتَكِبُ جُرْماً أنْ يَشْعُرَ وكَأنَّ النّاسَ جَميعاً مُطَّلِعونَ عَلَيْهِمْ ، عالِمونَ بأحْوالِهِمْ ، ولِذلِكَ تَراهُمْ يُكْثِرونَ مِنَ الحَلْفِ ، حَتّى تَبْتَعِدَ الشُّبْهَةُ المُحيطَةُ بِهِمْ ، وقَدْ كانَ المُنافِقونَ كَثيراً ما يَحْلِفونَ ويَعْتَذِرونَ ، واللهُ تَعالى يَعْلَمُ أنَّهُم لَكاذِبونَ ، يَحْلِفونَ لَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّهم بَراءٌ مِمّا نُسِبَ إليهِمْ قَوْلاً وَفِعْلاً ، لِيرْضوكُمْ ، فَتَطْمَئِنّوا لَهُمْ وَتَثِقوا فيهِم ، وَقَدْ فَهِموا أنَّهُم بِهذا يَضُمّونَكُم لِصفوفِهِم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى لَهُم بِالمِرْصادِ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ويَكْشِفُ سِترَهُمْ ، حَيث يقولُ : يَحْلِفونَ لَكُم لِيُرْضوكُمْ ، والحالُ أنَّ اللهَ تَعالى ورَسولَهُ ﷺ أحَقُّ بالإرْضاءِ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وإرضاءُ اللهِ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ إنّما يَكونُ بالإيمانِ الصّادِق والعَمَلِ الكامِلِ والبُعْدِ عَنِ النِفاقِ ، هذا إنْ كانوا مُؤْمِنينَ حقّاً ، إذْ علاماتُ الإيمانِ ثِقةٌ باللهِ تَعالى وحُبٌّ لَهُ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ ، والعَمَلُ عَلى رِضاهُما بامْتِثالِ الأمرِ واجْتِنابِ النَّهْي .

وبعدَ هذا تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِسوءِ المَصيرِ بِسَبَبِ مُخالَفَتِهِمْ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

ألَمْ يَعلمْ هؤُلاءِ المُنافِقونَ الّذين مَرَدوا عَلى الفُسوقِ والعِصيانِ أنَّهُ مَنْ يُخالِفْ تَعاليمَ اللهِ تَعالى ورَسولَهُ ﷺ ، فَجَزاؤهُ جهنَّمُ يَصْلاها يَوْمَ القِيامَةِ خالِداً فيها ، إنْ كانوا لا يَعْلَمونَ ذلِكَ فأعْلِمهُمْ

يا مُحَمَّدُ ﷺ بسوءِ مَصيرِهِمْ إذا ما اسْتَمرّوا عَلى نِفاقِهِمْ ، ومُعاداتِهِمْ للهِ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ .

وبِهذا نَرى أنّ هاتَيْنِ الآيَتَينِ قَدْ ذَكَرتا جانِباً مِنْ رذائِلِ المُنافِقينَ وأكاذيبِهِمْ ، وتَوعَّدَتا كُلَّ مُخالفٍ لأوامِرِ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ بِسوءِ المَصيرِ والعياذُ باللهِ .

ثُمَّ واصَلَتِ السّورةُ الكَريمَةُ فَضْحَها للمُنافِقينَ ، فَمازالتْ تَكْشِفُ خَباياهُمْ وتَهْتِكُ أَسْتارَهُمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

المُنافِقونَ مُذَبْذَبونَ بَيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ شاكّونَ مُرْتابونَ في الوَحْيِ وصِدْقِ الرّسولِ ﷺ ، وهذا الشّكُّ والارْتيابُ يَدعوهُمْ إلى الحَذَرِ والإشْفاقِ ،بلْ هو لازمٌ لَهُ ، إذْ لو كانوا مُوقِنينَ بِكَذِبِ الرّسولِ ﷺ لَما جاءَهُمُ الحَذَرُ ، ولوْ كانوا حقّاً مُصَدِّقينَ برسالَتِهِ لَما كانَ لِهذا الخَوْفِ والحَذَرِ مَحَلٌّ ، لهذا عنَّفَهُمْ القرآنُ الكَريمُ بالقولِ : يَحْذَرُ المُنافِقونَ أنْ تُنَزَّلَ عَلى المُؤْمنينَ سورةٌ كاشِفَةٌ لَهُمْ ، فاضِحَةٌ أَسْتارَهُم ، مُبيِّنَةٌ نِفاقَهُمْ ، يَحْذَرونَ مِنْ سورةٍ تُنَبِّئُهُمْ بما في قُلوبِهِمْ ، والمُرادُ اللّازِمُ هو فَضيحَتُهُمْ وكشفُ عوراتِهِمْ ، وبيانُ شَكِّهِمْ ، وارْتيابِهِمْ وتَربُّصِهِمُ الدَّوائِرَ بالمُسلِمينَ ، وإنذارِهِمْ بما قَدْ يَتَرتَّبُ عَلى ذلكَ مِنْ عِقابِهِمْ . وقدْ كانَ المُنافِقونَ دائمي الاسْتِهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ وبالمُؤْمنينَ ، ولِذلكَ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُمْ : اسْتَهْزِئوا كما تَشاءونَ ـ وهذا تهديدٌ لَهُمْ شَديدٌ وَوعيدٌ أكيدٌ ـ إنّ اللهَ تَعالى مُخْرِجٌ ما تَحذَرونَ إخراجَهُ مِنْ مُخبّآتِ الضَّميرِ ، ومَكنوناتِ الصُّدورِ ، وقدْ حَصَلَ ذلكَ وظَهَرَ نِفاقُهُمْ لِكُلِّ النّاسِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ سِماتِ المُنافِقينَ دوامُ الخَوْفِ والحَذَرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤْمنينَ .

٢ـ مِنْ سِماتِهِمْ كذلكَ استهزاؤُهُمْ بِالنَّبيِّ والمُؤْمنينَ .

٣ـ تَوعَّدَ اللهُ تَعالى مَنْ يُؤذي رَسولَهُ ﷺ بالعذابِ الأليمِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

هُوَ أُذُنٌ ، يُؤْمِنُ لِلمُؤْمنينَ ، يُحادّدِ اللهَ ، إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرونَ .

٢ـ ماذا تَستَفيدُ مِنْ كُلٍّ مِمّا يلي :

أ ـ ومِنْهُمُ الّذينَ يُؤْذونَ النَّبيَّ .

ب ـ يَحْلِفونَ باللهِ لكمْ لِيُرْضوكُمْ .

ج ـ قلِ اسْتَهزِئوا .

٣ـ وصَفَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ بأنّهُ أُذُنُ خَيْرٍ ، وضِّحْ هذا الوَصْفَ ، واذْكُرِ الدَّليلَ عَلى ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ المُجادَلَةِ الّتي تُبيِّنُ حالَ مَنْ حادَّ اللهَ ورَسولَهُ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ السّابِعَ عشَرَ

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نَخوضُ ونَلعبُ : نَفْعَلُ فِعْلاً عَبَثاً لا نَقْصُدُ بِهِ الجِدَّ .

يَقبضونَ أيْدِيَهُمْ : كنايةٌ عنْ شُحِّهِمْ عَلى الفُقراءِ والمُحْتاجينَ .

نَسوا اللهَ : أعْرَضوا عَنِ ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِ وامْتِثالِ أوامِرِهِ .

نَسِيَهُمْ : حَرَمَهُم ما أعَدَّهُ لِلمُؤْمنينَ مِنْ هِدايَتِهِ ورَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ .

التَّفسيرُ :

تَسْتَمِرُّ الآياتُ الكَريمةُ في بَيانِ حَقيقةِ المُنافِقينَ وكَيفيَّةِ التّعامُلِ مَعَهُمْ ، فوجَّهَ اللهُ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ خِطابَهُ لِيسْأَلَ المُنافِقينَ عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الباطِلِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

وَلَئِنْ سألتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ هؤُلاءِ المُنافِقينَ عن سَبَبِ اسْتِهزائِهِمْ بِتعاليمِ الإسلامِ ، لَيَقولُنَّ لَكَ عَلى سبيلِ الاعْتذارِ : إنّما كُنّا نَفْعَلُ ذلكَ عَلى سَبيلِ المُمازَحَةِ ، والمُداعَبَةِ ، لا عَلى سبيلِ الجِدِّ ،

فإنْ قالوا لكَ ذلكَ فَقُلْ لَهُمْ عَلى سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ : أَلَمْ تَجِدوا ما تَسْتَهزِءونَ بِهِ في مُزاحِكُمْ ولَعِبِكُمْ ـ كما تَزعمونَ ـ سوى فَرائضِ اللهِ تَعالى وأَحْكامِهِ وآياتِهِ ، ورسولِهِ الّذي جاءَ لِهدايَتِكُمْ وإِخْراجِكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ ؟ وهذهِ الآيَةُ تدلُّ عَلى أَنَّ الوَقاحَةَ بَلَغَتْ بالمُنافِقينَ مَبْلَغاً عَظيماً .

وبَعْدَ ذلِكَ أَبْطَلَ اللهُ تَعالى اعْتِذارَهُمْ وما قَبِلَهُ مِنْهُمْ ، وأَمَرَ رسولَهُ ﷺ أَنْ يُوبِّخَهُمْ عَلى هذا العَمَلِ الفاسِدِ ، والاعْتذارِ الباطِلِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

قل يا مُحَمَّدُ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ المُسْتَهزِئينَ بما يَجِبُ إجْلالُهُ واحْتِرامُهُ وتَوْقيرُهُ ، قلْ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ أيْضاً : لا تَشتَغِلوا بتلكَ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، فإِنَّها غيرُ مقبولةٍ ، لأَنَّكُمْ بهذا الاسْتِهزاءِ باللهِ تَعالى وآياتِهِ ورَسولِهِ ﷺ قَدْ كَفرتُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ ؛ أيْ قدْ ظَهَرَ كُفرُكُمْ ، وثَبَتَ بَعْدَ إظهارِكُمُ الإيمانَ عَلى سبيلِ المُخادَعَةِ ، فإذا كنّا قبلَ ذلِكَ نُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ المُسلِمينَ بِمُقْتَضى نُطْقِكُمْ بالشّهادَتيْنِ ، فنحنُ الآنَ نُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ الكافِرينَ بِسببِ اسْتِهزائِكُمْ باللهِ تَعالى وآياتِهِ ورَسولِهِ ﷺ ، لأنَّ الاسْتِهزاءَ بالدّينِ كُفْرٌ ، إِذْ إنَّهُ يدلُّ عَلى الاسْتِخفافِ . والأساسُ الأوَّلُ في الإيمانِ تعظيمُ اللهِ تَعالى ، والجَمْعُ بَيْنَ الاسْتِخفافِ والتَّعظيمِ مُحالٌ ، وقولُهُ تَعالى :

﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

هذا فتحٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِتوبةِ الرّاغبينَ مِنْهُمْ في التَّوْبَةِ ، فَمَنْ تَرَكَ النِّفاقَ منكُمْ وتابَ مِنْ أوزارِهِ فإِنَّ اللهَ تَعالى يَعفو عَنهُ ، وأمّا مَنْ أَصَرَّ عَلى نِفاقِهِ واسْتَمْسَكَ بأوْزارِهِ ، فذاكَ المُجْرِمُ الّذي لا يَعفو اللهُ تَعالى عنهُ ولا يَقبلُهُ ، نعوذُ باللهِ تَعالى مِنَ النِّفاقِ وأَهْلِهِ .

ثُمَّ مَضَتِ السّورةُ الكَريمةُ في تقريرِ حَقيقةِ المُنافِقينَ ، وفي بيانِ جانبٍ آخَرَ مِنْ صِفاتِهِمْ والمَصيرِ السَّيىءِ الّذي يَنتظِرُهُم ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يُشْبِهُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ، فَهُمْ مُتَشابِهونَ وَصْفاً وَعَمَلاً ، ذُكوراً وإناثاً . وهذا دليلٌ عَلى تَأصُّلِ الدّاءِ وتَمكُّنِهِ مِنْ نُفوسِهِم حتّى صارَ كالغرائِزِ المُوروثَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى وجْهَ الشَّبَهِ فقالَ : هم يَأْمُرونَ بكلِّ مُنْكَرٍ ويَدعونَ إليهِ ، والمُنْكَرُ ما أنْكَرَهُ

الطَّبْعُ السّليمُ والعَقْلُ الرّاجِحُ وما نَهى عنهُ الشّرْعُ الشَّريفُ ، ويَنْهَوْنَ عنِ المَعروفِ شَرْعاً وعَقْلاً وطَبْعاً .

ومِنَ المُشابَهَةِ بَيْنَهُمْ أنَّهم يَقبضونَ أيْديَهُمْ عنِ الإنْفاقِ ، ويَبْخَلونَ بِمالِهِمْ ، وهذا مِنْ أهمِّ علاماتِ النِّفاقِ . والنِّفاقُ أساسُ الشَّرِّ وأصْلُ البلاءِ ومَجْمَعُ كُلِّ رَذيلةٍ في الوُجودِ .

ثُمَّ إنَّ المُنافِقينَ نَسوا اللهَ تَعالى فأنْساهُمْ أنفُسَهُمْ ، ونَسوا التَّقرُّبَ إليهِ تعالى ، ونَسوا جَلالَهُ وعَظَمَتَهُ وشَرْعَهُ وآياتِهِ وحِسابَهُ وعِقابَهُ ، فَنَسيَهُمُ اللهُ تَعالى وجازاهُم عَلى عَمَلِهِم ، فَحَرَمَهُم مِنْ حُبِّهِ وذِكْرِهِ ، والتَّمتُّعِ بدينِهِ وآياتِهِ والإنفاقِ في سَبيلِهِ ، وحَرَمَهُمْ مِنَ الثَّوابِ والرِّضْوانِ ، أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ وأولئكَ هُمُ الخاسِرونَ ، إنَّ المُنافِقينَ هُمُ الفاسِقونَ الخارِجونَ عَنْ العَقلِ والدّينِ ، والمَصلَحَةِ العامَّةِ والخاصَّةِ ، هُمُ الفاسِقونَ لا غيرَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أقبحِ صِفاتِ المُنافِقينَ سُخْرِيَتُهُمْ مِنَ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ .

٢ـ معاذيرُ المُنافِقينَ كلُّها زيفٌ وباطِلٌ ، فَهُمْ كاذِبونَ مُجْرِمونَ .

٣ـ بابُ التّوبَةِ مَفتوحٌ لِمَنْ تَرَكَ النِّفاقَ وتابَ مِنْ أوْزارِهِ .

٤ـ المُنافِقُ إنّما يُظْهِرُ الإيمانَ مُخادَعَةً ، ومِنْ علاماتِ المُنافِقينَ أنّهم يَأْمُرونَ بالمُنْكَرِ ويَنْهَوْنَ عنِ المَعْروفِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

نخوضُ ونَلعَبُ ، يَقبِضونَ أيْدِيَهُمْ ، نَسوا اللهَ فَنَسِيَهُم ، المُنْكَر .

٢ـ اشْتَمَلَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَلى بيانِ مجموعةٍ مِنْ صفاتِ المُنافِقينَ المُختلفةِ ، اذْكُرْ هذهِ الصِّفاتِ وما تَدلُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلكَ الآياتِ .

٣ـ بَيِّنْ ماذا تَسْتفيدُ مِمّا يلي :

أ ـ قلْ أباللهِ وآياتِهِ ورَسولِهِ كُنتمْ تَستهزِئونَ .

ب ـ قدْ كفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ .

ج ـ لا تَعْتَذِروا .

د ـ إن نَعْفُ عَنْ طائِفةٍ مِنكُمْ نُعذِّبْ طائِفةً .

هـ ـ يَقبِضونَ أيْدِيَهُمْ .

٤ـ بيِّنْ لِماذا حَرَمَ اللهُ تَعالى المُنافِقينَ مِنَ الجَزاءِ الّذي أعدَّهُ لِلمُؤْمنينَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الثّلاثَ الأُولى مِنْ سورةِ « المُنافقونَ » وبيِّنْ شَهادةَ اللهِ تَعالى عَليْهِمْ .

٢ـ ارْجِعْ إلى كتابِ رياضِ الصّالِحينَ ، واسْتَخرِجْ مِنهُ الأحاديثَ الّتي تُبيِّنُ صِفاتِ المُنافِقينَ ، واقْرَأْها في طابورِ الصّباحِ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ
ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم
بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَسْبُهُمْ : كافيهِمْ

اسْتَمْتَعوا بِخَلاقِهِمْ : تَلذَّذوا بِما قَدَّرَهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ مِنَ الدُّنْيا .

خُضْتُمْ كالّذي خاضوا : دَخَلْتُمْ في الباطِلِ كما دَخَلَهُ مَنْ قَبْلَكُم .

أصحابُ مَدْيَنَ : قومُ شعيبٍ عليهِ السّلامُ .

المُؤْتَفِكاتُ : أصحابُ قُرى قوم لوطٍ عليهِ السّلامُ ، سُمِّيَتْ كذلكَ لأنَّ اللهَ قَلَبَها وأصْبَحَ عاليها سافِلَها .



بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ قبائِحِ المُنافِقينَ ما يَفْضَحُ سِرَّهُمْ ، وَيهتِكُ سِتْرَهُم ، وبيَّنَ مِنْ

أَخْلاقِهِمْ وأَوْصافِهِمْ ما هُمْ مُتَشابِهونَ فيهِ ، أخبَرَنا سُبْحانَهُ وتَعالى بسوءِ مَصيرِهِمْ وعاقبةِ أمْرِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

إنّ اللهَ تَعالى في هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ بَيَّنَ ما أعدَّهُ للمُنافِقينَ مِنْ عقابٍ وجزاءٍ ، فقدْ أعدَّ لَهُمْ نارَ جهنَّمَ خالِدينَ فيها ، ثُمَّ ذكَرَ سُبْحانَهُ الرِّجالَ مِنهُم والنِّساءَ ، لِلدَّلالَةِ عَلى عُمومِ الوَصْفِ فيهِمْ ، وتأصُّلِ الدّاءِ فيهِمْ كذلكَ . ثُمَّ قدَّمَ اللهُ تَعالى ذِكْرَهُم عَلى الكُفّارِ دَلالةً عَلى أنَّ النِّفاقَ أخْطَرُ مِنَ الكُفْرِ الصَّريحِ . ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَيَّنَ أنَّ عذابَهُمْ ، فيهِ العاجِلُ في الدّنيا وفيهِ الآجِلُ في الآخِرَةِ ، فالنّارُ حَسْبُهُمْ ، يعني وفي جَهَّنَمَ جزاءٌ يَكفيهِمْ عِقاباً لَهُمْ ، ولَعَنَهُمُ اللهُ تَعالى ، ففي الدُّنْيا طَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وتَوْفيقِهِ ، وفي الآخِرَةِ لَهُمُ العذابُ الشّديدُ الثّابِتُ الّذي لا يَحولُ ولا يزولُ . والظّاهِرُ ـ واللهُ تَعالى أعْلَمُ ـ أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِهذا البَيانِ أرادَ أنْ يُذيقَهُمُ العذابَ الحِسّيَّ والمَعنويَّ الّذي يَتكافأُ مَعَ نِفاقِهِمْ وَعَمَلِهِمْ .

وبَعْدَ ذلِكَ ساقَتِ السّورةُ الكَريمَةُ ـ لهؤُلاءِ المُنافِقينَ ـ نماذجَ لِمَنْ حَبِطَتْ أعمالُهُم بِسَبَبِ غُرورِهِمْ ، وَضَرَبَتْ لَهُمُ الأمثالَ بِمنْ هَلكَ مِنَ الطُّغاةِ السّابِقينَ بسببِ تكذيبِهِمْ لأَنْبيائِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

هذا خِطابٌ لِلْمُنافِقينَ المُعاصِرينَ للنَّبيِّ ﷺ : أنتُمْ أَيُّها المنافِقونَ الّذينَ آذيتُمُ اللهَ تَعالى ورسولَهَ ﷺ والمُؤْمِنينَ ، كأُولئِكَ السّابِقينَ مَعَ أنبيائِهِمْ ؛ أنتُمْ مِثلُهُمْ مَغْرورونَ بِمالِكُمْ ، مَفتونونَ بأولادِكُمْ ، ولكنَّهُمْ كانوا أشدَّ مِنكمْ قُوَّةً ، وأكثرَ أموالاً ، وأولاداً ، ولم يَكُنْ لَهُمْ في دُنياهُمْ إلاّ مَطْلَبٌ واحِدٌ هو المَتاعُ الفاني ، والعَرَضُ الزّائِلُ ، والتَّمتُّعُ بالمالِ والوَلَدِ ، فكانَ نَصيبُهُمْ نَصيبَ الحيوانِ يَتمتَّعُ ويأْكُلُ وَيتناسَلُ ، فاسْتَمْتَعتُمْ أنتمْ بِنَصيبِكُمْ مِنَ المالِ والوَلَدِ والعَرَضِ الزّائِلِ كاسْتِمْتاعِهِمْ بِنَصيبِهِمْ ، لم تَفْضُلوا عَلَيْهِمْ بشيءٍ مِنَ التَّمتُّعِ بكلامِ اللهِ تَعالى المُحْكَمِ الّذي أنْزَلَهُ عَلى خيرِ أنبيائهِ وسيِّدِ رُسُلِهِ ﷺ ، فكنْتُمْ أجدرَ مِنهُمْ بالمَلامةِ ، وأحقَّ بالعذابِ والنَّكالِ .

فأنتُمْ فَعلتُمُ الخَبائِثَ كما فَعَلوا ، وخُضْتُمْ في حَمَأةِ الرّذيلةِ والفِسْقِ كما خاضوا ، ونَتيجةُ ذلِكَ أنْ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدُّنْيا وفَسَدَتْ ، لأنّها أعمالٌ للرِّياءِ والسُّمْعَةِ ، وقدْ ظَهَرَ نِفاقُهُمْ فيها ، وفي

الآخِرَةِ لَهُمُ العذابُ الأليمُ ، لأنَّ شَرْطَ الثَّوابِ عَلى الأعمالِ الإيمانُ ، وهُمْ لا إيمانَ عندَهُمْ بلْ نِفاقٌ وزورٌ ، أولئِكَ هُمُ الخاسِرونَ الّذينَ يَحسَبونَ أنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً ، وقدْ ضَلَّ سعيُهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، ولابُدّ وأنْ يُصيبَكُمْ ما أصابَهُمْ .

ثُمَّ ساقتْ لَهُمُ السّورَةُ مِنْ أخبارِ السّابِقينَ ما فيهِ الكِفايَةُ للعِظَةِ والاعْتِبارِ لو كانوا يَعقِلونَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

أَلَمْ يَصِلْ إلى أسْماعِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ خبرُ أولئِكَ المُهْلَكينَ مِنَ الأقوامِ السّابِقينَ بِسَبَبِ عِصْيانِهِمْ لِرُسُلِهِمْ صلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِمْ ، ومِنْ هؤُلاءِ الأقوام ، قومُ نوحٍ الّذينَ أُغْرِقوا بالطّوفانِ ، وقومُ عادٍ الّذينَ أُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ، وقومُ ثمودَ الّذينَ أخذتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصْبَحوا في دارِهِمْ جاثِمينَ ، وقومُ إبراهيمَ الّذينَ سَلَبَ اللهُ تَعالى نِعمَهُ عَنْهُم ، وأذلَّ غُرورَ زعيمِهِمُ الّذي حاجَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ في ربِّهِ تَعالى ، وأصحابُ مَدْيَنَ ، وأصْحابُ مَدْيَنَ هُمْ قومُ شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ الّذينَ أخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، والمُؤْتَفِكاتُ وهُمْ أصحابُ قُرى قومِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ الّتي جَعَلَ اللهُ عالِيَها سافِلَها .

هؤلاءِ الأقوامُ أتَتْهُمْ رُسُلُ ربِّهِمْ تَبارَكَ وتَعالى بالبَيِّناتِ والحُجَجِ الواضِحَةِ ، فكذَّبوا وتَولَّوْا عنْ أنْبيائِهِمْ ، واخْتاروا طريقَ الغِوايَةِ والضَّلالِ وبذلكَ ظَلَموا أنْفُسَهُم . وإنّما ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذهِ الطّوائِفَ السّتَّ مِنَ الأُمَمِ المُهْلَكَةِ ، لأنَّ آثارَهُمْ باقيةٌ ، ومَواطِنُهُمْ هِيَ الشّامُ والعِراقُ واليمنُ ، وهي مواطِنُ قريبةٌ مِنْ أرضِ العَرَبِ ، فكانوا يَمرّونَ عليْها في أسْفارِهِمْ كما كانوا يَعْرِفونَ الكَثيرَ مِنْ أخبارِهِمْ ، قال تَعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات ١٣٧-١٣٨] .

وقَدْ ظَهَر لنا مِنْ خلالِ هذهِ الآياتِ الكَريمَةِ أنَّ الغُرورَ بالقُوَّةِ والافْتِتانَ بالأموالِ والأولادِ ، والانْغماسَ في الشَّهَواتِ والمَلَذّاتِ الحِسّيَّةِ ، والخَوْضَ في طُرُقِ الباطِلِ ، وعدمَ الاعْتِبارِ بما حَلَّ بالطُّغاةِ والعُصاةِ ، كُلُّ ذلِكَ يُؤدي إلى الخُسْرانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وإلى التَّعرُّضِ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعِقابِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُنافِقونَ أشدُّ خَطَراً مِنَ الكُفّارِ .

٢ـ هلاكُ الأُمَمِ بِفَسادِها .

٣ـ العِبْرَةُ بِمَنْ سَبَقَ تَصويبَ طريقِ مَنْ لَحِقَ .

٤ـ الدُّنْيا بِلَذائِذِها لا تُغني عَنِ الآخِرَةِ .

٥ـ تَكذيبُ الرُّسُلِ مَدْعاةٌ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعِقابِهِ .

٦ـ اللهُ تَعالى لا يُحابي أحَداً ، فَمَنْ آمن أكْرَمَهُ ، ومَنْ كَفرَ عَذَّبهُ ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحَداً .

التَّقْويمُ :

اجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

حَسْبُهُمْ ، اسْتَمْتَعوا بِخَلاقِهِمْ ، خُضْتُمْ كالّذي خاضوا ، أصحابُ مَدْيَنَ ، المُؤْتَفِكاتُ .

٢ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما أعَدَّ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ ، بَيِّنْ ذلِكَ مُسْتَدِلاً عَلَيْهِ بآيَةٍ مِنْ كتابِ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أوْجُهَ المُشابَهَةِ بَيْنَ المُنافِقينَ ومَنْ سَبَقَهُمْ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ اذْكُرِ الأقوامَ الّتي ذَكَرَها اللهُ تَعالى تَمْثيلاً للمُنافِقينَ ، وبَيِّنْ كيفَ أهْلَكَ اللهُ كُلاً مِنها .

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السَّبَبَ الّذي مِنْ أجْلِهِ أهْلَكَ اللهُ تَعالى الأُمَمَ السّابقةَ ، بَيِّنْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ لِماذا كانَ المُنافِقونَ أشدَّ خطراً مِنَ الكافِرينَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تُبيِّنُ مُحاجَجَةَ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ لِمَلِكِ قومِهِ .

الدَّرْسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أولياءُ بَعضٍ : نُصَراءُ لِبَعْضِهِمْ بَعْضاً ، أُخْوةٌ مُتحابّونَ .

جَنّاتُ عَدْنٍ : اسمُ جَنّاتِ الإقامةِ الدّائمةِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ تَحدَّثتِ السّورةُ الكَريمَةُ عنْ أحوالِ المُنافِقينَ وصِفاتِهِمْ وسوءِ عاقِبَتِهِمْ ، أتْبَعَتْ ذلِكَ بالحديثِ عنِ المُؤْمنينَ الصّادِقينَ ، وما أعدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ مِنْ نَعيمٍ مُقيمٍ ، وذلكَ شأنُ الأُسلوبِ القُرآنيِّ ، يَذْكُرُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُرْدِفُهُ بما يُقابِلُهُ لِيتجلّى الفَرْقُ ، ويَظْهَرَ للعيانِ بِأَجْلى مَعانيهِ ، ولِيَعْلَمَ المُنافِقونَ أنّهم لَيْسوا عَلى شَيْءٍ مِنَ الإيمانِ .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

المُؤْمِنونَ والمُؤْمِناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ بِالنُّصْرَةِ والمَعونَةِ ، والمُساعَدَةِ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ ،

بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ وِلايَةَ أُخوَّةٍ ، ومَودَّةٍ ، ومُحبَّةٍ ، وصَداقَةٍ ، فالنَّبيُّ ﷺ يقولُ : « مَثَلُ المُؤْمنينَ في توادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ ، إذا اشْتَكى مِنهُ عُضو تَداعى لهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمّى »[1] .

ويقولُ أيْضاً : « المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشدُّ بعضُهُ بَعْضاً »[2] ، هذا هُوَ أساسُ الإيمانِ ، وطَبْعُهُ بينَ المُؤْمنينَ ، لا فَرْقَ بَيْنَ ذَكَرٍ وأنْثى .

ولْنَتأَمّلْ قولَهُ تَعالى في وصْفِ المُؤْمنينَ : ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ، وفي وصْفِ المُنافِقينَ : ﴿بعضُهُم مِنْ بَعضٍ﴾ نجدُ أنَّ المُنافِقينَ لا وِلايةَ بَينهُمْ ولا أُخُوةَ تَبلُغُ درجةَ الإيثار ، ولكنَّها أُخوَّةُ كلامٍ فقط ، فالمُنافِقونَ بعضُهُمْ يُشْبِهُ بعضاً في الشَّكِّ والارْتِيابِ ، ولكنْ لا صلةَ بَيْنَهُمْ ولا تآلُفَ . إذاً الوِلايَةُ ، والصِّلَةُ والأُخوَّةُ هيَ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ أصْحابِ العَقائِدِ الرّاسِخَةِ ، ولِذا قالَ اللهُ تَعالى فيهِمْ : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ .

وِلايةُ النُّصْرَةِ في الدِّفاعِ عنِ الحَقِّ والعَدْلِ والكَرامَةِ والدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى ، يأمُرونَ بالمَعروفِ ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ .

وبِعَكسِ ذلكَ المُنافِقونَ ؛ يأمُرونَ بالمُنْكَرِ ، ويَنْهَوْنَ عنِ المَعْروفِ ، ولا غرابةَ ، فهاتانِ الصِّفتانِ مِنْ أبرزِ صِفاتِ المنافِقينَ .

ومِنْ أوصافِ المُؤْمنينَ الّتي ذَكَرَها اللهُ تَعالى هُنا أيضاً ، أنَّهُمْ يُقيمونَ الصَّلاةَ ، أيْ : يُؤدّونَها في أوقاتِها كامِلَةً ، تامَّةَ الأرْكانِ والشُّروطِ ، فيها الخُضوعُ الكامِلُ والخُشوعُ للهِ تَعالى ، ومُراقَبَتُهُ وذِكْرُهُ ، أمّا صلاةُ المُنافِقينَ فللرِّياءِ والسُّمْعَةِ والنِّفاقِ ، إذا قاموا إليْها قاموا كُسالى .

ومِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ كذلكَ أنَّهم يُؤْتونَ الزَّكاةَ ، أي : يُعطونَها لِمُسْتَحقّيها من دونِ مَنٍّ ولا أذىً ، وإيتاءُ الزَّكاةِ دليلُ كمالِ الإيمانِ والخَشْيَةِ مِنَ اللهِ تَعالى ، والأملِ في رِضْوانِهِ .

وإنّما خُصَّ هذانِ الرُّكنانِ : الصَّلاةُ والزكاةُ بالذِّكرِ هنا ، لأنَّهُما علاجُ الهَلَعِ والجَزَعِ والبُخْلِ والخَوَرِ ، وكلُّ هذهِ أمراضٌ تَدفَعُ أصْحابَها إلى الإحْجامِ عنِ الدّفاعِ عَنِ الحَقِّ وإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وتَدْفَعُهُمْ إلى الشُّحِّ المانِعِ مِنَ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، ولِذا كانَ المُنافِقونَ أجبنَ النّاسِ وأبْخَلَهُمْ .

وقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى هذهِ الأُمورَ الأرْبَعَةَ : الأمْرَ بالمَعروفِ ، والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ ، وإقامَ الصَّلاةِ ، وإيتاءَ الزَّكاةِ ، أَساسَ النّجاحِ في الدُّنْيا ، وَوسيلَةَ العِمرانِ ، وإقامةِ الدّولةِ المُسلِمةِ

---

(١) رواه البخاري في الأدب حديث رقم : ٦٠١١ بلفظ قريب من هذا .
(٢) رواه البخاري في الصلاة حديث رقم : ٤٨١ .

الصّالحَةِ للتَّمْكينِ في الأرضِ ، قالَ تَعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وفوقَ هذهِ الصِّفاتِ كُلِّها فإنَّ الدّائِرَةَ الجامِعَةَ لَها هِيَ طاعةُ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ، باجْتِنابِ النَّواهي ، والامْتثالِ للأوامِرِ الرَّبانيَّةِ والنَّبويَّةِ ، لِذلِكَ جُعِلَتْ هذهِ الطّاعَةُ مِنْ أوصافِ المُؤْمنينَ الخاصّةِ .

واسْتِجماعُ هذهِ الصّفاتِ فيهِمْ ، قادَهُمْ إلى رَحمةِ اللهِ تَعالى الواسِعَةِ الّتي كَتَبها اللهُ لَهُمْ ، خالِصَةً مِنْ شوائبِ الكَدَرِ والشَّقاءِ ، إنَّ اللهَ تَعالى عزيزٌ ، لا يُغْلَبُ ، حكيمٌ في كلِّ ما وَضَعَ .

وبَعْدَ ذلِكَ فصَّلَ اللهُ تَعالى مظاهِرَ رَحْمَتِهِ للمُؤْمنينَ والمُؤْمناتِ أصْحابِ تلكَ الصِّفاتِ السّابقةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

وعَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ والمُؤْمناتِ جنّاتٍ جزاءً لَهُمْ ، وهلْ جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ، وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى جنّاتٍ مَوْصوفةً بِأنّها تَجْري مِنْ تَحتِها الأنْهارُ ، فليسَ فيها تَعَبٌ ولا مَشقَّةٌ ، ولا عَطَشٌ ولا ألَمٌ ، كما أنّ مياهَها طاهِرَةٌ نَظيفةٌ ، لا تتغيَّرُ بالمُكْثِ ، ولا تفْسُدُ بالوُقوفِ ، وهُمُ الخالِدونَ فيها إلى ما شاءَ اللهُ تَعالى ، ومُقيمونَ فيها إقامةً أبَدِيَّةً ، ووَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى كذلكَ مساكِنَ طيِّبَةً يَتمتَّعونَ بها ، مُشتمِلةً على جَميعِ المَرافِقِ ، وهذا هُوَ المَتاعُ الجِسْمانِيُّ في الآخِرَةِ ، وأمّا مَتاعُ الرّوحِ فالرِّضا والرِّضوانُ ، ورضوانُ اللهِ تَعالى أكبرُ مِنْ ذلكَ لا يقادَرُ قَدْرُهُ .

وبِهذا نَرى أنَّ هاتيْنِ الآيتينِ الكَريمتينِ قدْ بَشَّرَتا المُؤْمنينَ والمُؤْمِناتِ بأَعْظَمِ البِشاراتِ ، وَوَصفَتاهُمْ بأشرفِ الصِّفاتِ ، وقابَلَتا بَيْنَ جَزائِهِمْ وجَزاءِ الكُفّارِ والمُنافقينَ ، بِما يَحْمِلُ العاقِلَ عَلى أنْ يَسْلُكَ طريقَ المُؤْمنينَ وعلى أنْ يَنْهَجَ نَهْجَهُمْ ، ويَتحلّى بأوْصافِهِمْ ، وبذلك يفوزُ بنعيمِ اللهِ تَعالى ورِضاهُ كَما فازوا ، ويَسْعَدَ كما سَعِدوا ، ويَنْجو مِنَ العذابِ الّذي تَوعّدَ اللهُ تَعالى بِهِ المُنافِقينَ والكافِرينَ ، بسببِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ والنِّفاقِ ، وإيثارِهِمُ العَمى عَلى الرُّشْدِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأُخُوَّةُ في اللهِ تَعالى مِنْ أساسِ الإيمانِ .

٢ـ الوِلايةُ الحَقّةُ بَيْنَ المُؤْمنينَ .

٣ـ لا وِلايَةَ حقيقيةَ بَيْنَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

بعضُهُم أولياءُ بَعضٍ ، جَنّاتُ عَدْنٍ .

٢ـ بَيِّنْ كَيفَ يَمضي الأُسلوبُ القُرْآنيُّ في ذِكْرِ التَّقابُلاتِ ، وبيِّنْ ما أهميَّةُ هذا الأُسلوبِ وغايتُهُ .

٣ـ قالَ تَعالى في حقّ المُؤْمنينَ : « بَعْضُهُم أولياءُ بعضٍ » وفي حقِّ المُنافِقينَ : « بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » ما سِرُّ ذلِكَ ؟

٤ـ قارِنْ بَيْنَ المُؤْمنينَ والمُنافِقينَ في الأُمورِ التّالِيةِ :

أـ الأمْرُ بالمعَروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ .

ب ـ إقامُ الصّلاةِ .

ج ـ إيتاءُ الزّكاةِ .

د ـ الوِلايةُ .

٥ـ بيِّنِ الأشْياءَ الّتي جَعَلَها اللهُ تَعالى وسيلَةَ العِمرانِ وإقامةِ الدَّولةِ المُسلِمَةِ الصّالِحَةِ لِلتَّمْكينِ .

٦ـ بيَّنَ اللهُ تَعالى مظاهِرَ رَحمَتِهِ بالمُؤْمنينَ في الآخِرَةِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صِفةَ المُنافِقينَ في الإنْفاقِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَصيرَ المُنافِقينَ والكافِرينَ يومَ القِيامَةِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ العِشْرونَ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ
وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ
عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن
فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ
أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اغْلُظْ عَلَيْهِم : اشْدُدْ عَلَيْهِمْ ولا تَرْحَمْهُمْ .

نَقَموا : كَرِهوا ، عابوا ، أو أنْكَروا .

أعْقَبَهُم نِفاقاً : جَعَلَ عاقِبَةَ أمْرِهِمْ أنْ صاروا مُنافِقينَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ أَنْذَرَ اللهُ تَعالى المُنافِقينَ في آياتٍ مَضَتْ بالعَذابِ الشَّديدِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وسَمِعَ المُنافِقونَ هذا الإنذارَ ولَمْ يَرْتَدِعوا ، ومَضى عَلَيْهِمْ مِنَ المُدّةِ ما انكَشَفَتْ فيهِ دَخيلَتُهُمْ بما تكرَّرَ مِنْهُم مِنْ بوادرِ الكُفْرِ والكَيْدِ للمُسْلِمينَ ، أنجزَ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ بأنْ أمَرَ رَسولَهُ ﷺ بِجِهادِهِمْ وقِتالِهِمْ ، وهذا أيضاً نَوْعٌ مِنَ العَذابِ الدُّنيويِّ للمُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ .

يا أيّها النَّبيُّ ﷺ ثابرْ عَلى جِهادِكَ في رَدْعِ الكُفّارِ عَنْ كُفْرِهِمْ ، والمُنافِقينَ عَنْ نِفاقِهِمْ ، واشْتَدَّ عليْهِمْ في جِهادِكَ ولا يَكُنْ لَكَ فِيهِمْ لينٌ ولا رَحْمَةٌ ، لأنّهمْ لا يَرحمونَ أنفسَهُمْ ، وإنَّ مآلَهُمُ الّذي أعدّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ في الآخِرَةِ هُوَ جهنَّمُ ، وما أسوأَ هذا المَصيرِ .

وهذا دواءٌ وعِلاجٌ ربّانيٌّ ، فإنَّ المُذْنِبَ إذا عومِلَ مُعامَلَةً ليّنَةً ربّما أطْغَتْهُ وجَعَلَتْهُ يَتمادى ، وبالعَكْسِ لو عومِلَ بالشِّدَّةِ نوعاً ما ، كانَ ذلِكَ أدْعى إلى أنْ يَرْجِعَ إلى نَفْسِهِ ، ويُحاسِبَها حساباً قدْ يَنتُجُ عنهُ رجوعُهُ إلى الجادّةِ ، والطَّريقِ المُستقيمِ . والجِهادُ المأمورُ بِهِ للفَريقيْنِ مُختلِفٌ ، فجِهادُ الكُفّارِ كانَ بالسّيْفِ ، وأمّا جِهادُ المُنافِقينَ فلم يَكُنْ كذلكَ ، وإنّما كانَ باللسّانِ والحُجَّةِ والبَيانِ ، لأنّ المُنافِقَ مُنْدَسٌّ في صُفوفِ المُسْلِمينَ غيرُ مُعْلِنٍ نِفاقَهُ ، ومِثْلُهُ لا يُجاهَدُ جِهادَ الكُفّارِ ، وهو عَلى هذِهِ الحالَةِ .

وقدْ كانَ هذا هُوَ الّذي حَدَثَ مَعَ النَّبيِّ وهؤُلاءِ ، ولَمْ يَخْفَ أنَّ مَنْ أظْهَرَ نِفاقَهُ عَلى المَلأَ عومِلَ مُعامَلَةَ الكُفّارِ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

وبَعْدَ هذا بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما كانَ عليهِ المُنافِقونَ مِنْ كَذِبٍ وفُجورٍ ومِنْ خِيانَةٍ وغَدْرٍ ، وفَتَحَ أمامَهُمْ بابَ التَّوْبَةِ ، وأنْذَرَهُمُ العَذابَ الأليمَ إذا اسْتَمرّوا فيما هُمْ فيهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾﴾ .

إنّ المُنافِقينَ يَحْلِفونَ أمامَكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ باللهِ أنّهُمْ ما قالوا مُنْكَراً مِمّا بَلَغَكَ عَنْهُمْ ، وهُمْ كاذِبونَ في الإنْكارِ ، حانِثونَ في اليَمينِ ، وأنّهُمْ قد قالوا كَلِمَةَ الكُفْرِ ، عِياذاً باللهِ تَعالى وظَهَرَ كُفْرُهُمْ بعدَ أنْ كانَ باطِناً خَفِيّاً .

وما كانَ سببُ نِقمَتِهِمْ عَليكُمْ إلاّ بَطَراً بالنِّعمَةِ ، بَعْدَ أنْ أغناهُمُ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ بما حَصَلوا عَلَيْه مِنَ الغَنائِمِ الّتي شارَكوا فيها المُسلِمينَ ، فإنْ يَرْجِعوا إلى اللهِ تَعالى بِتَرْكِ النِّفاقِ والنَّدَمِ عَلى ما كانَ مِنهُمْ يَقْبَلُ اللهُ تَعالى تَوْبَتَهُمْ ، ويكونُ ذلِكَ خيراً لَهُمْ ، وإنْ يُعْرِضوا عَنِ الإيمان يُعذِّبْهُمُ اللهُ تَعالى عذاباً أليماً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وليسَ لَهُمْ في الأرضِ مَنْ يُدافِعُ عَنْهُمْ أو يَشْفَعُ لَهُمْ ، أو يَنْصُرُهُمْ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى حَكى لَنا بَعْدَ ذلِكَ نَماذجَ مِنْ جُحودِهِمْ ، ونَقْضِهِمْ لِعهُودِهِمْ وبُخْلِهِمْ بما آتاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

وهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ بيانٌ لحالِ طائِفةٍ مِنْ أُولئِكَ الّذين أغْناهُمُ اللهُ تَعالى ورسولُهُ مِنْ فَضْلِهِ بَعْدَ الفَقْرِ والإمْلاقِ ، ويُوجَدُ مِثْلُهُمْ في كلِّ زمانٍ ، وهُمُ الّذينَ يَلجأونَ إلى اللهِ تَعالى في وقتِ العُسْرَةِ والفَقْرِ أوِ الشِّدَّةِ والضُّرِّ ، فَيَدْعونَهُ ويُعاهِدونَهُ عَلى الشُّكْرِ لهُ والطّاعَةِ لِشَرْعِهِ إذا هو كَشَفَ ضُرَّهُمْ ، وأغْنى فَقْرَهُمْ ، فإذا اسْتَجابَ لَهُمْ نُكِسوا عَلى رُؤوسِهِمْ ونَكَصوا عَلى أعْقابِهِمْ ، وكَفَروا النِّعْمَةَ ، وبَطَروا الحَقَّ ، وهَضَموا حُقوقَ الخَلْقِ ، وهذا مَثَلٌ مِنْ شَرِّ أمْثالِهِمْ ، فهذِهِ الآيَةُ إذَنْ تَحكي صورَةً حَقيقيةً وَواقِعيَّةً لِبعضِ المُنافِقينَ المُعاصرينَ لِلْعَهْدِ النَّبويِّ الشَّريفِ ، والّذينَ عاهَدوا اللهَ تَعالى فَنَقَضوا عُهودَهُمْ مَعَهُ ، وقابَلوا ما أعْطاهُمْ مِنْ نِعَمٍ بالبُخْلِ والجُحودِ .

ومِنَ المُنافِقينَ قَومٌ عاهَدوا اللهَ تَعالى وأكّدوا عُهودَهُمْ بالأيْمانِ المُغَلَّظَةِ ، فقالوا لَئِنْ آتانا اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ مالاً وفيراً ، لَنَصَّدَّقَنَّ منهُ عَلى المُحْتاجينَ ، ولَنُعْطِيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولَنَكونَنَّ مِنْ عبادِ اللهِ الصّالِحينَ الّذينَ يُؤدّونَ واجِبَهُم نَحوَ اللهِ تَعالى والنّاسِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى كَذِبَهُمْ ونِفاقَهُمْ ، وأنَّهم بِمُجرّدِ أنِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لَهُمْ ظَهَروا بِمَظْهَرِهِمُ الحَقيقيِّ المُتمثِّلِ في البُخْلِ والجُحودِ والنُّكْرانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

فلمّا أعْطى اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ هؤلاءِ المُنافِقينَ ما تَمنَّوْهُ مِنْ مالٍ وفيرٍ بَخِلوا بِهذا المالِ ، فَلَمْ يُنْفِقوا منهُ شَيْئاً في وُجوهِهِ المَشْروعَةِ ، ولمْ يَعْتَرِفوا فيهِ بِحقوقِ اللهِ تَعالى أو حُقوقِ النّاسِ ، ولم يَكْتَفوا بذلكَ ، بلْ أدْبَروا عَنْ طاعةِ اللهِ تَعالى ، وعنْ فِعْلِ الخَيْرِ ، وهُمْ قَوْمٌ دَأْبُهُمُ التّولّي عَنْ سَماعِ الحَقِّ ، وشَأْنُهُمُ الانْقِيادُ لِلْهَوى والشَّيْطانِ .

وبَعْدَ هذا بَيَّنَ اللهُ تَعالى ماذا فَعَلَ بِهِمْ جَزاءَ هذا الجُحودِ والنُّكْرانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

فكانتْ عاقبةُ بُخْلِهِمْ أنْ جَعَلَ اللهُ تَعالى النِّفاقَ مُتَمَكِّناً في قُلوبِهِمْ إلى أنْ يَموتوا ويَلقَوْا اللهَ تَعالى ، بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ عَهْدَهُمْ معَ اللهِ وبِسَبَبِ كَذِبِهِمْ في أيْمانِهِمْ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ بِتَوْبيخِهِمْ عَلى إصْرارِهِم عَلى المَعاصي ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

ألَمْ يَعلَمْ هؤُلاءِ أنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُ ما يُسرّونَهُ في أنْفُسِهِمْ مِنْ نِفاقٍ ، وما يَتناجَوْنَ فيما بَيْنَهُمْ مِنْ

أقوالٍ فاسدةٍ ، وأنّه سُبْحانَهُ لا يَخفى عليهِ شَيءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماءِ ، بلى إنَّهم لَيَعلمونَ ذلكَ عِلْمَ اليَقينِ ، ولكنَّهُم لاسْتيلاءِ الهَوى وسَيْطَرَةِ الشَّيْطانِ عَلَيْهِم لَمْ يَنتفعوا بِعِلْمِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُسلمينَ أنْ يُجاهِدوا أعْداءَهُمْ بالسِّلاحِ المُناسبِ لِجعلِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى هِيَ العُلْيا .

٢ـ وُجوبُ الوفاءِ بالعُهودِ ، فإنَّ نَقْضَها مِنْ عَلاماتِ النِّفاقِ .

٣ـ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ ضَعيفةٌ شَحيحةٌ إلاّ ما عَصَمَ اللهُ تَعالى ، فإنْ تُرِكَتْ عَلى هَواها أوْرَدَتْ صاحِبَها المَهالِكَ .

٤ـ لا يَنفَعُ النَّدَمُ بعدَ فواتِ الأوانِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

اغْلُظْ عَليْهِمْ ، وما نَقَموا إلاّ أنْ أغْناهُمُ اللهُ ، أعْقَبَهُم نِفاقاً .

٢ـ قالَ تَعالى : ﴿يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمُنافِقينَ﴾ ، هلْ جِهادُ الطّائِفَتيْنِ هنا واحدٌ ؟ ولِماذا ؟

٣ـ في الآياتِ الكَريمَةِ بيانُ سَبَبِ نِقْمَةِ المُنافِقينَ ، بَيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ على ما يَلي :

أـ المُنافِقُ يَحْلِفُ باللهِ كَذِباً .

ب ـ بابُ التّوبَةِ مَفتوحٌ لِلمُنافِقينَ .

ج ـ المُنافِقُ إنْ وقَعَ عَلَيْهِ أمْرُ اللهِ تَعالى ليسَ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .

د ـ المُنافِقُ بَخيلٌ شَحيحٌ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الفَرْقَ بينَ الجِهادِ والقِتالِ .

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟
يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ
طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم
بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- **يَلْمِزونَ** : يَعيبونَ ويُنْقِصونَ .
- **المُطَّوِّعينَ** : أغنياءَ المُؤْمِنينَ الَّذين قَدَّموا أموالَهُم للهِ تَعالى طَواعِيَةً .
- **جُهْدَهُمْ** : أقْصى ما عِنْدَهُم .
- **لا تَنْفِروا** : لا تَخْرُجوا لِلْجِهادِ .
- **الخالِفينَ** : الَّذينَ تَخلَّفوا عنِ الخُروجِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ قَصْداً .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ قَبائحِ المُنافِقينَ ما ذَكَرَهُ في الآياتِ السَّابقةِ ، وذَكَرَ سُبْحانَهُ لنا مَثَلاً مِنْ واقِعِهِم المَريرِ ، والَّذي تَظهَرُ فيهِ صُورَتُهُمُ القَبيحةُ كما هِيَ ، زادَنا اللهُ تَعالى شَيْئاً مِنْ

قبائِحِهِمْ ، الّتي تُظْهِرُ مَوْقِفَهُمْ مِنَ المؤمنينَ الصّادِقينَ الذّينَ كانوا يَبْذُلونَ أمْوالَهُمْ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

إنَّ هذهِ الآيةَ لَتُبيِّنُ شَيئاً مِنْ صِفاتِ المُنافِقينَ ، الّتي مِنْ خلالِها يَظْهَرُ أنّهُ لا يَسْلَمُ أحدٌ منْ عَيْبِهِمْ ولَمْزِهِمْ في جَميعِ الأحوالِ ، حتّى ولا المُتَصدِّقونَ المُنْفِقونَ ، فقدْ أخرجَ البُخاريُّ في سَببِ نُزولِ هذهِ الآيةِ عَنْ أبي مَسعودٍ قال : لمّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كُنّا نَتَحامَلُ (أيْ يَحمِلُ بَعضُنا لِبعضٍ بالأُجْرَةِ) فجاءَ أبو عقيلٍ بنصفِ صاعٍ ، وجاءَ إنسانٌ بأكثرَ منهُ ، فقالَ المُنافِقونَ : إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن صَدَقةِ هذا ، وما فَعَلَ الآخَرُ إلاّ رياءً فنَزَلَتْ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[1] .

إنّ مِنَ الصِّفاتِ القَبيحةِ ـ أيْضاً ـ للمُنافِقينَ ، أنَّهم كانوا يَعيبونَ عَلى المُؤْمِنينَ إذا بَذَلوا أمْوالَهُمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ عنْ طَواعيةِ نَفْسٍ ورضا قَلْبٍ ، وسماحةِ ضَميرٍ ، لأنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ لِخُلُوِّ قُلوبِهِمْ مِنَ الإيمانِ كانوا لا يُدْرِكونَ الدّوافِعَ السّامِيَةَ ، والمَقاصِدَ العالِيَةَ مِنْ وراءِ هذا البَذْلِ ، ومِنْ أجلِ هذا كانوا يَقولونَ عَنِ المُكْثِرِ إنَّهُ يَبذُلُ رياءً ، وكانوا يَقولونَ عَنِ المُقِلِّ : إنَّ اللهَ تَعالى غنيٌّ عَنْ صَدَقَتِهِ ، فَهُمْ ـ لسوءِ نواياهُمْ وبُخْلِ نُفوسِهِمْ وخُبْثِ قُلوبِهِمْ ـ يُرْضيهِمْ أنْ يَرَوْا المُؤْمِنينَ يَتنافَسونَ في إرضاءِ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، ولِذلِكَ يَقومُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ بالاسْتِهزاءِ بالمُؤْمِنينَ عندما يُلبّونَ دعوةَ رسولِ اللهِ ﷺ للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى . ولقدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جزاءَهُم في الدُّنْيا والآخِرَةِ بأنَّهُ سُبْحانَهُ فَضَحَهُمْ وأخْزاهُمْ ، وجَعَلَهُمْ مَحَلَّ الاحتقارِ والازْدِراءِ ، أمّا في الآخِرَةِ فلهُمُ العَذابُ الأليمُ الّذي لا يَخِفُّ ولا يَنْقَطِعُ .

ثُمَّ عقّبَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذا الحُكْمَ عَلَيْهِم بالعذابِ الأليمِ بِحُكْمٍ آخَرَ ، وهو عدمُ المَغْفِرَةِ لَهُمْ بسببِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ والفُسوقِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

لنْ يَنفَعَهُمْ أنْ تَستجيبَ لِدُعاءِ بَعْضِهِمْ ، وتَطلُبَ المَغْفِرةَ مِنَ اللهِ تَعالى لَهُمْ ، سواءٌ إنْ تَستغفرْ لهمْ أيُّها النَّبيُّ ﷺ أو لا تَستغفرْ لَهُمْ ، ومَهْما أكْثَرْتَ مِنْ طلبِ المَغفرةِ لَهُمْ ، فلنْ يَعفوَ اللهُ تَعالى عَنهُم ، لأنَّهُ لا أمَلَ في العَفْوِ والمَغفِرَةِ معَ الكُفْرِ والإصْرارِ عَلَيْهِ ، وقدْ كَفَرَ هؤُلاءِ باللهِ تَعالى

(١) رواه البخاري ، كتابُ التفسير ، حديث رقم ٤٦٦٨ .

ورسولِهِ ﷺ ، واللهُ تَعالى لا يَهدي الخارجينَ عَلَيْهِ وعلى رسولهِ ﷺ ، لِتمرُّدِهِمْ عَلى شَرْعِهِ ودينِهِ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ بيانٌ لِشدَّةِ شَفَقةِ النَّبيِّ ﷺ عَلى أُمّتِهِ ، وحِرْصِهِ عَلى هِدايَتِها ، وكَثرةِ دُعائِهِ لها بالرَّحْمةِ والمَغفِرَةِ ، وأنّه مَعَ إيذاءِ المُنافِقينَ لهُ كانَ ﷺ يَستغفِرُ لَهُمْ في تَوْبَتِهِمْ ، حتّى نهاهُ اللهُ تَعالى عَنْ ذلكَ ، عِنْدَها تَوقَّفَ .

وهكذا صَدَرَ الحُكْمُ الإلهيُّ مِنَ اللهِ تَعالى عَدْلاً في هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، بعدمِ المَغفِرَةِ لَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ باللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ورسولِهِ ﷺ .

وبَعْدَ هذا الحديثِ الطَّويلِ المُتنوِّعِ عنْ أحوالِ المُنافِقينَ وَمسالِكِهِمُ الخَبيثةِ أخذتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في الحديثِ عَنْ تَخلُّفِهِمْ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ورَفْضِهِمُ الخُروجَ مَعَ الرّسولِ ﷺ إلى تبوكَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

لقدْ فَرِحَ المُنافِقونَ الَّذينَ تَخلَّفوا عنِ الخُروجِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ والمُسلِمينَ ، وفَرِحوا أيضاً بقعودِهِمْ في المدينةِ بَعْدَ خُروجِ النَّبيِّ ﷺ مِنها ، وبِمُخالَفَتِهِمْ أمْرَهُ والجِهادَ مَعَهُ ﷺ ، وكَرِهوا أنْ يُجاهِدوا بأَموالِهِمْ ، ويُضحّوا بأَرْواحِهِمْ في سبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنَصْرِ دينِهِ ، وأخذوا يُثبِّطونَ غيرَهُم ، ويُغْرونَهُمْ بالقُعودِ مَعَهمْ ، ويُخوِّفونَهُمُ النَّفيرَ إلى الحَرْبِ في الحَرِّ ، فأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لَهُمْ : لو كُنتمْ تَعقِلونَ لَذكرتُمْ أنَّ نارَ جَهنَّمَ أكثرُ حرارةً وأشَدُّ قَسْوةً مِمّا تَخافونَ ، فَتخلُّفُكُمْ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ يوجِبُ عذاباً شديداً .

وإنّما فَرِحَ المُنافِقونَ بهذا القُعودِ ، وكَرِهوا الجِهادَ ، لأنَّهم قَومٌ خَلَتْ قُلوبُهُمْ مِنَ الإيمانِ باللهِ تَعالى واليوم الآخِرِ ، وهَبَطَتْ نفوسُهُمْ عَنِ الارتفاعِ إلى مَعالي الأُمورِ ، وآثَروا الدُّنْيا وشَهواتِها الزّائلَةِ عَلى الآخِرَةِ ونَعيمِها الباقي ، ألا بِئْسَ ما صَنَعوا .

ثُمَّ تَوعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى وأخْبَرَ عنْ عاجِلِ أمْرِهِمْ وآجِلِهِ ، فإنْ ضَحِكوا في الدُّنْيا وفَرِحوا ، فسوفَ يبكونَ يومَ القِيامةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

إنّهُ وإنْ فَرِحوا وضَحِكوا طَوالَ أعْمارِهِمْ في الدُّنْيا ، فهو قليلٌ بالنسبةِ إلى بُكائِهِمْ في الآخِرَةِ ، لأنّ الدُّنيا فانيةٌ ، والآخِرَةُ باقيةٌ ، والمُنْقَطِعُ الفاني قليلٌ بالنِّسبةِ إلى الدائِمِ الباقي ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّهُ لم يَظْلِمْهُمْ بما توعَّدَهُمْ بهِ مِنَ الضَّحِكِ القليلِ ، والبُكاءِ الكَثيرِ ، وإنّما هذا الوَعيدُ جزاءٌ لهم عَلى ما اكْتَسبوهُ مِنْ فنونِ المَعاصي ، وما اجْتَرحوهُ مِنْ مُحارَبَةٍ دائمةٍ لدعوةِ الحَقِّ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يَجِبُ عَلى الرّسولِ ﷺ نحوَ هؤُلاءِ المُخلَّفينَ الكارِهينَ لِلجِهادِ ، فقال سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

فإنْ رَدَّكَ اللهُ تَعالى مِنْ سَفرِكَ هذا أيُّها الرّسولُ ﷺ إلى الطّائِفَةِ مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذينَ تَخلَّفوا عنِ الخُروجِ مَعَكَ إلى تَبوكَ فاسْتَأْذَنوكَ للخُروجِ مَعَكَ في غَزوةٍ أُخْرى بعدَ هذهِ الغَزْوَةِ ، فَقُلْ لهم عَلى سبيلِ الإهانَةِ والتَّحقيرِ : لنْ تَخرجوا مَعِيَ أَبداً ما دُمتُ عَلى قيدِ الحياةِ ، ولن تُقاتِلوا مَعِيَ عدوّاً مِنَ الأعْداءِ الَّذينَ أمَرَني اللهُ تَعالى بِقِتالِهِمْ ، والسَّبَبُ في ذلِكَ أنّكُمْ أيُّها المُنافِقونَ رَضيتُمْ بالقُعودِ عَنِ الخُروجِ مَعِيَ ، وَفرِحْتُمْ بهِ في أوّلِ مَرَّةٍ دُعيتُمْ إلى الجهادِ ، فَجزاؤُكُمْ وعِقابُكُمْ أنْ تَقْعُدوا مَعَ الّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الغَزْوِ ، لعدمِ قُدرَتِهِمْ عَلى تَكاليفِهِ ، كالمَرْضى والنّساءِ والصِّبيانِ أو مَعَ الأشرارِ الفاسِدينَ الَّذينَ يَتَشابهونَ مَعكُمْ في الجُبْنِ والنِّفاقِ وسوءِ الأخلاقِ .

وفي مَنْعِ المُنافِقينَ مِنَ الخُروجِ ومُقاتَلةِ أعداءِ الدّينِ زيادةٌ في تَبكيتِهِمْ وإهْمالِ شأْنِهِمْ ، وفيهِ كَراهيةُ مُصاحَبَتِهِم ، لأنّهم لو خَرَجوا مَعَ المُؤْمنينَ ما زادوهُمْ إلاّ خَبالاً ، ولَوْ قاتَلوا مَعَهُمْ لكانَ قِتالُهُمْ خالياً مِنَ الغايةِ السّامِيَةِ الّتي مِنْ أجْلِها قاتَلَ المُؤْمِنونَ ، وهي إعلاءُ كلمةِ اللهِ تَعالى ، وكلُّ قتالٍ خلا مِنْ تلكَ الغايةِ كانَ مآلُهُ الهزيمةَ .

وقدِ اشْتَملتْ هذهِ الآياتُ الكَريمَةُ عَلى بعضِ صفاتِ المُنافِقينَ ، كما اشْتَمَلَتْ عَلى أشدِّ ألوانِ الوعيدِ لَهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ جزاءً بِما كانوا يَكْسِبونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ دَيْدَنُ المُنافِقينَ الهَمْزُ واللّمْزُ لعِبادِ اللهِ تَعالى المُؤْمِنينَ .

٢ـ الكُفْرُ باللهِ تَعالى هو الحائِلُ بينَ الكافِرينَ ورحمتِهِ سُبْحانَهُ ، ومِنْ ثُمَّ لا يَنفعُهُمُ اسْتِغْفارُ المُؤْمنينَ .

٣ـ المُنافِقُ لا يُحِبُّ الجِهادَ بنفسِهِ ولا بمالِهِ ، وهو دائِمُ التَّثبيطِ للمُجاهِدينَ .

٤ـ شَأْنُ المُنافِقِ شَأْنُ العاجِزِ الّذي لا يَعْقِلُ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَلمِزونَ ، المُطَّوِّعينَ ، لا يَجدونُ إلاّ جُهْدَهُمْ ، لا تَنْفِروا في الحَرِّ ، اقْعُدوا مَعَ الخالِفينَ .

٢ـ لِماذا يَفْرَحُ المُنافِقُ لِلْتَخَلُّفِ عَنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ في قولِهِ تَعالى : ﴿فَلْيَضْحَكوا قليلاً ولْيَبْكوا كَثيراً﴾ تهديدٌ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ لِماذا نُهِيَ النَّبيُّ عنِ اصْطِحابِ المُنافِقينَ مَعَهُ للجهادِ ؟

٥ـ أـ بِماذا تَعلَّلَ المُنافِقونَ كيْ يَتخلَّفوا عنِ الخُروجِ إلى تَبوكَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ؟

ب ـ بماذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورةً مِن صُورِ تَنافُسِ المُؤْمنينَ في التَّبرُّعِ لغزوة تَبوكَ .

* * *